# الإفتتاحية

## القدوة والقائد

الدكتورة نجوة قصاب حسن
وزيرة الثقافة



لم يشهد التاريخ المعاصر مرحلة دقيقة وصعبة كتلك التي نعيشها في الآونة الأخيرة. ففي هذه الظروف الدولية الاستثنائية وفي غمرة الأحداث المتتالية التي تشابكت فيها المواقف والمفاهيم ليس أصعب من أن نحقق صموداً مبنيًا على ثوابت، وأن نستمر في حمل أمانة رسالة أمة. وأن ندافع عن هويتها ورؤيتها.

في هذه الأجواء التي جعلت الكثيرين ينحنون أمام عواصف مجريات الأحداث بقيت سورية رافعة الرأس، ثابتة الموقف والمبدأ، لايضيرها تهديد، او يعيقها امتحان.

وضوح الرؤية هو المنطلق والأساس، والتمسك بالكرامة العربية هو المنارة، وصدق الانتماء يستضاء به في مسيرة العمل. كذلك كانت سورية متفردة ومحط أنظار العرب وآمالهم. بريق أملٍ باستمرار عزة الصمود أمام التحديات «ففي الليلة الظلماء يفتقد البدر».

نقاط مضيئة في سياسة سورية أصبحت معالم أساسية يهتدى بها، وثوابت قومية لا يساوم عليها، باتت نقاط انطلاق في أي تخطيط جديد للمستقبل.



إن مصدر القوة ينبعث من القدرة على الإعداد للدفاع عن الأرض والكرامة، واستعداد مماثل لتقبل مبادرات السلام العادل والشامل المستند إلى الشرعية الدولية، وحماية الحقوق للشعب العربي وحقوق الشعب الفلسطيني.

دعم للمقاومة الوطنية ورفض للإرهاب. استجابة لدعوة المجتمع الدولي في تضامنه مع القضايا العادلة، وصمود أمام التحديات المجحفة، تلك هي المواقف المتوازنة القائمة على الثوابت والمنطق والعدل. وتلك هي المهمة الأصعب في الظروف الصعبة، والتي حمل أمانة الدفاع عنها السيد الرئيس بشار الأسد ليثبت استمرار مواقف سورية المشرفة ودورها الرائد.

أن من يقرأ تاريخ سورية المعاصرة يشهد التكامل بين الموقف المبدئي والإنساني في إطاره السياسي العام، وفي إطاره المتمثل في استراتيجيات العمل الاجتماعي والإنساني، وفي برامج التطوير والبناء المجتمعي والقيمي والتعليمي.

اهتمام بالتكامل الاقتصادي العربي، وتركيز على برامج تطوير البنية الاقتصادية في سورية. دفاعٌ عن حقوق الشعب الفلسطيني وعن أطفال فلسطين. وتثبيت لمقومات حقوق الإنسان في العيش الكريم، وإعطاء الأولوية في الاهتمام بالطفولة في سورية. اهتمام استثنائي بالتراث والآثار والعراقة، وتركيز علمي على تحقيق أعلى مستويات التطوير والتحديث في البنى والمؤسسات الاجتماعية والعلمية.



تمسك بالهوية العربية، وانفتاح على شعوب العالم وثقافاتها، واعتزاز بالخصوصية التي ترتقي إلى مستوى العالمية في إنسانيتها وشفافيتها.

إنه التكامل والتوازن الذي لا يفصل بين المواقف العامة والخاصة، بين السياسات الخارجية والداخلية، بين خير الشعوب وخير الوطن، بين العمل في خطوطه العريضة وأطره العامة، وبين الاهتمام بالتفاصيل الدقيقة لمسيرة العمل والارتقاء به.

هكذا حمل السيد الرئيس أمانة الريادة في هذا البلد العريق الممتد في

جذوره إلى عمق التاريخ، والمرتفع إلى أعالي القمم، يشعر كل فرد باعتزاز الانتماء إلى وطن يتشرف بمواقفه الوطنية، ويدرك في الوقت ذاته أنه موقع رعاية واهتمام خاص به كإنسان له حقوقه، وكفرد في مؤسسة اجتماعية لها حقوقها وأدوارها.

إيقاع عمل جديد تعيشه سورية يسير بتواتر أسرع وأجدى. ورشة عمل، وأداء متطور، ورؤية علمية، يتم تجسيدها وتبنيها.

خطوات ثابتة نحو الغد المشرق، وعمل دؤوب يوجهه الإخلاص والوفاء لقائد عرف كيف يُنهض الهمم ويشحذ القوى.

وكيف يكون القدوة والقائد والمواطن الأمثل والوطن، وكيف تكتب صفحات التاريخ بالعزة والشرف.

9

# فاعلية الفكر المتجدد



رئيس التحرير

كما هي حال دورة الفصول التي لا تعرف التوقف، والكواكب التي لا تكف عن الدوران حول نفسها، أو حول الشمس؛ فالحياة لاتعرف الثبات والسكون على حال واحدة، بل هي تتجدد مع كل فكر متجدد، ومع كل إبداع يساهم في دفع عملية الحياة باتجاه الأمام.

وإذا كان هذا الأمر ملحوظًا ومعروفًا عند الأغلبية العظمى من شعوب الأرض؛ فهو هذه الأيام أصبح مطلبًا ملحًا، وأمرًا واقعًا، تفرضه المستجدات والمتغيرات والاكتشافات اليومية لابل الساعية التي تطالعنا بها وسائل الاتصال الحديثة في عصر التفجر المعرفي، والإنترنت، ولم يعد محتملاً ولا مقبولاً أن يتجاهل أحد ، أو يغمض عينيه، أو يدير ظهره لما يجري فوق هذا الكوكب الذي نعيش فوقه مع شعوب الأرض قاطبة، فحركية الحياة في تصاعد مستمر، ومنتجات الفكر المتجدد، وفاعليته تملأ دنيانا في جوانب المعرفة كافة، ولسنا في منأى أو منجاة من قراءة مايظهر أمامنا على الشاشة الفضائية من مكتشفات جديدة، ومستجدات كونية لابد أن تصل بعض شظاياها إلى داخل حدودنا الجغرافية. وتقتحم علينا أبواب بيوتنا ونوافذنا مهما أحكمنا إغلاقها. فالحدود تتلاشى شيئًا فشيئًا أمام زحف العولمة القادم من الجهات الست، وليس أمام الشعوب التي تماثلنا في الضعف والتفكك على الرغم من غنى تاريخها وتراثها، وعراقة ماضيها، وأصالة حضارتها، ليس أمام هذه الشعوب المستضعفة في الأرض إلا أن تعيد توازنها في زخم هذه الإرهاصات المدهشة للسمع والبصر والقلب، وأن ترفض المراوحة في المكان، تجتر ذلك الماضي البعيد، وتعيش على أحلامه وأمانيه، لأن المراوحة في المكان تعني الجمود، والجمود يعني الموت البطيء داخل توابيت الصقيع والتخلف بعيداً عن فاعلية

الفكر المتجدد الذي يشكل المنطلق لكل حركة إبداعية فاعلة في المجتمع والحياة تحقق الديمومة في الإبداع والتجديد والتطوير على مر العصور، وليس طفرة فردية في دوائر الذات المغلقة المبهرجة أكثر الأحيان بالأنا النرجسية المعيقة للفكر الجمعي المتجدد في السياق التاريخي لكل إبداع زمانياً ومكانياً. صحيح أن الإبداع بجميع معارفه وعلومه وأجناسه وفنونه يعبّر عن العقل الخلاق الذي يشكل عصارته الخاصة والأقلية في رحاب الأكثرية. وصحيح أن ذات المبدع لا تنفصل عن مضمونه وموضوعاته فيما يبدع، كالثمر الذي ينبئ عن نوع الشجر والنبات الحامل له. إلا أن ذلك لايحول أبداً من أن يكون في نهاية المطاف شعبياً وجماهيرياً، أي مجتمعياً، بحيث يتحول الخاص إلى عام، والذات الفردية المبدعة إلى ذات إبداعية جماعية، والأنا إلى نحن في سياق الزمن، والواقع، والمجتمع، والمناخات المواكبة لكل فكر متجدد، هذا الفكر الذي أكد عليه السيد الرئيس بشار الأسد في خطاب القسم كقاعدة رئيسة لكل تطوير وتحديث في المجتمع، وعدّه من أهم المحاور إذا لم نقل أهمها على الإطلاق في تحقيق هذا الهدف الذي يؤلف بين الغاية والوسيلة للنهوض بالواقع إلى مراحل متقدمة باستمرار، وفي ذلك يقول: «علينا من أجل الوصول إلى مانبتغيه، أن نتحرك بالتوازي وبنفس الوقت على ثلاثة محاور أساسية:

المحور الأول: ويتضمن طرح أفكار جديدة في المجالات كافة، سواء بهدف حل مشكلاتنا ومصاعبنا الراهنة، أو بهدف تطوير الواقع الحالي.

المحور الثاني: ويتضمن تجديد أفكار قديمة لا تتناسب وواقعنا، مع إمكانية الاستغناء عن أفكار قديمة لا يمكن أن نجددها، ولم يعد ممكنًا الاستفادة منها، بل أصبحت معيقة لأدائنا.

المحور الثالث: ويتضمن تطوير أفكار قديمة تم تجديدها لكي تتناسب مع الأهداف الحاضرة والمستقبلية، وكل عمل بحاجة إلى قياسات لتحديد نسبة الإنجاز والتقدم فيه. ومن المفيد في هذا المجال أن نستند إلى مجموعة من المعايير:

المعيار الأول: هو عامل الزمن الذي يفترض بنا أن نعمل على استغلاله بحده الأقصى بهدف تحقيق الإنجازات التي نتطلع إليها بأقصر مدة ممكنة.



المعيار الثاني: وهو طبيعة الواقع الذي نعيش فيه، والظروف المختلفة التي تحيط بنا، الداخلية منها والخارجية.

المعيار الثالث: وهو الإمكانية المتوفرة بين أيدينا للانطلاق والوصول إلى الهدف المحدد، آخذين بعين الاعتبار أن الإمكانيات ليست معطيات ثابتة بل هي قابلة للتعديل باستمرار من خلال جهودنا وفعالياتنا.

المحور الرابع: وهو المصلحة العامة. وفيها تلتقي كل المعايير السابقة، ومن خلالها تتحدد. وهي معيار وهدف في وقت واحد. إذ ماقيمة أي عمل

نقوم به لايكون رائده المصلحة العامة. ولكن للقيام بالتحرك المطلوب - ونحن واثقون من بلوغ النجاح - لابد من أن تتوافر لدينا مجموعة من الأدوات أهمها:

الفكر المتجدد: وأعني به الفكر المبدع الذي لايتوقف عند حد معين، ولايحصر نفسه في قالب واحد جامد، وكم نحن بحاجة إليه اليوم وغداً لدفع عملية التطوير قدمًا إلى الأمام، والبعض يعتقد أن هذا الفكر المتجدد يرتبط بالسن، أي يغلب وجوده عند الشباب، وهذا غير دقيق تماماً فبعض الأشخاص يدخلون سن الشباب، وقد تحجرت عقولهم باكراً، والبعض الآخر من كبار السن يفارق الحياة وعقله مايزال يضج بالحيوية والإبداع».



إنها الخطوط العريضة، والمنهج، والدليل لرفض المراوحة في المكان، والجمود، والانغلاق، ودعوة صريحة لرعاية الإبداع والمبدعين، وتوفير الشروط الملائمة لوثبات الإبداع وتحسينه والكشف عنه في المجالات كافة، وليست المبادرة الكريمة* التي شهدتها مكتبة الأسد في الأسبوع الماضي من خلال تكريم ثلاثة أساتذة مبدعين كبار في قطرنا الحبيب هم الدكتور عبد الكريم اليافي والروائي حنا مينه والقاص زكريا تامر، الذين جسدوا على أرض الواقع فاعلية الفكر المتجدد في وطننا إلا خطوة على طريق الألف ميل لتكريم الإبداع والمبدعين، وتأكيداً على أن حركية الإبداع هي المقدمة

والقاعدة والمنطلق لكل حركية تطوير وتحديث وإصلاح. فإذا كنا مخلصين لمبادئنا، أوفياء لأمتنا وشعبنا، لابد أن نعمل بهدي هذا النهج الذي حدد معالمه السيد الرئيس بشار الأسد منذ اليوم الأول لتسلمه قيادة الوطن قبل عامين، ووفر كل الأسباب العملية من مراسيم وقوانين لتحقيق هذه الانطلاقة التي تشكل حجر الأساس لمشروعنا القومي التحرري، وفاتحة نهوضنا الحضاري الشامل في جميع الميادين وعلى الصعد كافة.

# عامان على طريق التحديث والتطوير

16

# جوانب من التطوير والتحديث في المجال التربوي



د. محمود السيد (*)
وزير التربية

التربية ملاذ الأمم للتقدم والارتقاء، ذلك لأن النجاح في بناء الإنسان بناء سليماً متوازناً ومتكاملاً ومتطوراً من جميع الوجوه، إنما هو أساس كل نهضة ومنطلق كل تنمية.

ومن هنا كان محور استراتيجية العمل التربوي في سورية منذ انبلاج فجر الحركة التصحيحية المباركة بقيادة الرئيس الخالد حافظ الأسد، يتمركز حول بناء الإنسان غاية ومنطلقاً، انطلاقاً من أن بناء الإنسان كما يقول رحمه الله، هو أساس النجاح في مجابهة كل تحد يواجهه الوطن، وأن الأمة التي تبني الإنسان المتسلح بالعلم والمعرفة

والمتمتع بالوعي الاجتماعي، والمحَمل للمسؤولية، والمدرك لأهمية التواصل الحضاري والإنساني تمتلك السلاح الأمضى، تبني المستقبل الأفضل».

ولقد عزز هذا النهج رائد التطوير والتحديث السيد الرئيس بشار الأسد عندما أشار في خطاب القسم الدستوري إلى الحاجة إلى وضع استراتيجيات اقتصادية واجتماعية وعلمية تخدم التنمية والصمود في آن واحد، وعندما دعا سيادته إلى «الإصلاح والتطوير في مؤسساتنا التربوية والتعليمية والثقافية والإعلامية بما يخدم قضايانا الوطنية والقومية، ويعزز تراثنا الأصيل، ويؤدي إلى نبذ ذهنية الانفلات والسلبية ومعالجة الظواهر الاجتماعية التي تؤثر سلبًا على وحدة المجتمع وسلامته، بهدف تهيئة قوى اجتماعية ماهرة ومؤهلة وقادرة على التعامل والتفاعل مع تطورات العالم المختلفة».

وفي ضوء رؤية السيد الرئيس وتوجيهاته كان المشروع الوطني للتطوير التربوي الذي يرمي إلى إصلاح النظام التربوي والارتقاء بكيف التعليم ونوعيته، والحرص على جودته، وتهيئة الأطر التدريسية على المستوى الجامعي، بحيث يكون كل من يقوم بالعملية التعليمية ـ التعلمية متخرجًا في الجامعة، ومزودًا بالتأهيل التربوي الذي يساعده على أداء مهمته بكل نجاح.

ولئن كانت المنظومة التربوية إحدى منظومات المجتمع، تتبادل التأثير والتأثر بينها وبين بقية المنظومات فإن السيد الرئيس وانطلاقًا من مشروعه الحضاري في التطوير والتحديث وضع التربية في أولوية منظومات المجتمع بغية بناء دولة عصرية متقدمة.

وإذا كانت مسيرة التطوير والتحديث بقيادته الرائدة وعقليته العلمية المنظمة رؤيته الشمولية والمتكاملة، قد قطعت أشواطًا في جميع مجالات الحياة وميادين التنمية، فإن وزارة التربية وانطلاقًا من توجيهاته الكريمة قد أعادت النظر في منظومتها التربوية قوانين وتشريعات ومناهج وكتبًا وطرائق تدريس وامتحانات وإعدادًا وتأهيلاً للأطر التربوية، وتأمينًا للوسائل والتجهيزات، وذلك كله في ضوء نظرة اعتمدت المنهج الشمولي المتكامل لجميع أركان النظام التربوي.

وتجدر الإشارة إلى أن الرسالة المنوطة بوزارة التربية إنما هي رسالة سامية ومقدسة ونبيلة، وهل ثمة أسمى وأنبل من هندسة الإنسان وبنائه بناءً سليمًا ليغدو مواطنًا معتزًا بانتمائه إلى أمته ووطنه، متسلحًا بأساليب التفكير العلمي، وقادرًا على صنع الحياة بكل إيجابية وديناميكية وفعالية.

وسنحاول فيما يأتي تسليط الضوء على بعض الجوانب التربوية التي تناولها التطوير والتحديث، ولسنا هنا في مجال

الحصر. وإنما هي إشارات فقط إلى بعض النواحي.

**في مجال التشريعات والقوانين:**

صدرت عدة قوانين بخصوص تطوير العملية التربوية، إذ صدر منذ مدة قريبة قانون التعليم الأساسي الذي دمج المرحلتين الابتدائية والإعدادية في مرحلة واحدة هي مرحلة التعليم الأساسي، وهي مرحلة إلزامية ومجانية ومدتها تسع سنوات تنتهي بامتحان عام، وتعمل على تزويد المتعلمين بالمهارات والكفايات الأساسية التي تستلزمها طبيعة العصر، حتى إذا ما تخرجوا إلى الحياة كانوا مزودين بالأساسيات التي تحول دون ارتدادهم إلى الأمية من مهارات لغوية تواصلية، ومهارات المواطنة، واللغات الأجنبية، والعلوم والرياضيات والثقافة والحاسوب... الخ.

ومن التجديدات ما أقرته القيادة القطرية بخصوص تعليم اللغة الأجنبية على أن تكون هذه اللغة هي الانجليزية بدءًا من الصف الأول في مرحلة التعليم الأساسي، والفرنسية بدءًا من الصف السابع، على أن تكون هاتان اللغتان إجباريتين، ويقدم الطالب الامتحان في هاتين المادتين إضافة إلى المواد الأخرى في الشهادتين: نهاية التعليم الأساسي والثانوية.

وتناولت المراسيم والقوانين التي أصدرها السيد الرئيس في المجال التربوي بعض الجوانب، ومنها توسيع ملاك وزارة التربية بإضافة وظائف جديدة من مثل وظيفة المرشد النفسي التربوي والمرشد الاجتماعي والمساعد الصحي... الخ. كما تناول بعضها الآخر تفعيل دور التعليم المهني وجعل معاهده ومدارسه مراكز إنتاجية، يقوم طلابه بتصنيع بعض الأدوات والتجهيزات ويعملون على بيعها على أن يعود ريعها لصالح الطلاب المنتجين ومعاهدهم. كما أن قرار القيادة القطرية رقم /١٥/ لعام ٢٠٠٠ تضمن توزيع نسب الطلاب بحيث تكون مناصفة بين التعليم العام والمهني، وتوحيد تسمية التعليم المهني، وإحداث كليات تقانية تستقبل خريجي هذا النوع من التعليم، وإيجاد الحوافز المشجعة للإقبال عليه، وتدريس التربية المهنية بدءًا من مرحلة التعليم الأساسي، وثمة قانون يرمي إلى أن يضطلع القطاع الخاص بدوره إلى جانب التعليم الرسمي في افتتاح مراكز للتدريب والتأهيل المهني.

وشملت القوانين أيضًا الرعاية الطلابية، إذ زادت المكافآت المخصصة للطلبة المتفوقين في الشهادات العامة تعزيزًا للتفوق وحثًا على الابداع، كما تم السماح للطلاب الذين استنفدوا فرص الرسوب من داخل دور المعلمين ومعاهد إعداد المدرسين ومعاهد التربية الرياضية بالتقدم إلى الامتحانات، والسماح للمعلمين والمعلمات المعنيين بموجب القانون ٣٨ لعام ١٩٧٥ بالتقدم إلى امتحانات شهادة أهلية

التعليم الابتدائي بصفة أحرار، والسماح لأبناء الجولان السوري المحتل بالتقدم إلى امتحانات التعادل مثل إتمام دراستهم الجامعية، والعمل على انتقاء معلمي صف من طلاب كلية التربية لصالح وزارة التربية بالتزام، ومنحهم مكافأة شهرية خلال السنوات الأربع التي يدرسون فيها في الكليات لصالح وزارة التربية بعد التخرج تنفيذًا للمشروع الوطني للتطوير التربوي.

وتناولت بعض القوانين والتشريعات زيادة التعويضات المتعلقة بأعمال الامتحانات إشرافًا ومراقبة وتصحيحًا، والمتعلقة بأجور تدريس الساعات الإضافية حيث تضاعفت هذه الأجور.

وتوخت التجديدات في القوانين المرونة في إصدار المناهج التربوية والأنظمة الداخلية بقرار من وزير التربية مواكبة للتغيرات المستمرة في ميادين المعرفة والثقافة في عصر التفجر المعرفي والتقاني المتسارع.

**في مجال المناهج التربوية وطرائق التدريس والامتحانات:**

تنفيذًا لتوجيهات السيد الرئيس في الدعوة إلى فريق العمل الواحد في جميع مهامنا، عملت وزارة التربية على تشكيل فريق عمل في وضع المناهج التربوية يشمل أساتذة جامعيين ومن مركز البحوث إضافة إلى موجهين أوائل واختصاصيين ومدرسين عاملين في الميدان، وذلك في كل مادة من مواد المنهاج.

وباشر أعضاء الفريق عمله في التأليف في ضوء منهج الكفايات والمنحى الوظيفي الذي يركز على الموضوعات الأساسية في منأى عن كل حشو وتكرار، وذلك بعد وضع المفردات وتحديد الكفايات اللازمة.

ولقد أنجز كل من فريقي المعلوماتية والرياضيات بعض الكتب وتمت طباعتها بعد أن أزيل مايزيد على نسبة ٣٠٪ من كتب الرياضيات في الصف الثالث الثانوي للعام القادم، حيث غدا التركيز منصبًا على الأمور العلمية والتدريبات والتمرينات التي تزود المتعلم بمهارات التحليل والتركيب والتطبيق، وتبعده عن أساليب التلقين والحفظ النظري والمحاكاة العمياء.

ومن التجديدات في المناهج اعتماد أسلوب التجريب قبل التعميم وتلقي الملاحظات من الميدان وتعديل الكتب في ضوئها قبل تعميمها، ومواصلة التعديل المستمر في ضوء المستجدات والملاحظات الميدانية.

واعتماد أسلوب المسابقة في تأليف بعض الكتب، وهذا الأسلوب يساعد على اختيار الكتب التي تتوافر فيها الشروط التربوية المحققة للغرض منها بصورة أفضل من التكليف.

وفي ضوء المنحى الوظيفي لتطوير المناهج التربوية وتحديثها، تم حذف الكثير

من الحشو والتكرار من الكتب المؤلفة، والاقتصار في الكتب على الموضوعات الأساسية التي تساعد المتعلم على التفاعل مع الحياة ومعالجة مشكلات حياته الشخصية والمجتمعية.

ولقد تم تعزيز المفاهيم المعاصرة في الكتب المدرسية من تربية بيئية وصحية وسكانية وتربية مهنية والتربية على حقوق الإنسان وعلى الحفاظ على التراث العالمي، واحترام التعددية الثقافية والحوار بين الحضارات..الخ.

ولم يقتصر التجديد في المناهج على المحتوى والتركيز على الموضوعات الوظيفية في ضوء منحى الكفايات، وإنما امتد إلى أسلوب التأليف وإلى طرائق التدريس، حيث تم الانتقال من التعليم إلى التعلم، ومن التلقين إلى كيفية التفكير، والتركيز على كيفية التعلم وإكساب المتعلم مهارات التعلم الذاتي في دفعه إلى البحث والتفسير وممارسة الأنشطة اعتماداً على النفس وتحمل المسؤولية في المدرسة وخارجها ليغدو إيجابيًا نشطًا وفعالاً ومتفاعلاً في أجواء العملية التعليمية - العلمية لاسلبيًا متلقيًا للمعلومات، وقادرًا على استخدام الوسائل التعليمية والثقافية من حاسوب وغيرها، وعلى القيام بالنشاطات التربوية، وتنفيذ التجارب العملية واتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب.

ولئن كان التجديد في ميدان المناهج يعتمد على النشاط والخبرة والعمل وليس فقط الكتاب المدرسي المقرر الذي يعد نقطة انطلاق فقط، فإن هذا المنحى عززته التوجهات الحديثة الرامية إلى إغناء البيئة المدرسية بمصادر التعليم تعددًا وتنوعًا هادفة إلى تزويد المتعلمين بمهارات عملية وتقنية واجتماعية وخلقية ووجدانية، وفي الإكثار من النشاطات تلبية للحاجات وإشباع للميول، وكشف للمواهب، وتنمية لها . ومن هنا كان تزويد المدارس بالكتب التي تقدمها لجان متخصصة في الوزارة لتكون رافدًا للمعلمين والمتعلمين ومراجع تساعدهم في أداء أعمالهم، وليستعير الطلاب بعضًا من هذه الكتب التي تشبع ميولهم، وترضي اهتماماتهم.

وكان لوضع أدلة جديدة للمعلمين إسهام في تنفيذ المنهج بصورة تساعدهم على تعرف الأساليب والطرائق التي يحسن بهم اتباعها في عملية إكساب الدارسين الخبرات ، كما كان لوضع كتب الكترونية في مواد الشهادتين الاعدادية والثانوية دور كبير في تفعيل العملية التربوية.

وحرصت الوزارة على تفعيل الأنشطة في بعض المواد التي لم تكن تحظى بالاهتمام كالتربية الفنية والمسرح المدرسي والرياضة المدرسية، واستعانت بخبراء في مجال التربية الفنية والمسرح لوضع آلية لهذا التفعيل نظرًا لأهمية هذه الأنشطة في الكشف عن المواهب والعمل عن تنميتها

والارتقاء بها. وكان ثمة تنظيم للبطولات المدرسية بالتنسيق والتعاون مع منظمتي طلائع البعث واتحاد شبيبة الثورة.

ولكي نأخذ فكرة عما تضطلع به مديرية المناهج في مجال تأمين الكتب والأدلة للمعلمين يكفي أن نشير إلى أنه تم تأليف كراسات لرياض الأطفال ودليل للمربيات .وتم وضع كتب جديدة: لصفوف مرحلة التعليم الأساسي، وهناك ثمانية كتب جديدة في الصف التاسع وستة كتب جديدة في الصف الثالث الثانوي ثلاثة منها للرياضيات وواحد في التربية القومية الاشتراكية وآخر في الكيمياء وآخر في علم الأحياء.

وارتفعت وتيرة تأليف الكتب الجديدة: في التعليم المهني، إذا زاد عدد الكتب المؤلفة للعام القادم على ستة وستين كتابا جديدًا بعد أن كان في العام الماضي خمسة وأربعين كتابًا، وهناك ستة كتب جديدة في مهنة خياطة الملابس وثمانية كتب جديدة في مهنة النسيج، وثمانية كتب جديدة في تقنيات الحاسوب، وثمانية كتب جديدة أيضًا في مهنة التقنيات الكهربائية، وأربعة كتب في مهنة التدفئة والتمديدات، وثلاثة كتب في مهنة الموزاييك والصدف...الخ.

ولقد تم العدول عن نظام السنتين في التعليم المهني للحد من التسرب، وواكبت المناهج في التعليم المهني عملية التحديث في مهنة ميكانيك المركبات والكهرباء والألكترون والمهن الخشبية واللحام وتشكيل المعادن والتقنيات الكهربائية وتقنيات الحاسوب والتقنيات الألكترونية.

وتم إدخال مادة التربية المهنية في مرحلة التعليم الأساسي تنفيذًا لقرار القيادة القطرية رقم /١٥/ لعام ٢٠٠٠، وتم إعداد التمرينات التجريبية في مجال الأعمال اليدوية والعلوم التطبيقية والطبيعية والاقتصاد المنزلي.

ومن التجديدات في مجال التعليم المهني تجربة التعليم المزدوج بالتنسيق مع غرفة صناعة دمشق ومؤسسة التدريب الأوروبية بغية ربط هذا التعليم بحاجات سوق العمل ومتطلبات خطط التنمية.

ويرمي مشروع التعليم المزدوج أو التلمذة الصناعية إلى تزويد الدارسين في المعاهد المتوسطة الصناعية والمدارس الثانوية المهنية بالمهارات العملية من خلال تدريبهم في المصانع والمعامل بإشراف أرباب العمل، وثم البدء بمهنتي التصنيع الميكانيكي وصناعة الألبسة.

وعن المهن التي تم تطويرها «التقنيات الكهربائية، التقنيات الألكترونية، ميكانيك المركبات، لحام وتشكيل المعادن، الآليات والمعدات الزراعية، التبريد والتكييف، نجارة الأثاث ، الصدف والموزاييك، الخط العربي، حفر وخراطة الخشب ، نجارة العمارة» وهناك لا مهن جديدة تم احداثها وهي: تقنيات الحاسوب، التحكم الآلي، صيانة التجهيزات الطبية، المصاعد.

ومما تجدر الإشارة إليه في مجال الكتب المدرسية أن مؤسسة المطبوعات والكتب المدرسية تعمل على طباعة ما يزيد على أربعين مليون نسخة من الكتب المدرسية للعام ٢٠٠٢/٢٠٠٣، وهو عمل كبير يستلزم جهوداً كبيرة ومتابعة حثيثة وإمكانات ضخمة بغية تأمين الكتب في موعدها المحدد وقبل افتتاح العام الدراسي.

أما في مجال التقنيات التربوية فلقد واكبت المناهج، إذ أمنت مديرية التقنيات الأدوات والوسائل المصاحبة للمناهج وذلك بالتنسيق والتعاون مع مديرية المناهج، وعملت على بث البرامج التلفزيونية التعليمية من فقرات الموسوعة العلمية والكتب المقررة، وقامت مراكز تصنيع الوسائل التعليمية بإنتاج عدد كبير من هذه الوسائل، ومن هذه المراكز:

❖ مركز دمشق لصنع الوسائل التعليمية لمادة العلوم والتربية الصحية المرافقة للمناهج الجديدة.

❖ مركز حمص لتصنيع الوسائل التعليمية للرياضيات.

❖ مركز حلب لتصنيع الوسائل التعليمية للفيزياء.

❖ مركز اللاذقية لتصنيع الوسائل لمرحلة التعليم الأساسي وصناعة الأجهزة للمواد العلمية.

ولقد أنشئ مركز لتطوير الوسائل التعليمية للحد من استيرادها، وتصميم الوسائل التعليمية وإنتاجها بما يتناسب والمناهج والبيئة المحلية، إضافة إلى القيام ببحوث ودراسات في مجال تقنيات التعليم، وإعداد البرامج التعليمية وتقديمها لرفد المناهج التربوية المقررة والموجهة إلى الطلاب والمعلمين.

ومن التجديدات التي تمت في نظام الامتحانات زيادة نسبة الأسئلة الموضوعية، إذ كانت هذه النسبة تتراوح بين ٥ و ٨٪ عام ٢٠٠٠/٢٠٠١ لترتفع إلى ٢٠٪ في هذا العام، وتزداد النسبة في الأعوام القادمة.

وكان الهدف هو التركيز على المهارات العقلية من فهم وتحليل وتركيب وتطبيق ونقد وتقويم، والتخفيف من أسئلة الحفظ والبصم والمحاكاة العمياء حفاظاً على التكوين الذهني الشخصيات الناشئة والتمييز بين الدارسين من حيث مستوياتهم، والارتقاء بعقولهم إلى مدارج التفوق، إضافة إلى توظيف المعلومات في حياتهم على قاعدة من التمثل والفهم الدقيق.

ولقد لقيت التجديدات في مجال الامتحانات قبولاً واستحساناً مريحاً من الطلبة بعد أن تعرضت إلى الهجوم في العام الماضي بسبب سوء الفهم، شأن كل تجديد في المجال التربوي، ذلك لأن الإنسان يألف ما نشأ عليه.

ومن التجديدات التي ترمي إليها الوزارة

في صدد الإمتحانات أن يكون هناك تقويم لمناشط الطلبة من مذاكرات كتابية وشفاهية خلال العام الدراسي في كل صف من صفوف المرحلة التربوية الثلاثة بحيث يكون لهذه المناشط ثلاثون بالمائة على أن يبقى للامتحان الأخير نسبة ٧٠٪، بحيث لا يكون هناك امتحان واحد يقرر مصير الطالب، وإنما تؤخذ جميع فعالياته ومناشطه بالحسبان في عملية التقويم.

**❖ في مجال المعلوماتية:**

إضافة إلى التطوير الذي حدث في مجال تأليف كتب المعلوماتية وإنتاج الكتب الألكترونية وتدريس المعلوماتية في المرحلة الثانوية وفي التعليم المهني والانتقال إلى تدريسها في الصفوف العليا من مرحلة التعليم الأساسي، فقد كانت هناك عناية بتطوير شبكة الحواسيب في الإدارة المركزية وتحديث نظام الشبكة في مديرية المعلوماتية وتحديث معظم الحواسيب الرئيسة المستخدمة في مركز الحاسوب لإعداد نتائج الامتحانات العامة واستخراج نتائج الامتحانات العامة حاسوبياً.

وتم تنفيذ دورات تدريبية على استثمار الحاسوب واستخدامه في الإدارة التربوية وتنفيذ عمليات الصيانة ورفع كفاءة العناصر العاملة في هذا المجال، إضافة إلى الدورات التدريبية المتعددة في المراكز التدريبية، والتأهيلية للأطر العاملة في مجال المعلوماتية.

وتم تصميم الدروس التعليمية بواسطة الحاسوب على اتجاهين أولهما للعرض على الشاشة الصغيرة وثانيهما لاستخدام الحاسوب بوصفه مادة للتعليم.

وأسهمت وزارة التربية بالتنسيق مع الجمعية السورية للمعلوماتية بتعميم البرنامج الوطني لنشر المعلوماتية وتنفيذ دورات تدريبية مجانية على تقانة الحاسوب، والتوسع بفعاليات البرنامج وإحداث مراكز للتدريب الذاتي وافتتاح دورات للمستوى المتقدم، وتزويد المراكز بالموسوعات الالكترونية وإدخال خدمة البريد الالكتروني ضمن دورات المستوى المتقدم، وتزويد عدد من القاعات في مراكز الشهيد باسل الأسد للتدريب التربوي على الحاسوب بنظام متطور للتعليم الجماعي بمعونة الحاسوب Hiclass.

**❖ في مجال تأهيل الأطر وتدريبها:**

في ضوء توجيهات السيد الرئيس لإيلاء عملية تأهيل الأطر البشرية وتدريبها الأهمية، قامت وزارة التربية باتخاذ الاجراءات الآتية:

❖ إيفاد عدد من المتفوقين في الشهادة الثانوية إلى كليات التربية للدراسة على حساب وزارة التربية بغية الحصول على الإجازة الجامعية والعمل بعد تخرجهم لصالح وزارة التربية في مرحلة التعليم الأساسي تنفيذاً للمشروع الوطني للتطوير التربوي.

❖ إيفاد عدد كبير من حملة الإجازات الجامعية إلى كليات التربية للحصول على دبلوم التأهيل التربوي بطريق الإجازات الدراسية براتب، تحسينًا لأدائهم وإغناء لخبراتهم، مما ينعكس إيجابيًا على مستويات طلابهم.

❖ إقامة دورات تدريبية نوعية للعاملين في المجال التربوي من الموجهين الأوائل وأعضاء المناهج والبحوث والموجهين الاختصاصيين بإشراف خبراء عرب وأجانب وبالتنسيق مع المنظمات العربية والدولية «الألكسو، الاسيسكو، اليونسيف، اليونسكو».

ومن الدورات النوعية على سبيل المثال لا الحصر:

- دورة الأسلوب التواصلي في تعليم اللغة الأجنبية بإشراف «خبراء أمريكان، انجليز، فرنسيين».

- دورات للتعامل مع ذوي الحاجات الخاصة.

- دورات في مجال التربية على التراث العالمي مع اليونسكو.

- دورات في مجال المعلوماتية مع خبراء أمريكان.

- دورات في مجال التربية البيئية وإحداث نوادي بيئية مدرسية مع خبراء من لبنان.

- دورات في صعوبات التعليم مع الخبراء الأوروبيين.

- دورات في التعليم المهني والتقني مع خبراء ألمان وإيطاليين.

- دورات إقامة مشاغل في المنهج الصحي والتربية الشمولية والسكانية مع اليونسيف.

- دورات في التقويم والقياس وإقامة مشاغل تربوية.

- دورات للأطر العاملة في مدارس المتفوقين.

- دورات للأطر العاملة في الطفولة المبكرة «رياض الأطفال».

- دورات للأطر العاملة في الإرشاد الفني والتربوي.

- دورات للأطر العاملة في البحث التربوي.

❖ اختيار بطريق المسابقة لحملة الإجازة في التخصصات المختلفة وحملة دبلوم التأهيل التربوي ليكونوا معلمين في مرحلة التعليم الأساسي.

❖ إحداث وظيفة المدرس الأول، يتم اختياره في ضوء شروط معينة وبطريق الانتخاب من زملائه في المادة التخصصية نفسها، ومهمته مساعدة زملائه من المدرسين الجدد وإرشادهم إلى الأساليب الصحيحة، واغناء البيئة التعليمية - التعلمية.

❖ إحداث وظيفة المرشد النفسي التربوي ووظيفة المرشد الاجتماعي، ولقد تم وضع دليل للعاملين في هذا المجال، وتم إقامة دورات تدريبية تأهيلية بالتنسيق مع الجمعية السورية للعلوم النفسية وبالتنسيق أيضًا مع مكتب اليونسيف، وينحصر دور المرشد النفسي التربوي في المرحلة الثانوية والصفوف العليا من مرحلة التعليم الأساسي، بينما ينحصر دور المرشد الاجتماعي في الصفوف الدنيا من مرحلة التعليم الأساسي، بحيث يقوم المرشد النفسي التربوي بمعالجة مشكلات سوء التكيف لدى الطلاب في مرحلة المراهقة، ويقوم المرشد الاجتماعي بتعزيز العلاقة بين الأسرة والمدرسة والمجتمع ومعالجة المشكلات الاجتماعية..

❖ إحداث المجمعات التربوية في المحافظات، بحيث يكون في كل ناحية مجمع تربوي يسهل عملية الاتصال بين العاملين في الميدان من إداريين ومعلمين ومديرية التربية، ويكون مرجعًا لهم لمعالجة مشكلاتهم وحل قضاياهم.

❖ اعتماد الموضوعية في انتقاء طلبة دور المعلمين ومعاهد إعداد المدرسين والمتقدمين إلى المسابقات التي تجريها وزارة التربية، إذ إن المعيار هو الدرجات والتعيين للمتسابقين في ضوء الدرجات وتسلسلها أيضًا.

واعتمدت النواظم أيضًا في مجال التنقلات بين المحافظات وداخل المحافظة نفسها.

تلك هي إشارات خاطفة إلى بعض الجوانب التي تناولها التطوير والتحديث في المجال التربوي، وهي لا تشكل إلا خطوة، ولكن ما تزال أمامنا خطوات عديدة. وما تم إنجازه لا يلبي طموحاتنا في عملية التطوير والتحديث، ذلك لأنها عملية مستمرة وديناميه ولا تقف عند حد مادامت الحياة في تجدد مستمر والمعارف في تفجر مستمر.

وإذا كنا قد نجحنا في إزالة كثير من الحشو والتكرار في مناهجنا التربوية فما يزال هنالك حشو لا بد من الخلاص منه نهائيًا لجعل المناهج وظيفية مرتبطة بالحياة والمدارس عاكسة ما يدور من حولها في مختلف ميادين الحياة، ومرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالبيئة بمفهومها المنظومي الشمولي المتكامل طبيعة ومصادر طبيعية ومجتمعاً بفعالياته ومناشطه وثقافته المادية والمعنوية، وعصرًا باتجاهاته وتياراته وتحدياته.

وإذا كنا قد نجحنا في تفعيل طرائق التدريب من حيث الانتقال من التلقين إلى مشاركة المتعلمين في الحوار والمناشط والفعاليات فإن هذا النجاح لم يكن على المستوى المطلوب، إذ لا بد من التركيز على تعميم الاهتمام بالتعلم الذاتي والتعلم

التعاوني والتعلم الابتكاري والتعلم العملي المرتبط بمواقف الحياة والاعتماد على الذات والمبادرة والحوار واتخاذ القرار.

وإذا كنا قد خطونا خطوة في مجال تطوير الامتحانات من حيث التخفيف من أسئلة الحفظ والبصم واعتماد الأسئلة الموضوعية التي تخاطب المهارات العقلية العليا فإن الطريق أمامنا مازال طويلاً.

ولئن كنا قد نجحنا في تأليف كتب جديدة وبخاصة في مجال التعليم المهني فإن كتبًا كثيرة ما تزال بحاجة إلى إعادة نظر وتعديل وتأليف جديد.

بيد أن العمل الدؤوب والمتابعة المستمرة والتطلع إلى التجارب على مختلف الصعد وتقبل الآراء والحوار الديمقراطي مع المعنيين جميعًا، ذلك كله يساعد على تذليل الصعاب، على أن نتحلى جميعًا بالإحساس العالي بمسؤولية ما نحن بصدده في بناء أجيالنا البناء المتوازن والسليم، وعلى أن نخلص في أداء أعمالنا بكل نزاهة وتجرد وشفافية، واضعين نصب أعيننا أن العمل في المجال التربوي يفوق العمل في أي مجال آخر، ذلك لأننا نتعامل مع البشر، ونعمل على هندسة الإنسان فكرًا وعقلاً ونزوعًا وممارسة وأداءً، ورحم الله شاعرنا شوقي إذ يقول:

**أرأيت أشرف أو أجل من الذي**

**يبني وينشئ أنفسًا وعقولا ؟**

وستبقى للتربية مكانتها، وسيبقى لها ألقها في نظر المبدعين، وها هو ذا رئيسنا المبدع يحوطها بكل رعايته وعنايته واهتمامه، ويوفر لها مستلزماتها، لأنها الأولوية الأولى في استراتيجيته للتطوير والتحديث.

❖ ❖ ❖

عامان على طريق التحديث والتطوير

27

## في رحاب النهج المتجدد



د. اسكندر لوقا (*)

رحيل الكبار من رجالات العصور كافة، لايعني بحال من الأحوال اندثار حضورهم في الذاكرة البشرية. فثمة الآلاف من هؤلاء الذين رحلوا ولم يرحلوا. رحلوا بالجسد ولكنهم لم يفقدوا أبداً حضورهم بيننا، فهم بيننا فيما تركوه لنا من تراث علمي أو ثقافي أوفني، وكثيراً ما يخيل إلينا، أحياناً، أننا نحاورهم ونناقش معهم فيما تركوه لنا عبر قراءاتنا لنتاجهم، وذلك لمتطلبات الدراسة الأكاديمية أو التاريخية أو لاعتبارات أخرى قد تكون مماثلة لتلك الأغراض أو لاتكون.

---

(*) د. اسكندر لوقا: باحث من سورية، عضو اتحاد الكتاب العرب.

في ضوء هذه المعادلة، ينظر أحدنا لرحيل إنسان كان بيننا فغادرنا مبكرًا ولكن نبقى نعايش أصداء الرحيل، وذلك على نحو معايشتنا هذه الأيام ودائمًا، أصداء رحيل قائدنا الخالد الرئيس حافظ الأسد في العاشر من شهر حزيران من العام ٢٠٠٠، بين مصدّق وغير مصدّق بإن هذا الرحيل هو رحيل أبدي حقًا.

وأيضًا في ضوء هذا التأرجح بين الممكن وغير الممكن، لابدّ من الاعتراف بأن ماحدث في العاشر من حزيران من العام ٢٠٠٠، وكان وقعه مثل صدمة مباغتة، أستطاع شعبنا أن يستوعبه كحدث مقدّر، في بلد أرسى القائد الخالد فوق كلّ شبر من ترابه قاعدة نهوضه خلال العقود الثلاثة الماضية، وكان، بالتالي، كواحد من حاملي شعلة الأولمبياد يتناقلونها من يد إلى يد وصولاً إلى قمّة الجبل إيذانًا ببدء الاحتفال.

كذلك كان القائد الخالد قبل رحيله المبكّر عنّا حامل شعلة السباق مع الزمن. لم يكن يؤمن بمقولة حرق المراحل، ولكن كان هاجسه استدراك مافاتنا نتيجة المخاض الذي كنّا نعانيه أيام الاحتلالات المختلفة ابتداء من العام ١٥١٦ حتى العام ١٩٤٦ بما في ذلك سنوات الولاءات المعروفة تارة لبريطانيا وتارة لفرنسا وتارة للولايات المتحدة الأمريكية، الأمر الذي كاد يمحو هويتنا، حتى انبثقت حركة التصحيح في العام ١٩٧٠، وبدأ شعبنا يترصّد الفرص للتوازن مع الذات يومًا بعد آخر، وكلّما تسنّى له ذلك في سياق ترسيخ قيم الحركة التصحيحية لصالح الأزمنة الآتية.

ولا أعتقد أن أحدًا بيننا، هنا كما في خارج هذا المكان، لم ينل نصيبه من عطاء عهد التصحيح، الذي دام ثلاثة عقود من الزمن، ويستمر إلى يومنا هذا مظللاً برايات التجديد، في كلّ مفصل من مفاصل الحياة في بلادنا، يحمل عبئه رئيسنا الشاب الدكتور بشار الأسد، باقتدار.

وإذا كان لابد لنا من استذكار ما تمحورت حوله مسيرة التصحيح في عهد قائدنا الراحل عنّا مبكّرًا الرئيس حافظ الأسد، فمن الطبيعي أن تتوقف الذاكرة، بدايةً، عند ذلك المنعطف السياسي الهام الذي تجسّد جبهة وطنيّة تقدّمية، وما استتبع هذه الخطوة من إنجازات لاحقة أعادت إلى المواطن العربي في سورية وفي أرجاء الوطن الممتّد من المحيط إلى الخليج كرامته، وأخرجته من عنق زجاجة اليأس والخوف والتردّد إلى فضاء الأمل، عندما غدت نتائج حرب تشرين التحريرية عنوان إمكانية الأمة العربية على أن تكون، جوابًا على تساؤل الحكيم الذي كتب يقول: أن نكون أو لانكون. لقد سيّج عهد التصحيح المواطن العربي بمستلزمات الصمود

لمواجهة عصيّ الإعاقة، فخطّ بذلك عهداً جديداً، إلتزامًا منه بأن يعيدَ التوازنَ إلى الواقع العربي المتردّي، منذ سنوات ما بعد الأستقلال حتى السبعينات من القرن الماضي، مروراً بالنكسات التي ألمت بالبلاد نتيجة المماحكات على المكانة بين رجالات الحُكم، خصوصًا حتى عام الثورة في الثامن من شهر آذار من العام ١٩٦٣.

وفي سياق هذا الالتزام، لم يتخلَّ قائد التصحيح القائد الخالد حافظ الأسد، عن استجابته لنداء أشقائنا في لبنان في العام ١٩٧٦، رسميّين وغير رسميين وصولاً إلى وضع نهاية للحرب الأهليّة المدمّرة التي كادت تضع الجغرافية العربيّة في المنطقة العربيّة على حافة واقع يبرّر قيام دولة الكيان الصهيوني، هو واقع الكانتونات.

وأيضًا في سياق هذا الإلتزام، لم يتوانَ القائد الخالد حافظ الأسد، عن الوفاء بواجب الدفاع عن لبنانَ الشقيق سنةَ غزوِ إسرائيل لأراضيه، في العام ١٩٨٢، وكانت رسالته الشهيرة إلى جنودنا الصامدين أمام الآلية العسكريّة الضخمة في حزيران من العام المذكور، ردًا على نداءات قادة العدو وإغراءاتهم «لنوائد الأستسلام» على حد تعبيرهم، كانت كما الشحنة الكهربائية حين تفعل فعلها في مساعدة الأجسام على الانطلاق.

ولاننسى، في هذا السياق أيضًا، وقفةَ جبهتنا الوطنيّة أمام سقوط السادات في خندق إسرائيل وما أفرزته هذه السقطة على الساحة العربيّة السياسيّة، وكانت دافعًا لخطى أُخرى مشابهة جرت على الساحة ذاتها، وهي وإن لم تكن على مثلها من حيث الشدة أو الحجم، بيد أنها لا تختلف عنها من حيث جوهرها وآثارها العميقة.

كذلك كانت وقفة التصدي لكل إغراءات أعداء أمتنا، يوم أُبرمت إتفاقية الإذعان بين لبنان أمين الجميّل وإسرائيل، وعلى غرار هذا الوفاء لمستقبل الأمة، كانت دعوة القائد الخالد، تعقيبًا على حرب الخليج الأولى بالقول إن هذه الحرب تجعلنا نخسر بلدًا عربيًا هو العراق وبلدًا إسلاميًا هو إيران وكلاهما من مقوّمات دعم خندقنا المواجه لخندق الأعداء. وحول حرب الخليج الثانية جاء قوله المشهود: إن الخلافات بين الإخوة العرب، في حال نشوبها، يجب أن تُحل بالحوار لا بالنار.

وكما أن عهد التصحيح لم يشهد تنازلاً عن الحق المستلب بقوة السلاح، أو تفريطًا بذرة تراب واحدة من أرض الوطن، كذلك تبقى معادلة الأرض مقابل السلام، مطروحة أمام الرأي العام المحلّي والعربي والعالمي، منذ مؤتمر مدريد في العام ١٩٩١ حتى اللحظة ووطننا يمضي على درب التصحيح، ضمن هذه المحاور الرئيسية

لمرحلة من مراحل تاريخ سورية الحديث، طوت ثلاثين عامًا من صفحاته، تندرج عناوين الفعل على درب التصحيح في وقتنا الراهن، بفاعلية القيادة السياسية الراهنة، وبهدي من شجاعة الشباب وحكمة الشيوخ.

لقد شقّ عهد التصحيح لأبناءالأجيال الآتية دربًا خاليةً من المنعطفات الخطرة وإن كان الخطر كثيرًا ماكان يداهمها. ومن هنا وضوحُ مسيرة التجدّد كما نتلمّسه اليوم، حيث الثوابتُ باقيةٌ على حالها، وحيث إرادةُ تحديث وتطوير المجتمع، بكافة مرافقه، يتبيّنها الداني والقاصي البعيد عن أرض الوطن.

وكما كان وعد التصحيح التزامًا أمام الله والشعب، كذلك هو إلتزام الشاب الدكتور بشار الأسد الذي أعلن منذ تسلّمه سُدّة إدارة شؤون البلاد تمسّكه بالثوابت الوطنية والقومية، وأنه قبل أن يكون الرئيس، بحكم المنصب، يبقى واحدًا من أبناء شعبه إنسانًا على غرار ما جاء في خطاب القسم حيث قال: **إن الرجلَ الذي عرفتموه وأحببتم بعضًا من صفاته، وبادلتموه الثقةَ والمحبّة، لن يغيّر فيه المنصب شيئًا. وهو الذي أنطلق من بين الناس وعاش معهم سيبقى بينهم وواحدًا منهم. وتوقّعوا أن تَرَوه في كل مكان معكم، سواءً في موقع العمل أو في الشارع أو في أماكن نزهتكم، فالإنسان الذي أصبح رئيسًا سيبقى هو نفسه الطبيب والضابط وقبل كلّ شيء المواطن.**

وبإشارتي إلى الثوابت وبقائها على حالها، لا أعتقد بإننا بحاجة إلى القول بإن السيد الرئيس الدكتور بشار الأسد، أكّد عليها المرّة تلو المرّة، في كلّ لقاء أجراه مع ضيوفه أو مع مضيفيه، موضّحًا ما معناه أن المتغيرات الدولية وتبعاتها على الساحة العالمية، لايمكن أن تزحزحنا عن قناعاتنا **وهي أن جوهر سياستنا الوطنية لاتقبل** التقسيمَ على أيٍّ **من أرقام المناورات**، حفاظًا على هويّة **الإنســـان والأرض والتاريخ**، وصونًا **لمستقبل الأمة.**

**ويلاحظُ المتتبع لمسار هذا النهج الوطني** من جهة، ولثباته من **جهة أخرى، كم هو** عميقُ أثر النشأة في بيئة **لم تساوم على** المبادئ، كذلك لم تساوم على القيم، وفي المقدّمة من تلك القيم وجوب التمسّك بالحقوق الوطنية واحترام حقوق الغير في الوقت ذاته، وأن التاريخ لم يحدّثنا عن قوّة سادت بمفردها العالم كلَّ الوقت وإلى أمد غير محدود، ولهذا يتنامى اليقين فينا جميعًا أن لابدّ أن ينتصر شعبنا على مغتصبي أرض الوطن، عاجلاً أم آجلاً. ومن هنا يقرأ المرء وضوحَ الرؤية في أحاديث السيد الرئيس وخطاباته، تلك التي تحصّن مسيرة التجديد على درب

التصحيح، كما هو جار الآن على قدم وساق.

فماذا عن هذه الرؤية؟ وماذا عن منعكساتها على أرض الواقع؟

لقد كان لي شرف العمل مع قائدنا الخالد الرئيس حافظ الأسد على مدى ثلاثين عامًا، استمدُّ دروسًا في إلتزام متطلّبات المواطنة، من شخصيّته الآسرة وعلى مدار الساعة تقريبًا في كلّ يوم عمل. كذلك لي شرف العمل الآن مع قائدنا الشاب الرئيس بشّار الأسد أستزيد الكثير من ثقافته الواسعة وبراعته في قراءته وتحليله للأحداث الإقليمية والدوليّة الدائرة في وقتنا الراهن، أيضًا على مدار الساعة تقريبًا في كلّ يوم عمل. ولهذا الاعتبار أجدني قادرًا على القول بأنّ رئيسنا الآن مَثَلُه مَثَلُ أبناء شعبنا العظيم، ولا أقول إنه الأكثر منهم إلتزامًا بالوفاء لعهد التصحيح الذي أعطانا الأمل بالمستقبل على أرضيّة الأمن والأمان.

وحتى تتجلّى معاني هذه الإشارة إلى التزامه بالوفاء لعهد التصحيح، أرى أنه من المفيد أن نستعيدَ معا بعضا من أقواله حول محاور النهج الذي يسير عليه، مجدّدًا حيث يجب أن يكون التجديد، مضيفا ومبدعًا حيث يجب أن تكون الإضافة وأن يكون الإبداع. وهو في كلّ ما يرمي إليه من قول أو من فعل، قصده أن يُدَعِّمَ الوطنَ بثوابته المستمدّة من عهد التصحيح، وفي المقدّمة من ذلك أن لا عودة إلى الوراء بل السير على الدرب وصولاً إلى هدف تحرير الأرض المستلبة واستعادة الحقوق الشرعية للعرب.

في مجال التجديد أعتقد أن هذا الكمَّ من التشريعات التي صدرت خلال العامين الماضيين وتناقلت أصداءها وسائل إعلامنا، يكفي للدلالة على إرادة الفعل من أجل دفع عجلة التقدّم نحو الأمام. كذلك هو شأن الإضافة والإبداع يتضح بعودتنا إلى خطاباته في مؤتمرات القمّة التي شارك فيها، والمناسبات التي خاطب فيها أبناءَ شعبنا، ومن ذلك، على سبيل المثال، كما نذكر جميعًا صياغته لمفاهيم «الآخر»، و «شبابيك المستقبل»، و «الشفافية» و «الديمقراطية»، وما يندرج تحت عنوان الإبداع عمومًا، حيث تبدّت مواهبه في استخلاص المعاني الجديدة من أقوال سبقت زمانه على ألسنة بعضٍ من مفكري الأزمنة الماضية.

ومن هنا كان قربه من أبناء شعبه، ومن هنا أيضًا جاءت ترجمته للوعد بأن يكونَ بين أبناء شعبه، في أيّ وقت تتيح له فرصة التواجد بينهم، وما كان أكثرها كما لا حظنا خلال السنتين الماضيتين، أمام المحلات التجارية وفي قاعات المسارح وفي المطاعم، كما شاهدنا صور وقائع مشاركته ما أصاب

أهلنا في المنطقة التي شهدت كارثة انهيار سدّ زيزون في حزيران الماضي نتيجة أضرار لحقت بهم في الأرواح أو في الممتلكات.

لقد اختصرت هذه المشاركة كلَّ مسافة يمكن أن تُرى بين القائد وأبناء شعبه. كما أن المشاركةَ التي تُرجمت مؤخرًا إلى واقع بين قيادات أحزاب الجبهة الوطنية التقدمية وقواعدها في المحافظات عملا بتوجيهات السيدّ الرئيس، جاءت بالتأكيد، امتدادًا لما اختزنه في ذاكرته عن ذلك اليوم الذي ردّد فيه قائدنا الخالد الرئيس حافظ الأسد مخاطبًا أبناءه: أنا منكم وإليكم، وإن نهاري نهار وليلي نهار.

بمثل هذه الفاعلية ينهض السيد الرئيس الدكتور بشار الأسد بمرافق الوطن مجدّدًا مستلزماتها، ماديّةً كانت أم معنوية، وحيث يستدعي الأمر زيادةَ إنتاجها، وعلى مختلف مستويات تلك المرافق، سياسيةً كانت أم اقتصادية أم اجتماعية أم ثقافية.

ففي المجال السياسي نستذكر قولَ سيادته: إننا نؤكّد على أننا مستعجلون لتحقيق السلام، ولكننا غير مستعدين للتفريط بالأرض، ولا نقبل لسيادتنا أن تُمس. إننا نستعجل السلام لأنه خيارنا، ولكننا لن نكون مستعدين لدفع ضريبة عجزِ الحكومات الإسرائيلية وعدمِ قدرتها على اتخاذ القرارات التي تدفع عملية السلام للأمام من حساب سيادتنا وكرامتنا.

وحين يضع النقاط على الحروف محدّدًا المسؤولية المعنوية على عاتق من تقع عمليا، لا يتوانى عن القول: إن سيادةَ الالتزام بمبادىء الشرعية الدولية تتطلب من منظمة الأمم المتحدة أن تقوم بمهامها التي نصّ عليها ميثاقها بصورة موضوعية، وبعيدًا عن التأثيرات المختلفة، بحيث نصل إلى عالمٍ خالٍ من الصراعات وبؤر التوتّر، يسوده السلام والعدل والديمقراطية في العلاقات بين الدول، ويتعمّقُ فيه الحوار بين الحضارات المختلفة في عالم اليوم.

وفي المجال الاقتصادي يقول: لقد كان الأداء في المجال الاقتصادي يتموّج ويتبدّل بحدّة نتيجةً لتبدّل الظروف التي كانت هي الأخرى شديدةَ التغيّر، وخاصة عندما انتقل اقتصادنا من اقتصاد له أسواقه المفتوحة أمامَه إلى اقتصادٍ مطلوبٌ منه المنافسة. وكانت المعالجة تتمّ من خلال إصدار قوانين ومراسيم وقرارات تتّسم أحيانًا بالتجريبية. وقد تكونت الاستراتيجية الاقتصادية كمحصلة لمجمل هذه التشريعات الصادرة. ونحن الآن بحاجة إلى استراتيجيات اقتصادية، اجتماعية، علمية تخدم التنميةَ والصمودَ في آن واحد، وهي ليست موجودةً كوصفات جاهزة، بل إنها بحاجة إلى دراسات معمّقة

نستخلص منها النتائج التي على أساسها نحدّد إلى اين يجب أن نتجه، وهذا بحاجة إلى وقت وجهد وتعاون وحوارات مستمرة ومـوسّعـة. ومن الضـروري السـير بخطى ثابتة وإن كانت متدرجةً نحو إجراء تغييرات اقتصادية من خلال تحديث القوانين وإزالة العقبات البيروقراطية أمام الاستثمارات الداخلية والخارجية وتعبئة رأس المال العام والخاص معًا وتنشيط القطاع الخاص.

**ومن أقواله في المجال الاجتماعي: على كلّ مـواطن شـريف أن يحـمِّل نفسـه المسؤوليّة، وأن يؤمن** بالشرعية حتى لو لم **يكن في وضعٍ** يسمح له بتطبيق **أفكاره،** فالمنصب لا يعطي المسؤولية بل العكس هو الصحيح، هو يأخذها من الإنسان الذي يمتلكها ويسمح له فقط أن يمارسَها من خلال الصلاحيات التي يمنحها له. والحالة المثلى تفترض أن يكون الكلّ مسؤولاً وبالتالي لا يُبنى المجتمع ولا يتطوّر ولا يزدهر بالاعتماد على شريحة أو جهة أو مجموعة، بل يعتمد على تكاملِ عملِ الكلّ في المجتمع الواحد.

**وتستمع إلى سيادته متحدثًا في المجال الثقـافي إذ يقـول:** إن منطقَ التعاون والانفتاح على الآخرين لا ينفصل عن الفكر الديموقراطي، بل يتقاطع معه في مواقعَ عـديدة. وهذا يعني أن امتلاكَ الفكر الديموقراطي يعـزّز الفكر والعمـلَ المؤسساتي. وهذا الفكر يستند على أساسِ قبول الرأي الآخر. وإن الديموقراطيات الغربيّة على سبيل المثال هي محصّلة تاريخ طويل، نتج عنه عاداتٌ وتقاليد وصلت معها مجتمعاتهم إلى ثقافتها الراهنة. ولكي نطبّق ما لديهم، علينا أن نعيشَ تاريخَهم وإسقاطاتِه الاجتماعية، وعندها يكون هذا الاحتمال ممكنًا، ولكن بما أن هذا مستحيل، فعلينا أن تكون لنا تجربتنا الديموقراطية بنا المنبثقة عن تاريخنا وثقافتنا وشخصيتنا الحضارية.

على هذا النحو يتم **رسم خارطة الفعل للحاضر** والمستقبل مما **لدى السيد الرئيس** من وضوح الرؤية لمايحيط بعالم اليوم من متاعب تقتضي أخذ الحيطة الكافية، تجنبًا للوقوع في شراك راسمي الخرائط على طراز خريطة سايكس - بيكو في أوائل القرن الماضي، وخريطة اقتسام مناطق النفوذ في عالم ما بعد مؤتمر هلسنكي في العام ١٩٧٥ وما بينهما من خرائط أُعدّت قبل وبعد الحربين العالميتين الأولى والثانية كما هو معروف.

ولأن الهَوَس الاستعماري لم ولا يتوقّف عند حدٍّ بذاته، فمن المتوقّع أن يستمر هذا النهج القديم قدم البشريّة في هذا السياق، وبالتالي من الطبيعي أيضًا في هذه الحالة، أن تتخذ شعوب العالم ما تراه مناسبًا للحيلولة دون تعرّضها لمخالب الطغاة من

دعاة الحرب ضدّ الغير طمَعًا بثرواتهم، أو إشباعًا لهواية التوسّع لديهم على نحو ما نراه في أيامنا هذه، أمريكيًّا وإسرائيليًّا على حد سواء.

ولأن هوسًا كهذا يماثل تدفق التيارات الجارفة في الطبيعة، تتنبّه شعوبُ العالم اليوم، مع دخول الإنسانيّة بألفيتها الثالثة، زمن ما سُمّي في أكثر من مكان بزمن ما بعد الحادي عشر من أيلول من العام ٢٠٠١، وتعيد دولٌ كثيرة في أرجاء العالم حساباتها من جديد، وبما يتناسب مع توقّعات السنوات القليلة القادمة، في ظلّ تهديد الأقوياء وتداعياته، على نحو مقولات: العولمة، نهاية التاريخ، صراع الحضارات وما إلى ذلك وفي مواجهة أحداث ساخنة كهذه، بقي نهج سورية الأسد كما عهده أبناؤها، نهجًا يضع النقط على الحروف من دون مواربة. وفي هذا المناخ الإقليمي والدولي، لا يتردّد السيد الرئيس عند مخاطبة سائليه في إلقاء اللوم على غياب الوعي لدى الدول البعيدة عن جغرافية المنطقة وبالتالي عن ثقافة سكانها، الأمر الذي جعله يكرّر نصح ضيوفه، وخاصة من غير الاوروبيّين، بالمجيء إلى المنطقة للتعرّف على ثقافتها وحضارتها بديلاً عن قراءة الكتب الصادرة عنها، لما في ذلك من أسباب تجنّب الوقوع في تقدير المواقف، إذا ما اقتضت ظروف التعامل معها وكانت مصادر معارفهم محصورةً بين دفّتي كتاب تحتمل صفحاته الخطأ كما تحتمل الصواب ولكن دائمًا بمقدار أقلّ.

وحين يفصّل السيد الرئيس في الأسباب التي تقف عائقًا في وجه التطوّر في مجال التأهيل الإداري أو في المجال المصرفي أو في مجال التعليم العالي أو في مجال الإعلام المقروء، يستذكر التاريخَ الذي شكّل الحاضن لتلك الأسباب، وفي المقدّمة منها عدم الاستقرار في المنطقة وغيابُ الرعاية الجادة لعمليّة السلام لسنوات طويلة، وعدمُ توافر الآليّة المناسبة لدفع هذه العملية إلى الأمام وفي الاتجاه الصحيح. عند هذا المفصل، وبالتالي عند هذا الإرث الذي عايشه ولا أقول ورثه السيد الرئيس الدكتور بشار الأسد، قبل العاشر من شهر تموز من العام ٢٠٠٠ في رحاب القائد الخالد. كثيرًا ما يتوقّف في أثناء أحاديثه، مؤكّدًا أن لا تراجع عن خيار السلام بوصفه خيارًا استراتيجيًّا، وأن سورية ستبقى متمسكةً بشروط السلام وهي الشروط التي أقرّها المجتمع الدولي في جلسات الأمم المتحدة ومجلس الأمن وفي مؤتمر مدريد، وأن لا شروط لسورية سوى تطبيق قرارات تلك الجهات، وهي قرارات شرعيةٌ باعتراف الجميع.

ومع أن هذا الوضع يرتب على كاهل البلاد عبئًا ماديًّا بشكل أو بآخر، إلا أن

عجلة التقدم لم تتوقّف، وإن كان دورانها يجري ببطء نسبي، إلا أنها تدور، متخطية بذلك ما أمكنها أسبابًا قد يكون بعضٌ منها ذاتيًا وبعضٌ منها موضوعيًا. وفي إجراءات تحديث مرافق العمل المختلفة في ربوع البلاد، والقضاء على مظاهر الخلل في مواقعها، يتنامى الأمل بالوصول إلى زمن الاكتفاء في يوم قريب.

وفي سعي السيد الرئيس بشار الأسد لجعل الأمل واقعًا ملموسًا على الأرض في أفعاله وفي أقواله، كثيرًا ما يتراءى لنا وجه القائد الخالد يطلّ علينا من عليائه بيسمته المعهودة مباركًا تجديد النهج على درب التصحيح الذي بدأه في سبعينات القرن الماضي، وبقي مستمرًا إلى يوم الرحيل، وتتردّد أصداؤه، إلى يومنا هذا، في بيوتنا ومكاتبنا وحقولنا، كلما أشرقت شمسٌ وألقت بدفئها فوق بقعة من أرض الوطن.

إن وقفة كهذه لا يمكن أن تفي القائد الخالد حقّه علينا، كما لا تفيه حقّه من حيث تحديدُ مكانته بين أبناء جيلنا والأجيال الآتية. كذلك الوقفة هذه لا يمكن أن تحيط بخصال السيد الرئيس بشار الأسد ربّان سفينة الوطن في هذا الزمن الصعب، بيد أن هذا من الطبيعي أن يُبرر بشهادة كوكبة من مواطني ومثقفي بلدنا الحبيب الذين عاشوا عصر الرئيس حافظ الأسد، ويواكبون الآن مسيرة الرئيس الدكتور بشار الأسد النهضويّة داعيًا وساعيًا لتحديث البلاد وتطويرها. وفي يقيني أنهم أكثر معرفةً ممن تقتضي طبيعة عمله أن يكون ملاصقًا لطاولة العمل معظم ساعات اليوم، وإن يكن موقعه هذا يدعوه لاعتزاز ما بعده اعتزاز، كما هو حالنا، نحن العاملين في رحاب قائد مميّز بسعة الاطلاع والثقافة وعمق الرؤية، نراه سائرًا على درب التصحيح مجدّدًا النهج، وفي ذاكرته قول قائدنا الراحل العظيم حافظ الأسد: **إن كلّ عمل، أثناء التحرّك، لا بدّ أن توجد فيه ثغره أو أكثر، لكن المهمّ أن يحاول المرء سدّ الثغرات التي تحدث.** وحين تتخذ القرارات لتحقيق هذا الغرض، يجب أن تتابع حتى لاتشكل البيروقراطية عائقًا أمام إرادة **تطوير البلاد وتقدّمها.**

هنا، ومع اقترابنا من نهاية هذه الوقفة، في وسعنا القول إن من نما وترعرع في بيت القائد الخالد حافظ الأسد ومدرسته الفكريّة، بيت الحكمة والمعرفة والوفاء لتاريخ الوطن والمواطن، من البديهي أن تتجسّد في شخصه مواقف جذورها قيمٌ تغذّى عليها طفلاً، ثم شابًا، ثم مواطنًا اختارته جماهير شعبنا في العاشر من تموز من العام ٢٠٠٠ ليكون قائدًا لمسيرته كما هو اليوم بيننا السيد الرئيس الدكتور بشار الأسد.

36

# في آفاق نهج التطوير والتحديث



د. فايز عز الدين (*)

### ❖ الخيارات:

في إستهلاله لكلمته التاريخية أثناء القسم الدستوري في مجلس الشعب تحدث الرفيق الدكتور بشار الأسد رئيس الجمهورية الأمين القطري لحزب البعث العربي الاشتراكي حول المهام التي حمّلته إياها إرادة الشعب ليشير إلى أن هذه المهام صعبة بمقدار ما هي سهلة... سهولتها تأتي من كون القائد الخالد قد هيّأ لنا أرضية صلبة، وأساساً متيناً، وتراثاً عظيماً من القيم، والمبادئ التي دافع عنها الخالد، وبقي متمسكاً بها حتى انتقل إلى جوار ربّه. وصعوبتها تأتي من حقيقة أن نهج القائد الأسد كان نهجاً متميزاً،

(*) د. فايز عز الدين: باحث من سورية، عضو اتحاد الكتّاب العرب، عضو اتحاد الصحفيين.

والحفاظ عليه ليس بالأمر السهل، وخاصة أننا مطالبون - فيه - بالسعي لتطويره، وهذا يحتاج إلى الكثير من العمل، والجهد على المستويات كافة.

وفي الدلالات الاستراتيجية التي ميّزت كلمة القسم توجّه إستقبالي منظومته: إعلاء البناء، ومضاعفة الإنجازات، ومواكبة العصر، والتمسك بالثوابت الوطنية، والقومية، والتفكير من موقع الشعب، والكفاح الدائم من أجل نصرة الوطن، وتحقيق آمال الأمة في الغد المنشود.

وفي تأكيده على هذه المنظومة قدّم القائد لمسيرة الحزب، والشعب قاعدة بناء الدولة، والمجتمع بأنها تعتمد على تكامل عمل الكل في المجتمع الواحد. وفي سياق هذه القاعدة دعا المواطنين أن يشاركوا في مسيرة التطوير والتحديث وصولاً إلى النتائج المرجوّة في أقرب زمن ممكن.

والرؤية العلمية التي اعتمدها القائد تستلزم الضبط المعرفي للإتجاه المطلوب السير فيه، ثم للطرق الفضلى، ثم للنتائج الواجب تحقيقها.. وعبر هذه الأسلوبية الموضوعية نتمسك بالبوصلة المحدِّدة للموقع الذي نحن فيه، ونتعرف على الخط المستقبلي المنوي الإلتزامُ به.

وحين يحتمل العقل العلمي، الموضوعي بخطوط التوجه الصحيحة تصبح الحركة السياسية، والاجتماعية معنية باستخدام معادلات التوازي، والتواكب، والجهد المتضايف عبر محاور ثلاثة:

الأول: طرح أفكار جديدة حلاً لمشاكلنا، أو تطويرًا لواقعنا...

الثاني: تجديد أفكار قديمة. وفرز ما لا يمكن تجديده لفقدان الإفادة منه.

الثالث: إعادة إنتاج ما تجدد من أفكار تناسبًا لها مع الأهداف الحاضرة، والمستقبلية.

❖ معايير مؤطّرة:

في إنجازية حكيمة موصلة إلى التحقيق الأمثل، بالزمن الأقل. أي بما يكسب رهان السرعة، والتسارع اللذين يسمان العصر، ويحددان طبيعة حراكه، وإستهدافه تحتل العملية المعيارية أهميتها فيما نحن فيه، وصولاً إلى ما نبتغيه... أي إن كل عمل نتوجه إليه، ثم فيه يحتاج - بآلية متجددة - إلى قياسات تحديد الإنجاز، والتراكم تطمينًا لجماهير الشعب على سلامة السير نحو الأمام، والتقدم.

فالمعيار الأول يستقبلنا فيه عامل الزمن المستغَل بحدّه الأقصى...والمعيار الثاني تحديدنا لطبيعة الواقع الذي نعيش فيه، وظروفنا المحيطة بنا داخليًا، وخارجيًا...والمعيار الثالث تعرّفنا الموجب على الإمكانات المتوافرة باعتبارها ليست معطيات ثابتة، بمقدار ما هي متحركة،

وقابلة للتعديل بالجهد، والفاعلية... والمعيار الرابع إنطلاقًا من المصلحة العامة إذ ما قيمة أي عمل، أو هدف لا يكون رائده المصلحة العامة؟.

في ظل هذه المعايير نمتلك مجموعة من الأدوات السنديّة في نهج التطوير والتحديث في طليعتها الفكر المتجدد، أي الفكر الذي لا يتوقف عن حد معين، ولا يحصر نفسه في قالب واحد جامد، فالحياة سفر مفتوح، والعصور محمولة برؤى الإنسان الأقوى، والخيال الأكثر إنتاجًا، وإنتشارًا، لا سيما أن أكبر سمات العصر العولمي الذي يواجهنا تتحدد بأنه عصر إنتاج المعرفة، واحتكارها، وتحويل العقل الأممي، والروح العالمية إلى سلع، وإستهلاك، وقيم آنيّة، وإختراقيّة، لا تشجع على الثوابت.

ولذا فليس أمام المشاريع القومية للأمم الحاضرة إلاّ أن تتمسك بناصية الفكر المتجدد، القادر على إنتاج ما يحمي العلم، والنشيد، والسيادة من عوامل الوجود البشري التي نقلوها من الأرض، إلى الفضاء الكوني - عبر القرية الكونية المزعمة - حتى تتحقق لقوى العولمة برامجها التفكيكية للأمم المختلفة، ثم برامجها التركيبية وفق هيكلية منسجمة مع إدامة السيطرة العولمية على مدى الألفية الثالثة.

ولكي يتجدد الفكر، ويُثرى، ويثّري لا بد من إتقان العملية النقدية، فالنقد يمثل لغة الوعي، وخطاب التجاوز، وحين يستهدف إعلاء البناء الوطني، والقومي يتسم بالبنائية، والموضوعية، والوعي الكامل أما حين يخرج النقد الاجتماعي، والسياسي عن مداراته البناءة يتحول إلى علاقة معرقلة في نهج العمل والتقدم. والنقد الصحيح يلازم العلمية البحثية باعتباره يعتمد على المقاربة التحليلية، والإحتمالية التي تستبدل اليقينيّة غير المالكة لعناصرها الكافية من الحقيقة، بالحوار المفتوح من أجل إمتلاك النسبة الأكبر من الحقيقة. على درب المساءلة المنطقية، والمنهجية من الوحدة الصغرى في المجتمع (المواطن) إلى المؤسسات العليا وهذه حالة تتزاوج فيها القضية بمعنى أن أي عملية، مساءلة نقدية أخلاقية تنطلق من الذات بإتجاه الموضوع.. ثم تعود من الموضوع بأطره المختلفة إلى الذات، والرائد الأساس في هذا المساق هو الوجدان الحي، والضمير المتفاعل.

وعليه فمن غير الجائز في الحلم الاجتماعي العام أن نذهب إلى مواطن لايخطئ، أو إلى وطن فيه صفر من الأخطاء لكون ذلك لا يعكس ماهيّة الوجود البشري.. فالبشر عقولٌ تدرك، أو لا تدرك الكلية اللازمة، والمعرفة الأكثر شمولاً فيكون الخطأ، ويقع التقصير، هذه قضية

واردة في كل وقت، ومع كل وطن، ومواطن، والحاكمية في ذلك تعتمد على إرادة التصويب، والترشيد، والمحاسبة التربوية.

**❖ الإستراتيجيّة التطويريّة والتحديثيّة:**

من إستلهام قيم التاريخ، وأشكال حيوات الخليقة فيه تبرز أمام ناظرينا العوامل المهمة في تحديد حال الناس، وبناء المجتمع: سلطة، واقتصاداً، وثقافة، وعلى الأعم النموذج الحضاري المصنوع، والموروث. والمتعيّن في هذا الصدد هو صورة العيش، والفكرة الجامعة، ومقادير الخلق، والإستحداث إذ ذلكم ما يبدّل حال الزمان المجتمعي المحدد، ويموج بالأمم ما بين التقدم، والوقوف، والتراجع.

وفي كل أمر لا بد من تحديد الأهداف، وتوفير الوسائل، والأدوات، وإستحضار الاستراتيجيات العلمية، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية، السياسية تحقيقًا للتنمية المستهدفة بشريًا، واقتصاديًا وعلى التوازي المفترض بين العمل، وتحضير الاستراتيجية المناسبة يكون النهج، والمنهج.

بعضهم يدعو إلى إنتظار الوضع الكامل للإستراتيجية المحركة، وبعضهم يتحرك على العاملين معًا إعداد التصورات. مع إتخاذ الإجراءات المناسبة، وتوفير التناسق بين الإجراء الآني في آفاق ما هو قادم، وبين المعتمد المتحدد في الاستراتيجية التي تُبنى... فالمعركة بالتالي هي على كسب الوقت بالسلوك المنتج.

وعلى أرضية المواكبة التوازنية بين العمل، ونتائجه، وبالتعبير التربوي بين المدخلات، والمخرجات تظهر نفسها مجموعة من المحرضات البنائية السليمة، ولعله في طليعتها تكون الشفافية.

فالشفافية حالة ثقافية، وقيميّة، وتقاليديّة (إجتماعيًا، سياسيًا، اقتصاديًا) وهي - كما النقد - تجمع الخاص في إطار العام، والفردي في إطار الإجتماعي، والذات في إطار الموضوع... فالمصطلح لا يأتي مسبارًا لتقرّي النسب القائمة في الآخر، قبل أن يكون وسيلة التعامل مع النفس أولاً.

والمصداقية - في كل ممارسة للشفافيّة - مرتبطة بميراث الفرد، والفئة من الناس، وكذلك بتوافر الشعور العالي بالمسؤولية، بالمنهجية التفكيرية، والتطبيقية المعمول فيها. والمنهجية هذه على وجه الخصوص تستند إلى السبب، والنتيجة... كما تستند إلى البداية، ومن ثم النهايات الحاصلة، كما تستند له المواجهة الجريئة للذات، والموضوع، ولو اعتمدت الأفضل - مما يعتمد عليه - ستكون المواجهة الحوارية.

وذروة تطلّع الشفافية هو طريق

المجتمع، أو الطريق نحوه، من مؤشر يقول: إن المجتمع بالأساس هو الطريق التي يسير عليها التطوير، والتحديث في حقوله العديدة، وأطيافه الشاملة.

وبالمحصلة فالشفافية بمقدار ما تستوجب من المجتمع، والدولة المشاركة الكاملة في نقد الحياة، ومن ثم صناعتها من جديد تستدعي دومًا التفكير الاستشفافي السليم الذي لا يعتمد على الإشارة للمشكلة بلغة الرصد، أو المتابعة بل يقتضي الحال أن يُستكشف الحل من قبل المعني بطرح المشكلة تحقيقًا للنسب الأكبر من المشاركة الفاعلة، الإيجابية، البنائيه.

❖ الفكر التحديثي المؤسسي:

عالم اليوم يعطينا الدور الكبير الذي إضطلعت به المؤسسات العلمية البحثية، وغير العلمية البحثية في إعادة إنتاج الحياة المادية للمجتمع البشري المعاصر... والإنتقال إلى الصورة المعاشة على كوكبنا الأرضي بما فيها من تغاير الخارطة السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية وسيادة عقيدة السوق الحرة، وفتح الأبواب على مصراعيها للعولمة المزمعة، والنظام الكوني المستهدف.

والمؤسسة بعناصرها: البناء، والنظام، والإنسان كيان قائم. وموجود ولكن الذي يفعّل ذلك كله هو فكرها المأمول... فالفكر المؤسساتي الذي يجعل المؤسسة تمثل الوطن بنسبة حجمها المكونة، واختصاصها، كما تمثل توجهه الحضاري، والمستقبلي، وتمثل عقلية الدولة المنتجة لوسائل نمو الحياة وتطورها على كافة الصعد هو العامل الحاسم في قيام المؤسسة، ووصولها للأهداف المرسومة لها.

وفي جدلية العمل، والنظر نجد أن الفكر المؤسساتي يلتقي بالفكر الديمقراطي يُعزّزه، ويتعزز به، وهما معًا يقومان بالحمل اللازم في الإدارة الحكومية الفاعلة على أرضية أن الإدارة القومية، والفاعلة تمثل العامل الهام في التنمية والبناء... فالأنظمة الإدارية، وهيكلياتها، وكفاءة كوادرها، والوجدان المسلكي فيها هو المحصن الأكيد من أية ظاهرة من ظواهر البيروقراطية، أو التسيّب، واللامبالاة، والتهرب من أداء الواجب بوصفه الأرضية الخصبة لبروز روح الفساد، ومظاهره.

ووفق الشأن المنظور تبقى دولة القانون هي الضمانة الوحيدة للفكر المؤسساتي، والديمقراطية، والشفافية كما هي الضامن الهام لتقاليد العمل الملتزم، المخلص، المتفاني.

وهنا تصبح عملية التحديث، والتطوير منهجًا موضوعيًا يتعامل مع الحاضر على أساس واقعه، والوقائع المعاشة فيه، وهذا لا يعني نسفه برمته كما يخيل لبعض

المفكرين بمقدار ما يعني السعي الحثيث لتطويره، وتحسين آلياته المنتجة، والمبدعة فالحياة الإنسانية لا ينضّدها المطلق الميتافيزيقي، بل تحكمها النسبية، والموضوعية العلمية، فحلقات التاريخ تشهد تلاحق المنجزات، وكل مجموعة تبنى على ما سبقها، ويتأتى التطوير بالإفادة من القائم الإيجابي، والتأسيس عليه. وليس جائزًا الإلغاء ليصبح الإستناد على الفراغ، أو على العودة إلى نقطة الصفر.

وفي ظلال الديمقراطية، والفكر المؤسسي تنمو معجميّةٌ إصطلاحية جديدة، وتخرج للحياة مفاهيم ممارسة فيها كافة إرهاصات التقدم المطموح إليه. وتتنامى كذلك الرغبة في الاحتكاك الحضاري المؤدي إلى تحسين الصورة الاقتباسية العلمية على أساس من الشخصية العلمية المتوافرة لدينا، ومخبرها الوطني الغني.

بهذا نتمكن من نشر الثقافة، والمعرفة، والتقنية المعلوماتية، وتجارة العقل، وتصدير الأفكار، وتطوير البحث العلمي... أي تصبح حاجة منهج التحديث، والتطوير محققة بحضور العقل المنظّم، والمؤسسة البحثية، والتقنيات الضرورية، وربط ذلك كله بالمجتمع، وحاجاته التنموية.

ونهج التطوير، والتحديث يتعاظم في حياتنا ليشمل المؤسسات: التربوية، والتعليمية، والثقافية، والإعلامية بهدفيّة نبذ ذهنية الإنغلاق، والسلبية حفاظًا على التنوّر، والتنوير، وحماية سلامة المجتمع، ووحدته الوطنية، فالقرن الواحد والعشرون قرن المؤسسات، والتقنيات.

* نتائج هامة عبر السنتين:

وضعت منظورات التحديث والتطوير في كافة مجالات الحياة الوطنية: اقتصاديًا، وإداريًا، ومصرفيًا، ونقدًا، وفي مجال التجارة الخارجية، وقطاع الاستثمار، والمناطق الحرة، والقطاع العام الصناعي، والزراعي، وقطاع التربية والتعليم، والري، والبناء والتشييد، والنقل والمواصلات، والتخزين، والسياحة، والخدمات الاجتماعية، والقوى العاملة، والصحة، والثقافة، والإعلام، والبيئة.

ففي المجال الاقتصادي وُضع النظر على أن تكون المرحلة الزمنية حتى /٢٠٠٦/ مخصصة لعملية التشريع اللازم، وإصلاح الهياكل، وإختيار السياسات الأكثر تفعيلاً في المجال الاقتصادي، مع التأكيد على دور الدولة المحوري. كذلك تفعيل القطاع العام، وتمكينه من القرار اللازم لنموه، مع دعم القطاع الخاص لمضاعفة دوره، واستثماراته، والقطاعين: المشترك، والتعاوني.

وفي المجال الإداري يتضح أن نسبة ٧٥٪ من وقت المديرين يخصص لإنجاز الأعمال الروتينية، والاجرائية، و /٢٥٪/

من الوقت تخصص لأنشطة التخطيط والتطوير في المؤسسة، وسوف تعكس هذه النسبة بأقصر الزمن. ويجري النظر لإحداث هيئة عامة للتنمية الإدارية حتى تلعب الدور الاستراتيجي في التنمية الإدارية المنشودة، ووضع الأرصدة اللازمة للتحول نحو الحكومة الإليكترونيّة.

وفي المجال النقدي، والمصرفي صدرت عدة تشريعات تتناول إحداث مصرف الاستثمار (القانون ٥٠٨ لسنة ٢٠٠٠). جواز تشكيل مصارف على شكل شركات مساهمة مغفلة سورية مشتركة، أو خاصة (القانون ٢٨ لسنة ٢٠٠١). سرية العمل المصرفي (القانون ٢٩ لسنة ٢٠٠١). قانون النقد، والتسليف، والمصرف المركزي (القانون ٢٣ لسنة ٢٠٠٢). وهنالك جهود باتجاه تطوير أنظمة العمليات المصرفية، وإحداث سوق لتداول الأسهم والأوراق المالية وفق قواعد وضوابط تلبي متطلبات التنمية، وبالتكامل مع السياستين: النقدية، والمالية. والتطوير في المجال المالي يستهدف النظر في النظام الضريبي النافذ، وبصورة الموازنة العامة للدولة.

وفي مجال التجارة الخارجية يستهدف البرنامج التطويري الجمع بين توسيع الإنفتاح، مع الإبقاء على الحماية المرشدة في قطاعات معينة، وتفعيل الشؤون الجمركية، والتجارية على ضوء منطقة التجارة الحرة العربية الكبرى، ثم في إطار مشروع الشراكة السورية - الأوروبية.

في مجال الاستثمار، والمناطق الحرة تنتهج سورية الآن سياسة واضحة لتشجيع الإستثمار المحلي، والعربي والأجنبي من خلال تعديل قانون الاستثمار رقم /١٠/ لعام ١٩٩١. وإحداث هيئة عليا للإستثمار، وإقامة المدن والمناطق الصناعية، وتشجيع الإستثمارات في الريف لتوطين المشاريع الاقتصادية في مناطق الكثافات العمالية، وخلق التوازن في إقامة المشروعات. ووضع خارطة إستثمارية شاملة لكافة المشروعات القائمة: العامة، والخاصة، والمشتركة، وتحديث أنظمة المناطق الحرة، مع تحسين المناخ الاستثماري فيها.



وفي مجال القطاع العام الصناعي يجري العمل على تخفيف المركزية، وتطبيق الشفافية فيه، واعتماد الإستقلال المالي والإداري للشركات العامة الصناعية لتطوير الإدارة الاقتصادية فيها، كل ذلك سعيًا لرفع قدرة هذا القطاع على المنافسة في السوق المحلية، والعربية، والدولية، ولاسيما بعد رفع القدرة التكنولوجية لديه.

وترسم السياسة الاقتصادية باتجاه الحفاظ على الوظيفة الاجتماعية للدولة، وعدم اللجوء إلى أية خصخصة تكون على حساب العمل، والعمال بمقدار ما يكون

اللجوء إلى التوسع في القطاع نفسه وترشيد استخدام قوة العمل فيه. كذلك الوصول إلى الربط المبرمج استراتيجيًا بين التوسع المتزايد في تحرير التجارة الخارجية، وتطوير سياسات دعم القطاع العام الصناعي، والصناعة الوطنية، الخاصة والمشتركة، وتحقيق مبدأ الإدارة الاقتصادية الرشيدة.

وفي قطاع الزراعة، والري تحقق سورية الكفاية من الأمن الغذائي، وتتحول إلى دولة مصدرة للحبوب والخضار، والفواكه. ومايتم البحث فيه هو سياسة ضبط تكاليف الإنتاج، والإقتراب بها إلى المعايير الاقتصادية الصرفة. ويتواصل السعي بخصوص تحديد نوع، وكم الإنتاج المرغوب فيه إقتصاديًا واجتماعيًا والإستثمار الأمثل للموارد المائية، ثم ترشيد استخدام الأراضي الزراعية، وتطوير البحث العلمي، والتركيز على الهندسة الوراثية لتسريع معدلات التنمية الرأسيّة.

والمؤشرات التطويرية في هذا القطاع تستهدف الزيادة السنوية لإجمالي المنتجات الزراعية التي توفر الدخول المناسبة للمنتجين، والفوائض اللازمة لتوسيع قاعدة الاستثمار بمراعاة أن تكون هذه الزيادة من المحاصيل حتى عام ٢٠٠٥/ من ٤-٧٪ سنويًا حسب نوع المحاصيل. ومن المساحة المروية، والمشجرة، والحراجية من ٢-٥٪ سنويًا.

وفي قطاع التربية والتعليم يتواصل الحال في تطوير الموارد البشرية، وبناء القاعدة الوطنية من الكوادر الفنية الإختصاصية وضبط مدخلات التعليم. ومخرجاته بما يطور البحث العلمي، ويوطن التكنولوجية، ويربط ذلك كله بالمجتمع. وفي هذا السبيل يجري تطوير التعليم على قاعدة الإنتقال إلى التعلّم الذاتي من خلال تحديث البرامج، والوسائل التعليمية واللغات والمعلوماتية. ودعم التربية المهنية، والتقنية، ونظام الإمتحانات والعناية دومًا بمدارس المتفوقين، وإنجاز الكتاب الإليكتروني. وإستثمار الإنترنت بما يخدم العملية التربوية، والتعليمية، وإعداد خريطة جديدة لمنظومة التعليم، وتعميق إستخدام الوسائط المتعددة، والحواسب الآلية في العملية التعليمية، والربط بين العملية التعليمية ومواقع الإنتاج الموجودة. وتحسين نسبة توزع الخريجين في هرم القوى العاملة.

وفي مجال البناء والتشييد يعاد النظر في هيكلة الشركات الانشائية العامة باتجاه التخصص النوعي، والتوزيع الجغرافي، وتطبيق مبدأ الإدارة الاقتصادية على القطاع العام الإنشائي. كذلك يعاد النظر بهيكلية قطاع السكن، وبتنظيمه لمواجهة النمو السكاني. والعمل على تحقيق أوسع

للسكن الشعبي الاقتصادي. وأخيراً التوجه نحو تلبية ذوي الدخل المحدود عبر زيادة نسبة مشاركة القطاع العام، ودعم القطاع التعاوني، وتحسين دور القطاع الخاص وصولاً إلى السكن الاقتصادي، والملائم.

وفي مجال النقل والمواصلات، والتخزين يتم العمل على رفع مساهمة قطاع النقل، والترانزيت في الناتج المحلي الإجمالي، ويحتل هذا الجانب المرتبة الثانية في البرامج الاستثمارية للخطة الخمسية التاسعة من (٢٠٠١-٢٠٠٥). حيث ستتم الزيادة في الأسطول البحري، وفي أسطول النقل الجوي، والخطوط الحديدية، وتوسيع المطارات، وإعادة تأهيل شبكة الطرق المركزية، والدولية، وتطوير النقل الداخلي، وزيادة الطاقة التخزينية للحبوب.

وفي قطاع السياحة يستهدف نهج التطوير والتحديث جعل السياحة صناعة استراتيجية تقودها الدولة بعقل متفتح، وأساليب متطورة، وتستفيد فيها من كامل قدرات القطاع الخاص. والمؤشرات تفيد أنه حتى عام /٢٠٠٥/ ستتحقق زيادة بمقدار ١٢٪ سنوياً في هذا القطاع تؤمن معها بحدود /٣٠/ ألف فرصة عمل.

وفي مجال الخدمات الاجتماعية يستهدف نهج التطوير الربط المتواصل بين عملية التطور الاقتصادي، وانعكاساتها الاجتماعية على تحسين حياة الناس، ومستوى معيشة المجتمع. وعليه فالعمل جارٍ في إصلاح المداخيل بالنسب المئوية من الزيادة السنوية حيث زيدت في السنتين الماضيتين بحدود ٥٠٪ رواتب العاملين في الدولة والمتقاعدين وتبقى عملية ربط الدخول بالسياسات السعرية ماثلة أمام العين تخفيفًا عن كاهل المواطن. إضافة إلى تحسين منظومة الخدمات، والرعاية الاجتماعية، وحزم الضمان الاجتماعي.

كذلك تبقى في دائرة الاهتمام موضوعة الملاءمة بين النمو الاقتصادي، والاجتماعي، والنمو السكاني ويُنظر في استراتيجية وطنية للسكان حتى عام /٢٠٢٠/ تتضمن أهدافًا كمية، ونوعية تتعلق بالنمو السكاني تركيبه، وتوزيعه.

وبخصوص القوى العاملة يتم العمل على تحسين البنية التعليمية، والتدريبية لها بشكل يتوافق مع متطلبات التنمية، وسوق العمل بما في ذلك محو الأمية التعليمية، والمهنية، والحاسوبية بما يساهم في رفع معدل النشاط الاقتصادي لقوة العمل إلى ١٣٪ عام /٢٠٠٥/. وتخفيض نسبة البطالة إلى أقل من ٦٪ في العام المذكور.

وفي مجال الصحة حدث، ويحدث التطوير المطلوب لدور المؤسسات الصحية الحكومية، ورفع كفاءتها، ويُبحث في كيفية جعل المشافي وحدات إدارية، ومالية

مستقلة، وتعزيز مقومات الطب الوقائي، ثم بتطوير الصناعة الوطنية للدواء...وتضع الدولة نصب العين عملية تحقيق العدالة في توزيع الخدمات الصحية بين مختلف المحافظات ورفع عدد المشافي من /٣٩٣/ مشفى إلى /٤٧٤/ مشفى عام /٢٠٠٥/. كذلك رفع عدد المراكز الصحية من /١١٧٧/ إلى /١٣٢٠/ مركزًا في العام نفسه. ورفع عدد العيادات الشاملة من/١١/ عيادة إلى /١٤/ في العام المحدد. إضافة إلى تحسين منظومة الإسعاف، وخطة الطوارئ، وإعادة النظر المتواصلة بالتشريعات، والقوانين، والأنظمة الصحية ولاسيما المرسوم رقم /١٢/ لعام ١٩٧٠ الخاص بمزاولة المهن الطبية، والقانون رقم /١١١/ لعام ١٩٦٦ الناظم لمهام وزارة الصحة، وملاكها.

وفي المجال الثقافي تعتبر الثقافة، والتنمية الثقافية في نهج التطوير والتحديث العمود الفقري لكل تنمية إقتصادية أو نهوض حضاري، وعليه تتواصل الانجازات التطويرية في مهام عمل وزارة الثقافة، والمنظمات الشعبية المعنية لتعزيز الدور الثقافي لها، وخاصة التوسع في مشاريع قصور الثقافة، والمراكز الثقافية. وإنشاء المسارح، والمعاهد الخاصة بها، ودعم النشاطات المتعلقة بالفنون التشكيلية، والتطبيقية، وإنجاز خطة محو الأمية الوظيفية، والحضارية، وتنشيط المديرية العامة للآثار، وإقامة صناعة سينمائية وتلفزيونية متطورة ومتكاملة لدى القطاعين: العام، والخاص.

وفي مجال الإعلام استكملت العديد من الإجراءات الخاصة بتعميق دور الإعلام في تأكيد الهوية القومية، والحضارية للأمة العربية خاصة في مواجهة الدعايات الصهيونية، والعدوانات الإسرائيلية المتواصلة على الأرض، والحقوق العربية. وتبحث خطط التطوير الدائم للإعلام المسموع، والمقروء، والمرئي عبر توفير المستلزمات المادية والتقنية الحديثة، ومواصلة تأهيل العاملين في القطاع الإعلامي، وتطوير دور الوكالة السورية للأنباء، والمؤسسة العامة لتوزيع المطبوعات.

وفي مجال البيئة يستمر تفعيل دور الإرشاد البيئي، وسوف يصدر قانون البيئة، وغيره من التشريعات التي تنظم وسائل استخدام الموارد المحلية، وإيجاد نوع من التوازن بين عناصر البيئة، وبين الزيادة السكانية. كما ستُحدث دوائر البيئة على مستوى المحافظات، وعلى مستوى الأحواض المائية..ويتم توفير المخابر، وأجهزة القياس للملوثات البيئية بما في ذلك الكوادر الإختصاصية في هذا المجال،

ويتحقق التعاون مع الجهات العربية، والدولية المعنية بالبحوث العلمية والبيئية حماية للبيئة، وضمانة لها في خدمة أجيالنا القادمة.

وتبقى السياسة في ذروة الموقف القومي الصامد، والمؤيد بالإرادة العربية المناضلة، المتمسكة بالحقوق، والثوابت.

وفي الخاتمة أصبح القول مياسرًا إن حصاد السنتين في ظل قيادة الدكتور بشار الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية، الأمين القطري لحزب البعث العربي الاشتراكي الحزب ـ القائد للدولة والمجتمع - يعطينا مداليله العملية على أن نهج التطوير، والتحديث يشهد تواصله، وتسارعه الموضوعي، وتتوسع رؤاه، وأطيافه لتعم كافة جوانب العمل: الوطني، والعربي، والدولي.

وعبر شعار سورية الأسد، سورية الحديثة المتطورة، القوية التي تمثل حصن الأمة المنيع يعلو البنيان، وتتعمق الإنجازات، وتقصر الطرق نحو المستقبل المنشود وعلى الرغم أن العامين فترة بسيطة في عمر المجتمع، والدولة، والوطن، لكنهما يتوافران على ماهو مديد في آفاقه، ومطمئن في توجهاته، ومفرح فيما سيكون عليه حال الوطن، والشعب.

وبمثل ماتفرح قلوب الناس بمنجزات الوطن في ظل تواصل نهج القائد الخالد، تنطق الأفئدة بالشكر والعرفان لقائد مسيرة الحزب، والشعب الدكتور بشار



## المراجع

- كلمات السيد الدكتور بشار الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية.
- من الخطة الخمسية.
- دراسات من مجلس الوزراء.
- ندوة سيما لعام ٢٠٠٢.

# الحصاد الاقتصادي للسنتين الأولى والثانية من قيادة السيد الرئيس بشار الأسد

د. مصطفى العبد الله الكفري (*)



دائماً هناك شيئان يحركان الأمور إلى الأمام، قوة الدفع وتوجيه هذه القوة، قوة الدفع هذه هي اندفاع الشباب، والتوجيه هو حكمة الكبار أو الشيوخ. وأي عمل تطويري لا يأخذ بالاعتبار المزج بين هذين العاملين هو بالنتيجة تطوير فاشل، فإما أن تحصل على سرعة كبيرة تؤدي إلى التدهور، وإما أن تحصل على اتجاه صحيح لكنك تبقى في المكان، هذا من ناحية، من ناحية أخرى انت عندما تطور شيئاً فأنت تطور شيئاً موجوداً، لا تطور شيئاً تخترعه من لاشيء، فأنت تطور شيئاً أوجده من كان قبلك، فإذاً لا تستطيع أن تفصل

(*) د. مصطفى العبد الله الكفري: باحث من سورية، عضو اتحاد الكتاب العرب.

نفسك عما قام به من سبقك، وهذه هي حالة الوصل بين من يأتي قبل ومن يأتي بعد[1].

منذ منتصف الثمانينات في القرن العشرين كان هناك توافق آراء واسع النطاق على أن مستوى أداء الاقتصاد السوري أضحى أقل من إمكاناته، وكان هناك إقرار بالحاجة إلى إحداث تغيير رئيسي في السياسات الاقتصادية المتبعة. ومنذ ذلك الوقت طفا على السطح مناقشات علنية حول عملية الإصلاح الاقتصادي. واستمر توافق الآراء على ضرورة إصلاح السياسة الاقتصادية، وطالبت الأحزاب السياسية الرئيسية ببرنامج للإصلاح، يحقق معدلات نمو أعلى وينقذ الاقتصاد السوري من الركود والانكماش[2].

- فلسفة وسياسة الإصلاح الاقتصادي في الجمهورية العربية السورية:

يمكننا تحديد فلسفة التحديث والتطوير وسياسة الإصلاح الاقتصادي في الجمهورية العربية السورية من خلال ما ورد في مقررات المؤتمر القطري التاسع لحزب البعث العربي الاشتراكي، الذي انعقد في النصف الثاني من عام ٢٠٠٠.

المؤتمر القطري التاسع لحزب البعث العربي الاشتراكي والإصلاح الاقتصادي:

انعقد المؤتمر القطري التاسع لحزب البعث العربي الاشتراكي بدمشق خلال الفترة من/١٧/ إلى/٢٠/ حزيران عام/٢٠٠٠/ تحت شعار: (كل مؤتمرات حزبنا هامة تبحث في خطأ الماضي وتعمل على تلافيه وتستشف آفاق المستقبل وتضع خطط العمل لتوجهات صحيحة نحو هذا المستقبل.)[3] وقد أولى المؤتمرون الوضع الاقتصادي في البلاد اهتماما خاصا، من خلال مناقشة الخلل القائم في البنية الاقتصادية، وحالة الركود والانكماش في الاقتصاد الوطني، وتأثير ذلك كله على مسيرة البناء والتقدم، وعلى مستوى معيشة المواطنين وتوفير احتياجاتهم، وتأمين متطلبات الدفاع الوطني.



وأقر المؤتمر أنّ عملية التنمية الشاملة والاقتصاد الوطني بمجمله يقف اليوم أمام مهام كبيرة تتعلق بترسيخ الإنجازات وتطويرها، والمضي قدما في مسيرة البناء والتنمية ومواكبة المستجدات في النظام الاقتصادي العالمي الجديد والتكتلات الاقتصادية والشراكة الأوروبية وثورة المعلومات وغير ذلك من معالم عالمنا

١ - الرئيس الأسد لصحيفة لو فيغارو، تشرين الأسبوعي٤٨، دمشق، الثلاثاء ٢٦ حزيران ٢٠٠١.

٢ - يمكن الإشارة هنا إلى ما ورد حول هذا الموضوع في خطاب القسم للسيد الرئيس بشار الأسد. وكذلك ما ورد في كلمة الأمين العام للحزب الشيوعي السوري يوسف الفيصل في حفل افتتاح المؤتمر التاسع للحزب عام ٢٠٠١.

٣ - من كلمات القائد الخالد حافظ الأسد.

المعاصر بما يخدم اقتصادنا الوطني ويعزز عملية تطويره وتحديثه.

وأقر المؤتمر أيضا ضرورة الاهتمام بمستوى معيشة المواطنين وأصحاب الدخل المحدود بما يحقق العلاقة المتوازنة بين الأسعار والأجور والإنتاج ويطلق طاقات الأفراد وقدراتهم الإنتاجية ويعزز التزامهم بالعمل كقيمة من أعلى القيم في المجتمع. وسوف أحاول فيما يلي عرض المناقشات التي جرت في المحور الاقتصادي:

**أ - المؤتمر يؤكد سياسة التعددية الاقتصادية:**

أكد **المؤتمر** أهمية دور القطاعين **الخاص والمشترك** في عملية التنمية الشاملة، استناداً لمبدأ التعددية الاقتصادية، وشدد على ضرورة توفير المناخ الملائم لعملهما وإزالة العوائق التي تعترض طريقهما وتنشيط دورهما وتوسيع مشاركتهما في عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية ضمن خطة الدولة وأقر المؤتمر أن النهوض بالاقتصاد الوطني بجميع قطاعاته وفعالياته سوف يسهم في حل القضايا الهامة المتعلقة برفع مستوى معيشة المواطنين وتوفير فرص عمل جديدة للأجيال الشابة وللحد من البطالة في البلاد.

**ب - ضرورة تحديث القوانين الاقتصادية واستخدام الأساليب الحديثة في إدارة الاقتصاد:**

أكد المؤتمر على ضرورة بلورة هيكلية اقتصادية متطورة وتحديث القوانين الاقتصادية واستخدام الأساليب الحديثة في إدارة الاقتصاد بما يرفع من الكفاءة والجدوى ومستوى الأداء والاستمرار في إصدار القوانين والتشريعات المناسبة والبدء باتخاذ الإجراءات التي هدفها تشجيع الاستثمار وتعزيز الربط بين خطط التنمية والسوق.

(وكل عمل بحاجة إلى قياسات لتحديد نسبة الإنجاز والتقدم فيه ومن المفيد في هذا المجال أن نستند إلى مجموعة من المعايير:

الأول - هو عامل الزمن الذي يفترض بنا أن نعمل على استغلاله بحده الأقصى بهدف تحقيق الإنجازات التي نتطلع إليها بأقصر مدة ممكنة.

الثاني - وهو طبيعة الواقع الذي نعيش فيه والظروف المختلفة التي تحيط بنا الداخلية منها والخارجية.

الثالث - وهو الإمكانيات المتوفرة بين أيدينا للانطلاق والوصول إلى الهدف المحدد أخذين بعين الاعتبار أن الإمكانيات ليست معطيات ثابتة بل هي قابلة للتعديل باستمرار من خلال جهودنا وفعاليتنا.

الرابع - وهو المصلحة العامة وفيها التقى كل المعايير السابقة ومن خلالها

تتحدد وهي معيار وهدف في وقت واحد إذ ما قيمة أي عمل نقوم به لا يكون رائده المصلحة العامة.)[4]

(وعلينا من أجل الوصول إلى ما نبتغيه أن نتحرك بالتوازي وبنفس الوقت على ثلاثة محاور أساسية:

الأول – ويتضمن طرح أفكار جديدة في المجالات كافة سواء بهدف حل مشكلاتنا ومصاعبنا الراهنة أو بهدف تطوير الواقع الحالي.

الثاني – يتضمن تجديد أفكار قديمة لا تناسب واقعنا مع إمكانية الاستغناء عن أفكار قديمة لا يمكن أن نجددها ولم يعد ممكنا الاستفادة منها بل أصبحت معيقة لأدائنا.

الثالث – ويتضمن تطوير أفكار قديمة تم تجديدها لكي تتناسب مع الأهداف الحاضرة والمستقبلية).

وأقر المؤتمر كذلك آلية إزالة العوائق التي تحول دون تحقيق قفزة نوعية في مجال التنمية الاقتصادية والاجتماعية الشاملة والمستدامة على قاعدة الاعتماد على الذات واستنادا إلى ما أنجز من البنى التحتية المتطورة.

**ج – المؤتمر يضع رؤية اقتصادية تحديثية لجميع قطاعات الاقتصاد الوطني:**

وأوصى المؤتمر بوضع رؤية اقتصادية تحديثية لجميع قطاعات الاقتصاد الوطني المالية والنقدية والمصرفية والإنتاجية والاستهلاكية والتسويقية بهدف إعادة التوازن في الاقتصاد الوطني ومعالجة التشوهات في بنيته الأساسية والانتقال من مرحلة الركود والانكماش إلى مرحلة النمو والانطلاق واعتبر المؤتمر التنمية الشاملة مسؤولية وطنية للدولة والمجتمع وتأسيسا على ذلك أكد ضرورة اتخاذ الإجراءات العاجلة والملحة لإفساح المجال أمام الفعاليات جميعها كي تسهم في عملية التنمية الشاملة والمستدامة وفي مقدمة ذلك تفعيل التعددية الاقتصادية ومعالجة أوضاع القطاع العام وإصلاحه وإزالة العوائق التي تعترضه ووقف خسائر بعض شركاته وتحريره من القيود وتمكينه من المنافسة في الداخل والخارج.

**د – أدوات التحديث والتطوير: لابد من أن تتوافر لدينا مجموعة من الأدوات لإنجاح عملية الإصلاح الاقتصادي أهمها:**

– الفكر المتجدد أي الفكر المبدع الذي لا يتوقف عند حد معين ولا يحصر نفسه في قالب واحد جامد، وكم نحن بحاجة إليه اليوم وغدا لدفع عملية التطوير قدماً إلى الأمام.

– النقد البناء وهو تماما بعكس النقد

---

٤ – من كلمة السيد الرئيس بشار الأسد في المؤتمر.

الهدام والذي نراه يغلب في أحيان كثيرة على طروحاتنا .

- المساءلة وهي عملية متكاملة لا يمكن تجزئتها، وتبدأ من القاعدة والأساس ومن الوحدة الصغرى في المجتمع وهي المواطن، وتنتهي بالمؤسسات ... أما المستويات الأخرى في المساءلة والمحاسبة والتي تقوم بها المؤسسات المختصة فتكون للحالات التي يكون فيها شذوذ عن القوانين والأنظمة والتي من المفترض أن تكون محدودة في حال وجود الرقابة الذاتية وبالتالي يكون أداء المؤسسات أفضل وأسلم وهذه العملية عملية مستمرة تتوازى مع العمل أو تكون جزءا منه، لان الخطأ بأشكاله المختلفة سيبقى ملازما للحياة وإذا لم يعالج فانه يتفاقم، بهذا الشكل نستطيع أن نضع استراتيجية عامة للتطوير تكون إطارا محددا للخطوات.(٥)

والإجراءات الواجب اتخاذها في سبيل تحقيق أهداف هذه الاستراتيجية، خاصة أن بلدنا قد مر بظروف تاريخية وسياسية واقتصادية واجتماعية مختلفة خلال القرن العشرين، وكانت هذه الظروف تتغير بشكل متسارع ومازالت وقد غلب على هذه التغيرات الطابع السياسي واستطاع القائد الأسد خلال العقود الثلاثة الأخيرة وضع استراتيجية عامة تلبي الحاجات المختلفة للتطوير المنشود شملت مختلف القطاعات وقد برهنت الاستراتيجية السياسية التي وضعها واشرف على تنفيذها ومتابعتها وتطويرها عن نجاحها الكبير حتى يومنا هذا. أما في المجالات الأخرى وكما نعرف جميعا فلم يتماش الأداء فيها مع الأداء في المجال السياسي لأسباب عديدة لذلك كانت هناك فجوة كبيرة بينها ولو كان الأداء افضل فان موقفنا السياسي سيكون أقوى دون شك وهو القوي أساساً لكن طموحنا يبقى للأحسن). (٦)

**العناصر الرئيسة لبرنامج التحديث والتطوير:**

كانت الأحداث الاقتصادية الأهم التي تضمنها برنامج التحديث والتطوير، وتم تنفيذها خلال السنة الأولى والثانية من حكم الرئيس بشار الأسد، منذ استلامه للسلطة في حزيران (يونيو) ٢٠٠٠ تتمثل بما يلي: (٧)

❖ إقامة مصارف خاصة بعد ٤٠ عاماً من التأميم، وصدور قانون النقد والتسليف،



---

٥ - من كلمة السيد الرئيس بشار الأسد بعد أدائه القسم الدستوري، دمشق١٧/٧ سانا .

٦ - من كلمات السيد الرئيس بشار الأسد .

٧ - رانية إسماعيل - سمر أزمشلي، العام الأول من حكم الرئيس بشار الأسد، الحياة العدد: ١٣٩٦٦ تاريخ ١١-٦-٢٠٠١ ، ص ٢١ .

* السماح باستيراد السيارات بعد حظر استمر ٥٣ عاماً.
* إقرار قانون جديد للإيجارات بدل القانون المعمول به منذ عام ١٩٥٤،
* زيادة الرواتب والأجور للعاملين في الدولة الذين يشكلون مع أسرهم نحو ٤٠ في المائة من السكان، مرتين الأولى في عام ٢٠٠٠ والثانية في عام ٢٠٠٢.

**أولاً - قانون المصارف:** (٨)

يشكل إقرار قانون السماح بإنشاء مصارف خاصة الذي أقر في نيسان (إبريل) ٢٠٠١ - الخطوة الأبرز في مجال الإصلاح المالي المنتظر لتشجيع الاستثمار في سورية. بالرغم من أنه الجزء الأسهل في عملية تطوير الصناعة المصرفية.

وكان القانون قد حدد مبلغ ٣٠ مليون دولار كحد أدنى لرأس مال أي مصرف، على أن تكون الأسهم اسمية وقابلة للتداول، باستثناء أسهم القطاع العام، وان تكون مملوكة من السوريين حصراً. لكن القانون أجاز لمجلس الوزراء السماح لرعايا الدول العربية سواء كانوا أشخاصًا طبيعيين أو شخصيات اعتبارية ذات خبرة مصرفية بالمشاركة أو المساهمة في تأسيس المصرف أو في شراء أسهمه، شرط ألا تتجاوز حصصهم في رأس ماله نسبة ٤٩ في المائة، وان تسدد بالقطع الأجنبي بسعر الصرف السائد في الأسواق.

وسمح بتأسيس مصارف على شكل شركات مساهمة مغفلة سورية، يسهم فيها القطاع العام بنسبة لا تقل عن ٢٥ في المائة من رأس مالها وتمارس نشاطاتها بإشراف ومراقبة مصرف سورية المركزي. كما سمح أيضا بتحويل الأرباح والفوائد التي تحققها حصص ومساهمات رعايا الدول العربية والأجنبية إلى الخارج سنوياً من حسابات المصرف بالقطع الأجنبي، استناداً إلى الموازنات السنوية المصدقة أصولا، علماً أن النظام المصرفي الحالي يتكون من المصرف المركزي وسبعة مصارف متخصصة تملكها الدولة بالكامل.

وكانت الحكومة أممت المصارف الخاصة في مطلع الستينات، لكنها سمحت في حزيران (يونيو) ٢٠٠١ بإقامة مصارف خاصة في المناطق الحرة السورية واشترطت أن يكون المصرف من الدرجة الأولى ويزيد رأس ماله على ١١ مليون دولار.

**ثانياً - قانون الإيجارات:** (٩)

ويأتي قانون الإيجارات الجديد في مقدمة الإصلاحات التي تمت في الفترة الأخيرة، خصوصاً أن تأثيره يطال الشريحة

٨ - أنظر، الدكتور مصطفى العبدالله الكفري، الإصلاح الاقتصادي والتنمية البشرية حالة سورية، بحث أنجز في جامعة اكستر بريطانيا ٢٠٠١.
٩ - المصدر السابق.

الأكبر من ملاك ومستأجرين وشباب راغبين بالزواج، حيث أعاد القانون الجديد العلاقة بين المؤجر والمستأجر إلى قاعدة العقد شريعة المتعاقدين . ووضع صيغة جديدة لمعالجة الإشكاليات القائمة التي تعود إلى خمسين عاماً بين المالك والمستأجر، بحيث اصبح للمؤجر الحق في استرداد عقاره بعد انتهاء المدة المحددة في العقد، فيما كانت عقود الإيجار القديمة تخضع لأحكام التمديد الحكمي وتحديد بدل الإيجار.

وكان مجلس الشعب (البرلمان) أقر مطلع شباط (فبراير) ٢٠٠١ قانوناً جديداً للإيجارات يتضمن ١٦ مادة، تنص المادة الأولى منه على إخضاع تأجير العقارات المعدة للسكن أو السياحة أو الاستأجرة من قبل الدوائر الرسمية أو النقابات أو الجمعيات أو مؤسسات القطاع العام والمؤسسات التعليمية لمشيئة المتعاقدين اعتبارا من نفاذ القانون، مما أتاح الفرصة لحل أزمة السكن وتشجيع الشبان على الزواج، إذ انه سيسمح بطرح عشرات الآلاف من الشقق الجديدة في سوق الإيجار من دون أي تخوف من قبل المالكين.

يذكر أن ارتفاع أسعار الشقق وعدم رغبة الملاك في تأجير عقاراتهم بسبب قانون الإيجارات القديم أدى إلى إغلاق اكثر من ٤٦٠ ألف شقة شاغرة في دمشق.

لكن تجدر الإشارة إلى أن القانون لم يؤثر على أسعار العقارات. كما يؤخذ على القانون الجديد عدم وضوح بعض مواده، خصوصاً في ما يتعلق بطريقة الإخلاء، إضافة إلى ارتفاع الضريبة في بعض الحالات واستثناء العقارات المؤجرة لأعمال تجارية أو صناعية أو حرفية أو مهن حرة أو علمية من طلب إنهاء العلاقة الايجارية مقابل تعويض، مما أدى إلى تضرر فئة كبيرة من ملاك المحلات التجارية والصناعية.

**ثالثاً - السماح باستيراد السيارات:**[١٠]

**سمحت الحكومة السورية للمواطنين باستيراد السيارات في حزيران (يونيو)** ٢٠٠١ بعد منع استمر اكثر من ٣٠ عاماً. ويبلغ عدد السيارات العاملة على الطرقات السورية ٨٧٠ ألف سيارة تعود أعمار ما لايقل عن ١٠ في المائة منها إلى عام ١٩٦٠ وما قبل.

ويعتبر قرار خفض الرسوم الجمركية على المواد الأولية الداخلة في الصناعة إلى واحد في المائة، آخر القرارات المهمة في مجال التجارة. وقد أوجد حالاً من الارتياح بين الصناعيين ورجال الأعمال. ويعتقد اقتصاديون إن قرار لبنان الأخير إلغاء الرسوم الجمركية على المواد الأولية عجل بصدور القانون في سورية لأنه أدى إلى كلفة إنتاج اقل بكثير في لبنان، مما يعني

١٠ - المصدر السابق.

بروز منافسة غير سليمة للصناعات السورية، إضافة إلى هجرة بعض هذه الصناعات وتوطينها في لبنان، مع تزايد عمليات التهريب عبر الحدود ووقوع مخالفات في استعمال شهادات المنشأ.

**رابعاً - زيادة الرواتب والأجور:**

لقد كان قرار زيادة الرواتب والأجور في عام ٢٠٠٠، للعاملين في الدولة الذين يشكلون مع عائلاتهم نحو ٤٠ في المائة من عدد السكان، أقرب القوانين إلى قلوب المواطنين الذين انتظروه لفترة طويلة منذ آخر زيادة تمت عام ١٩٩٦.

وعلى الرغم من ضآلة الزيادة التي لم تتجاوز ٢٥ في المائة، إلا أن الحكومة ترى أن تسريع وتائر عملية التنمية سيسهم في تحسين المستوى المعيشي للمواطنين من خلال تنشيط العمل بالمشاريع الاستثمارية والتنموية التي تضمنتها الموازنة العامة للدولة، والإعلان عن تنفيذ مشاريع جديدة لامتصاص البطالة، حيث تم رصد خمسين بليون ليرة إضافة إلى الاعتمادات الواردة في الموازنة . ويبلغ عدد العاملين في الدولة نحو ١.٧ مليون شخص باستثناء المجندين في الجيش والقوات المسلحة (عدد السكان نحو ١٧ مليون نسمة). وبلغت كلفة الزيادة نحو ١٩.٦ بليون ليرة سورية منها ١٨ بليوناً للعاملين في الدولة والمبلغ المتبقي للمتقاعدين.

وتعد المراسيم التشريعية الخمسة التي أصدرها السيد الرئيس بشار الأسد في منتصف أيار ٢٠٠٢ المتضمنة زيادة الأجور والرواتب والمعاشات، خطوة جديدة في إطار تنفيذ الخطة التي أعلنها في خطاب القسم والقاضية بإصلاح نظام الأجور والرواتب. حيث ورد في خطاب القسم: (كما يتوجب علينا رسم سياسة اقتصادية رشيدة تردم الفجوات بين الموارد والنفقات وبين الاستيراد والتصدير وبين الإنتاج والتصريف وبين الأجور والأسعار... وزيادة فرص العمل وتحسين الوضع المعاشي للمواطنين في ضوء زيادة احتياجاتهم الحيوية والتصاعد المطرد في تكاليف المعيشة.)[11]

والزيادة الجديدة جعلت سقف الراتب الحالي للعاملين في الدولة يقترب من ١٢ ألف ليرة بعدما كان ٩٦٦٠ ليرة وبحسبة بسيطة أيضا يمكن القول: أن حدي الزيادة الجديدة الأدنى والأعلى يتراوح بين ألف ليرة وثلاثة آلاف ليرة.

إن هذه الزيادة من وجهة نظر اقتصادية ستسهم في محاربة حالة الركود الاقتصادي وتزايد حركة تداول السلع والمواد وحركة دوران النقد التي تعني بكل الأحوال زيادة مداخيل العاملين في القطاع

١١ - أنظر، محمد الرفاعي ، صحيفة تشرين، دمشق الثلاثاء ١٤ أيار ٢٠٠٢.

العام والخاص وتلبيه حاجاتهم من السلع وكذلك توفير موارد جديدة للدولة من خلال الرسوم والضرائب التي ستنجم عن ارتفاع حركة المبيعات وتشغيل خطوط الإنتاج ووردیات العمل مما يدخل الطمأنينة والاستقرار اكثر إلى نفوس المواطنين وأصحاب الفعاليات الاقتصادية على السواء.

السياسة التي اعتمدها السيد الرئيس بشار الأسد من خلال توجيهاته بإصلاح نظام الأجور والرواتب وإصلاح النظام الضريبي والمالي وعدم رفع الرسوم والضرائب على أية سلعة ينتجها ويستوردها القطاع الخاص سياسة ثابتة إذ صدرت زيادة رواتب ومنحتان وتعديل احتساب ضريبة الدخل على الرواتب خلال عامين فقط.

وللزيادة بعد اجتماعي يتعلق بالسياسة الاجتماعية والسكانية للدولة حيث بدا واضحا في المرسوم /٣٢/ الذي زيد بموجبه التعويض العائلي للزوجة ٣٠٠ ليرة سورية و ٢٠٠ للولد الأول و١٥٠ للثاني و١٠٠ للثالث أي أن الدولة جادة في تطبيق سياسة تحفيزية لتنظيم الأسرة. والحد من الزيادة السكانية السنوية في سورية التي تعد من المعدلات العالية جدا على مستوى العالم والتي تستلزم وضع حد لها من خلال التحفيز على نشر الوعي السكاني وبكل الوسائل المتعلقة بتنظيم الأسرة.

ولإتمام الخطوات السابقة، أقر مجلس الوزراء مشروع البرنامج الوطني لمكافحة البطالة، حيث تم تخصيص مبلغ بليون دولار من الموارد الوطنية لحل مشكلة البطالة التي يقدر اقتصاديون نسبتها بنحو ٢٠ في المائة، فيما تقدرها الإحصاءات الرسمية بنحو ٩.٥ في المائة (بعدد إجمالي يتجاوز ٤٣٢ الف شخص).[١٢]

ولا يستهدف البرنامج مجرد توفير فرص للعمل بشكل موقت، بل توفير عمالة مستدامة للعاطلين عن العمل في الأمد الطويل. وفي الوقت نفسه، يشدد اقتصاديون انه ليس هناك بديل في الأجل البعيد عن إيجاد الظروف الملائمة لتحقيق معدل النمو للاقتصاد يعادل ٦ في المائة سنوياً، إذا ما أرادت الحكومة استيعاب الداخلين الجدد إلى سوق العمل، والذين يقدر عددهم بما يراوح بين ٢٥٠ الف و٣٠٠ الف شخص سنوياً، ويحتاجون إلى استثمارات تصل قيمتها إلى ما لا يقل عن خمسة مليارات دولار أميركي، إذا اخذ في الاعتبار أن كلفة توفير فرصة العمل الواحدة تراوح بين ١٥ ألف و٢٥ ألف دولار.

**مستوى أداء الاقتصاد السوري في السنة الأولى والثانية من حكم السيد الرئيس بشار الأسد:**

١٢ - المصدر السابق.

شهدت سورية خلال عام ٢٠٠٠ وعام ٢٠٠١ تطورات اقتصادية مهمة، حيث واصلت الحكومة الجديدة بتوجيهات من السيد الرئيس بشار الأسد تطبيق سياساتها الكلية ضمن برنامج التحديث والتطوير والإصلاح الهيكلي، مما أدى إلى تحسين ملحوظ في الإدارة والإشراف وبخاصة ما يتعلق بالقضايا النقدية والمصرفية و الإنتاج والاستثمار، وتمكن الاقتصاد السوري من تحقيق نتائج إيجابية جيدة أهمها:[١٣]

- نمو حقيقي جيد للناتج المحلي الإجمالي في عام ٢٠٠٠ (٢,٥٪) ونمو اسمي قدره (٨,٥٪).
- تحقيق فائض من ميزان الحساب الجاري.
- التحكم في معدلات التضخم.
- تحقيق الاستقرار في سعر الصرف.

(وكان الأداء في المجال الاقتصادي - في الماضي - على وجه الخصوص يتموج ويتبدل بحدة نتيجة لتبدل الظروف التي كانت هي الأخرى شديدة التغير وخاصة عندما انتقل اقتصادنا من اقتصاد له أسواقه المفتوحة أمامه إلى اقتصاد مطلوب منه المنافسة وكانت المعالجة تتم من خلال إصدار قوانين ومراسيم وقرارات تتسم أحيانا بالتجريبية وأحيانا أخرى بالارتجال وفي البعض منها كانت تأتي كرد فعل على حالة معينة ولكن قليلا ما كانت تأتي هذه المعالجة فاعلة لا منفعلة أي أن تأخذ هي زمام المبادرة مستبقة الأحداث والسبب في ذلك انه لم يكن هناك استراتيجيات واضحة تخرج التشريعات من ضمنها بل تكونت الاستراتيجية الاقتصادية كمحصلة لمجمل هذه التشريعات الصادرة وبالتالي أتت ضعيفة وفيها الكثير من الثغرات وكانت مسؤولة إلى حد ما وليس بشكل كامل عن الصعوبات التي نعاني منها اليوم.

فإذا نحن بحاجة الآن إلى استراتيجيات اقتصادية اجتماعية علمية وغير ذلك تخدم التنمية والصمود في آن واحد وهي ليست موجودة كوصفات جاهزة بل إنها بحاجة إلى دراسات معمقة نستخلص منها النتائج التي على أساسها نحدد إلى أين يجب أن نتجه وهذا بحاجة إلى وقت وجهد وتعاون وحوارات مستمرة وموسعة.)

تشير البيانات المتوافرة إلى أن الناتج المحلي الإجمالي بالأسعار الجارية بلغ في عام ٢٠٠٠ (٨٨٩,٥) مليار ليرة سورية مقابل (٨٢١,٣) مليار ليرة عام ١٩٩٩، محققا بذلك معدل نمو اسمي قدره ٨,٢٪.

و بلغ الناتج المحلي الإجمالي في عام ٢٠٠٠ بالأسعار الثابتة حوالي ٦٨٠,٠

١٣ - المؤسسة العربية لضمان الاستثمار، مناخ الاستثمار في الجمهورية العربية السورية ٢٠٠٠.

مليار ليرة سورية مقابل ٦٦٢.٦ مليار ليرة عام ١٩٩٩، بمعدل نمو حقيقي قدره ٢.٥٪ مقابل معدل نمو حقيقي سالب قدره ١.٨٪ عام ١٩٩٩.

على المستوى القطاعي احتل قطاع الزراعة والصيد والغابات المرتبة الأولى من حيث المساهمة في الناتج المحلي الإجمالي بنسبة ٢٥.٣٪. جاء بعده قطاع الصناعات الاستخراجية بنسبة ٢٥.٢٪، والتجارة والمطاعم و الفنادق ١٧.٥٪، وقطاع النقل والمواصلات والتخزين ١٢.٧٪، وقطاع الخدمات الحكومية ١٠٪، وقطاع التمويل والتأمين والمصارف ٤.٤٪، و قطاع التشييد ٣.١٪، وقطاع الكهرباء والماء و الغاز ١.٦٪، و قطاع الصناعات التحويلية ٠.٢٪.

وقد بلغ إجمالي حجم تكوين رأس المال خلال عام ٢٠٠٠ حوالي ١٥٧.١ مليار ليرة مقابل ١٥٤.٢ مليار ليرة عام ١٩٩٩، بزيادة نسبتها ١.٩٪. وقد توزع حجم تكوين رأس المال بواقع ٦٠.٥٪ للقطاع العام و ٣٩.٥٪ للقطاع الخاص.

فيما بلغ حجم الاستهلاك الكلي خلال نفس العام حوالي ٦٨٤.٢ مليار ليرة بواقع ١٤.٤٪ للاستهلاك العام، و ٨٥.٦٪ للاستهلاك الخاص.

- الأوضاع المالية والنقدية:

وصلت اعتمادات مشروع الميزانية العامة خلال عام ٢٠٠٠ إلى حوالي ٢٧٥.٤ مليار ليرة، مقابل ٢٥٥.٣ مليار ليرة عام ١٩٩١، بزيادة نسبتها ٧.٩٪، منها ١٥٠.٢ مليار ليرة ( ٥٤٪ من إجمالي حجم الميزانية) للعمليات الجارية، و ١٢٨.٩ مليار ليرة ٤٦٪ للمشاريع الاستثمارية.

تواصل الحكومة السورية تطبيق سياساتها النقدية غير التوسعية بهدف المحافظة على استقرار السوق النقدي بما في ذلك التحكم في حجم الكتلة النقدية من جهة وتخفيض معدل التضخم من جهة أخرى.

يتكون قطاع المصارف في سوريا من المصرف المركزي ومصرف تجاري واحد وخمسة مصارف متخصصة هي : الزراعي التعاوني، التسليف الشعبي، التوفير، الصناعي، العقاري. وتشير البيانات المتوافرة إلى أن معدل التضخم خلال العام قدر بحوالي ٥.٩٪ مقابل ٥.٨٪ عام ١٩٩٩.



كما شهد سعر صرف الليرة مقابل أهم العملات الأجنبية استقرارا ملحوظا خاصة مقابل الدولار، إذ بلغ ٥٠ ليرة للدولار (+- ٢ ليرة سورية).

- سوق الأوراق المالية :

لم تنشأ حتى الآن سوق للأوراق المالية في سورية، إلا أن عام ٢٠٠٠ و عام ٢٠٠١ شهد تحركات جدية للحكومة في هذا المجال، حيث تم تشكيل لجنة على مستوى الوزراء و الفنيين لإعداد مشروع إحداث السوق الذي يتطلب مستلزمات عديدة منها زيادة عدد الشركات المساهمة وتهيئة المناخ

اللازم والمواتي للبورصة. و تقوم الحكومة السورية بدراسة مجمل هذه القضايا بشكل دقيق ومركز لتجنب ما وقعت فيه بعض البورصات العالمية. ولعل من أبرز القرارات التي تم اتخاذها في هذا الصدد قانون إحداث مصارف خاصة، وقانون لسرية العمل المصرفي فضلا عن السير في اتخاذ ما يلزم لإحداث سوق للأوراق المالية.

- التجارة الخارجية :

تشير البيانات إلى أن حجم الصادرات السورية خلال عام ٢٠٠٠ قد بلغ حوالي ٥,١٤ مليار دولار مقابل ٣,٨٠ مليار دولار عام ١٩٩٩، بزيادة نسبتها ٣٥٪. ويعزى ذلك بشكل أساسي إلى الارتفاع الذي شهدته أسعار النفط العالمية.

فيما يتعلق بالتركيبة السلعية للصادرات تأتي صادرات النفط الخام في المرتبة الأولى بما نسبته ٦٨,١٪ من إجمالي الصادرات، وتأتي بعدها صادرات المصنوعات النسيجية بنسبة ٦,٨٪، وصادرات الخضار والفواكه ٥,١٪، وصادرات القطن الخام ٤,٢٪، والأغنام الحية ٢,١٪. فيما تمثل بقية الصادرات حوالي ٧,٣٪.

أما فيما يتعلق بالواردات فقد بلغت خلال العام حوالي ٣,٧٢ مليار دولار مقابل ٣,٥٩ مليار دولار عام ١٩٩٩، بزيادة نسبتها ٤٪. وتشكل واردات القطاع الخاص حوالي ٧٢٪ من إجمالي الواردات فيما تبلغ حصة القطاع العام حوالي ٢٨٪.

وعليه بلغ فائض الميزان التجاري خلال عام ٢٠٠٠ حوالي ١,٤٢ مليار دولار مقابل فائض قدره ٢١٦ مليون دولار عام ١٩٩٩. وبلغت نسبة فائض الميزان التجاري إلى الناتج المحلي الإجمالي حوالي ٥,٧٪. فيما بلغت نسبة تغطية الصادرات للواردات حوالي ١٣٨٪.

- الصادرات إلى الدول العربية :

بلغ إجمالي حجم الصادرات السورية إلى الدول العربية خلال عام ٢٠٠٠ حوالي ٠,٧ مليار دولار (٣٥ مليار ليرة سورية)، و جاءت السعودية في المرتبة الأولى بنسبة ٣٥,٧٪ من إجمالي الصادرات إلى الدول العربية، و جاءت بعدها لبنان بنسبة ٢٤,٧٪، والإمارات ٦,٤٪، و مصر ٦,٨٪، والأردن ٤,٨٪ وقطر ٢,٩٪.

- ميزان الحساب الجاري :

تشير البيانات إلى أن فائض ميزان الحساب الجاري في سورية خلال عام ٢٠٠٠ قد قدر بحوالي ١,٠٦ مليار دولار بما نسبته ٥,٦٪ من الناتج المحلي الإجمالي مقابل فائض قدره ٠,٢ مليار دولار عام ١٩٩٩ بما نسبته ١,٢٪. ويعزى هذا التطور في الحساب الجاري إلى زيادة أسعار النفط من جهة والتحسن الذي شهده قطاع الزراعة خلال العام من جهة ثانية.

- **الاستثمارات العربية الوافدة :**

قدرت الاستثمارات العربية الوافدة نحو سوريا خلال عام ٢٠٠٠ بحوالي ١٩١ مليون دولار، بما نسبته ٨،٤٪ من إجمالي الاستثمارات العربية البينية، جاء معظمها من السعودية والكويت والإمارات. وتوزعت هذه الاستثمارات على المستوى القطاعي بواقع ٤٩،٤٪ لقطاع الخدمات و ٤٩،٠٪ لقطاع الصناعة، و ١،٦٪ لقطاع الزراعة.

ومن جانب آخر بلغ الرصيد التراكمي للاستثمارات العربية الوافدة إلى سورية خلال الفترة ١٩٨٩- ٢٠٠٠ حوالي ١٦٢٢،٧ مليون دولار، فيما بلغت جملة الاستثمارات الصادرة من سورية إلى الدول العربية خلال الفترة ذاتها حوالي ٤٩٩،٤ مليون دولار.(١٤)

- **القطاعات الاقتصادية الأساسية :**

١ - **قطاع الزراعة :**

تواصل الحكومة السورية اهتمامها الكبير بقطاع الزراعة الذي يعد ركيزة أساسية في بنية الاقتصاد الوطني. فقد بلغت مساهمته في الناتج المحلي الإجمالي حوالي ٢٢٤ مليار ليرة، بما نسبته ٢٥،٣٪ من الناتج المحلي الإجمالي. وقد بذلت الدولة جهودا حثيثة للنهوض بالقطاع من خلال تأمين مستلزمات التنمية الزراعية ومقومات تطويرها عن طريق استصلاح الأراضي الزراعية و زيادة مساحتها، إذ بلغت مساحة الأراضي القابلة للزراعة حوالي ٥٩٨٧ ألف هكتار، استثمر منها فعليا حوالي ٤،٨ مليون هكتار. فيما بلغت الزراعات المروية ١،٢ مليون هكتار. واعتمدت أساليب الري بإقامة شبكات الري والصرف والسدود، إذ تم بناء حوالي ١٥٠ سدا بطاقة تخزينية تتجاوز ١٦ مليار متر مكعب للاستخدام الزراعي، إضافة إلى توافر المياه السطحية المتمثلة في مياه الأنهار والينابيع التي تصل غزارتها إلى حوالي ٣،٤ مليار متر مكعب باستثناء نهري دجلة والفرات، والمياه الجوفية التي تبلغ طاقتها حوالي ٣،٢ مليار متر مكعب.

ويحتل القطن المركز الأول من حيث الأهمية النسبية للمنتجات الزراعية والصناعية، كما أنه مصدر رئيسي للصناعات النسيجية. وقد ازدادت مساحة الأراضي المزروعة بالقطن من ١٥٦ ألف هكتار عام ١٩٩٠ إلى ٢٤٤ ألف هكتار عام ٢٠٠٠، بإجمالي إنتاج يصل إلى حوالي مليون طن من القطن. وتتولى المؤسسة العامة لحلج و تسويق الأقطان شراء المحصول من المزارعين وحلجه وإعداده للتصدير. وتمثل صادرات القطن حوالي ٦٥٪ من إجمالي الإنتاج.



١٤ - المؤسسة العربية لضمان الاستثمار، مناخ الاستثمار في الجمهورية العربية السورية ٢٠٠٠.

كما تنتج سورية أنواعا مختلفة من الحبوب أهمها القمح الذي بلغت مساحته حوالي ١,٦ مليون هكتار بإنتاج قدره ٤ مليون طن عام ٢٠٠٠، والشعير الذي يشكل المادة العلفية الأولى للثروة الحيوانية والذي بلغت مساحته حوالي ١٥٤ ألف هكتار بإنتاج قدره ٨٦٩ ألف طن. بالإضافة إلى منتجات أخرى منها العدس والحمص والذرة الصفراء. كما تنتج سورية كميات كبيرة من الخضراوات أهمها البندورة والبطاطا والبطيخ والحمضيات والتفاح والفواكه.

٢ - قطاع النفط والغاز:

تقدر احتياطات سورية من النفط بحوالي ٢,٢٥ مليار برميل، ويبلغ إنتاج النفط حوالي ٦٠٠ ألف برميل يوميا، وتواصل الحكومة السورية جهودها بهدف اكتشاف تراكيب نفطية جديدة وإعادة تقويم التراكيب المكتشفة. وتمخضت أعمال التطوير عن نتائج إيجابية خاصة في المناطق الشمالية من تدمر والبلعاس.

أما فيما يتعلق بالغاز الطبيعي فتقدر احتياطاته بحوالي ٢٤١ مليار قدم مكعب، ويوجد الغاز الطبيعي في مناطق النفط مختلطا معه أو في حقول منفصلة.

ويتركز في منطقتين هما الجزيرة السورية ( شمال حوض الفرات وعبد العزيز وسنجار )، والجزء السوري من مقعر ما بين النهرين. أما أهم حقوله المكتشفة فهي حقل الهول ( شرق الحسكة)، والفولة ( شمال جبسة ).

أما فيما يتعلق بالصناعات الاستخراجية السورية الأخرى فهي متعددة أهمها خامات الحديد، الفوسفات، الملح والجص، فلزات الكروم، خام المنغنيز، خام النحاس، الرصاص والزنك، الألمنيوم، وخامات التيتانيوم.

٣ - قطاع الصناعة التحويلية:

تواصل الحكومة سياستها المتعلقة بتحديث وتطوير قطاع الصناعة التحويلية. فقد ساهم كل من نشاط الصناعات الغذائية والنسيجية والكيماوية بما نسبته ٢٥٪ من إجمالي الإنتاج الصناعي، في حين توزعت النسبة المتبقية ٥٧٪ على الأنشطة الصناعية الأخرى وبخاصة صناعة الأخشاب والموبيليا والأثاث وصناعة الورق والطباعة والنشر والمنتجات غير المعدنية والمعدنية الأساسية والمعدنية المصنعة والمنتجات المتنوعة وصناعة الكهرباء والماء.

(بعض الإجراءات التي اتخذت هل ظهرت نتائج لها أم أنه من المبكر اليوم الحديث عنها، بعض الإجراءات التشريعية أو غيرها تظهر نتائجها سريعا بعد إقرارها والبعض الآخر تكون نتائجه متأخرة . ولكن أغلب التشريعات التي صدرت حتى الآن الغرض منها تهيئة أرضية صلبة للانطلاق

وهناك إجراءات وتشريعات أخرى هامة ما زالت قيد الدراسة أو قيد النقاش في المؤسسات المختلفة داخل الدولة وخارجها وأحيانا النقاش يستغرق وقتا طويلا يؤخر بعض الإجراءات ولكننا نسعى دائما لكي نشارك أكبر عدد ممكن من الأشخاص والجهات حتى يحقق أي إجراء مصلحة الوطن وكل هذه القوانين سيكون لها تأثير على المجتمع بشكل عام وصدورها من دون دراسة معمقة قد تكون له تأثيرات سلبية واسعة النطاق وهذا ما نحاول أن نتحاشاه دائما.) (١٥)

وقد أكد السيد الرئيس بشار الأسد أن محاور التطوير والتحديث (الاقتصادي كثيرة لكن يحكمها محوران هامان: القوانين وإدارة وتطبيق هذه القوانين، نحن قطعنا مرحلة مقبولة. لا أقول اكثر من مقبولة في مجال تطوير القوانين ولكن مازال أمامنا الكثير، وتحديث القوانين يحتاج إلى وقت. والسرعة الزائدة قد تعطي نتيجة معاكسة أما في مجال تطبيق وإدارة القوانين فنحن لم نحقق بعد ما نستطيع أن نقول إننا راضون عنه وبالتالي علينا أن نبذل المزيد من الجهود في هذا الشأن.

هناك العديد من العوامل التي تقف في وجه هذا التطوير لكن ذلك لا يعني بأننا لا نستطيع تجاوزها.



❖ ❖ ❖

١٥ - الرئيس الأسد لصحيفة لو فيغارو، تشرين الأسبوعي، دمشق، الثلاثاء ٢٦ حزيران ٢٠٠١.

## المشاريع المشملة بأحكام قانون الاستثمار رقم ١٠ لعام ٢٠٠١ موزعة حسب المحافظات

| المحافظة | عدد المشاريع (مشروع) | اجمالي التكاليف الاستثمارية (ألف ليرة سورية) | عدد العمال (عامل) |
|---|---|---|---|
| دمشق | 55 | 1685819 | 1228 |
| ريف دمشق | 154 | 46112256 | 9060 |
| حلب | 196 | 37661924 | 7255 |
| حمص | 75 | 13703905 | 2394 |
| حماه | 122 | 2470937 | 2394 |
| اللاذقية | 38 | 3320662 | 1228 |
| طرطوس | 54 | 2163876 | 1284 |
| درعا | 24 | 2233600 | 865 |
| السويداء | 5 | 2528878 | 710 |
| ادلب | 21 | 467482 | 309 |
| دير الزور | 4 | 105984 | 72 |
| الحسكة | 11 | 396519 | 270 |
| الرقة | 16 | 9308014 | 1326 |
| القنيطرة | 2 | 282690 | 76 |
| المجموع | 777 | 122442539 | 27548 |



## المشاريع المشملة بأحكام قانون الاستثمار رقم ١٠ لعام ٢٠٠١ موزعة حسب النشاط

| نوع النشاط | عدد المشاريع (مشروع) | اجمالي التكاليف الاستثمارية (ألف ليرة سورية) | عدد العمال (عامل) |
|---|---|---|---|
| القطاع الزراعي | 25 | 9358852 | 2299 |
| القطاع الصناعي | 235 | 100281288 | 17144 |
| قطاع النقل | 517 | 12802399 | 8105 |
| المجمـوع | 777 | 122442539 | 27548 |

63

## السيد الرئيس ومسيرة التحديث والتطوير في مجال التشريع والقانون

القاضي رشيد موعد (*)



السابع عشر من تموز يوم مشهود في تاريخ سورية الحديث لما يحمله من دلالات وطنية، ومعان قومية كبيرة وكثيرة جسدها شعبنا على أرض الواقع عبر إجماع قل نظيره، وهو يسلم الراية إلى السيد الرئيس بشار الأسد.

ففي هذا اليوم ٢٠٠٠/٧/١٧ أدى السيد الرئيس اليمين الدستورية، وألقى خطاب القسم مبتدئاً ولايته الرئاسية، عارضاً برنامج العمل الوطني والقومي الشامل الذي يأخذ بكل جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وما تقتضيه من تطوير وتحديث يتطلبه روح العصر.

(*) رشيد موعد: باحث من سورية، مستشار في القانون، قاضي محكمة الجنايات سابقاً.

عامان مرا على تولي مسؤولية قيادة الوطن، كانت حافلة بالتحديات والصعوبات، لكنها تكللت بالإنجازات والقدرة على تذليل العقبات، وإعلاء شأن سورية، ومكانتها ورسالتها الحضارية.. رسالة الحق، والعدل، والسلام.

كان السيد الرئيس في مستوى المرحلة، لم يكتف برصيده الشعبي الكبير، فقد أضاف إليه رصيداً جديداً حين قاد عملية التحديث والتطوير في سورية، والارتقاء بمؤسساتها لتواكب عصر التقنيات، داعياً لاقتصاد متين ينهض بالواقع المعيشي للمواطن.

شهد القطر العربي السوري في ظل رعايته تطورات حديثة لبعض الفعاليات القانونية والاقتصادية والاجتماعية غايتها تحسين المناخ العام للأفراد والمجتمع، وكذلك ازدهار ورفع مستوى معيشته.

فقد طرح السيد الرئيس في كلمته أمام مجلس الشعب رؤيته المتكاملة والشاملة لسورية المستقبل من خلال برنامج عمل وطني متكامل ينسجم تماماً مع التطلعات القومية، يُشخِّص الأمور ويضعها في نصابها. كما تحدث عن الوضع الداخلي، وضرورة الإصلاح والتحديث لكافة مناحي الحياة بكثير من الصراحة، والدقة والوضوح، سيما بخصوص الوضع الاقتصادي وضرورة تفعيله وتطويره، وأهمية تطوير وتحديث القوانين واحترامها.

هذه الرؤيا للسيد الرئيس في خطاب القسم حدد من خلالها توجهات الغد، ورسم طريق ومعالم المستقبل من حيث استمرار عملية البناء الداخلي.

بعد مرور عامين على تسلمه زمام القيادة، نتوقف مع الأداء خلال حقبة التطوير والتحديث والتغيير. فالأمر ليس إلاّ رؤية يمكن استشفافها واستيضاحها من القول والعمل، فكان من أولويات هذا التغيير الاصلاح.. وقد تم هذا الهدف من خلال تصريحات السيد الرئيس وأفعاله وتوجيهاته إلى الحكومة. والتغيير المنشود حسب رؤيته هو تحسين المستوى المعاشي للمواطن، وهذه مسؤولية الحكومة، والمواطن معاً. فالمواطن يجب أن يعمل بإخلاص والحكومة عليها أن تقدر أوضاع هذا المواطن، وتحاول أن تسد الثغرات التي تهدر طاقاته.

إن إرادة التغيير والتطوير والتحديث، والاصلاح، هي المهمة الأولى التي أولاها السيد الرئيس بشار الأسد منذ اليوم الأول لتسلمه زمام القيادة. فلا يمكن إحداث التطوير والاصلاح إن لم نبدأ بتغيير القوانين وتحديثها، أو تعديلها وكذلك النصوص التشريعية التي تحكمها. وهكذا

بدأت خيارات الاصلاح والتحديث من النصوص والقوانين.

والحقيقة التي لا يمكن تجاهلها، أن سورية، وخلال العامين المنصرمين من قيادة السيد الرئيس - عرفت من هذه القوانين والتشريعات والنصوص كثيرها وجريئها دون ريب، وكانت جديرة فعلاً بإحداث هذا التطور والتحديث.

لقد رسَّخت قيادة الرئيس بشار الأسد الحكيمة مبادئ ثابتة في التقدم الاقتصادي والثقافي والاجتماعي والقانوني، وأكدت أن الوطن هو الغاية، والانسان هو الهدف.. وأن القانون فوق الجميع. وبدأ عملاً دؤوباً مستمرًا لصياغة مجتمع عصري أساسه الازدهار الاقتصادي والاستقرار الاجتماعي، في ظل المؤسسات ودولة القانون.

وفي ضوء ذلك وتجسيداً لمبادئه، فقد أصدر السيد الرئيس منذ توليه الرئاسة في ٢٠٠٠/٧/١٧ العديد من القوانين والمراسيم والتشريعات التي عالجت القضايا الاقتصادية والتعليمية والمالية، والقانونية والإعلامية والثقافية من شأنها الاسهام في دفع عملية التطوير والتحديث لما فيه خير الوطن والمواطن.

وهنا وفي هذه المناسبة، لا بدمن وقفة لتعداد القوانين والتشريعات، والمراسيم التي صدرت عن السيد الرئيس بشار الأسد خلال هذين العامين، مع ذكرها بالأرقام والتواريخ وملخص عن كل منها، بادئين بتسلسل صدورها.

١ - المرسوم التشريعي رقم ٤٧ تاريخ ٢٠٠٠/٩/٥ المتضمن تصديق اتفاق التعاون القضائي والقانوني في المواد المدنية والتجارية والجزائية والأحوال الشخصية، وتسليم المجرمين، وتصفية التركات بين الجمهورية العربية السورية والإمارات العربية المتحدة.

٢ - المرسوم التشريعي رقم ٤٨ لعام ٢٠٠٠ القاضي بتصديق اتفاقية التعاون القضائي والقانوني في المواد المدنية والتجارية والجزائية والأحوال المدنية وتصفية التركات بين سورية وإيران.

٣ - المرسوم رقم ٥٢ تاريخ ٢٠٠٠/٩/١٩ المتضمن تصديق الاتفاق الملحق باتفاق التعاون القضائي الموقع بين الجمهورية العربية السورية والجمهورية التونسية.

٤ - المرسوم رقم ٥٣ تاريخ ٢٠٠٠/٩/١٩ المتضمن تصديق الاتفاق الملحق باتفاقية التعاون القضائي والقانوني الموقع بين سورية والجزائر.

٥ - قانون الإيجار رقم ٦ تاريخ ٢٠٠١/٢/١٥ الذي جاء معدلاً للقانون السابق رقم ١١١ تاريخ ١٩٥٢/٢/١١

وتضمن هذا القانون زيادة بدلات إيجار العقارات المؤجرة قبل عام ١٩٧٠ إلى خمس أضعاف، وحصر حق إنهاء العلاقة الإيجارية بالمؤجر مقابل تعويض المستأجر ٤٠٪ من قيمة العقار. كما جاء فيه أنه لا يحق لطرفي العقد الادعاء بالغبن إلا بعد مرور خمس سنوات من تاريخ نفاذ هذا القانون الجديد.

وقد استثنى هذا القانون من حق التخليه العقارات المؤجرة للوزارات والإدارات العامة.

٦ - قانون التموين الجديد رقم ٢٢ لعام ٢٠٠٠ والذي جاء معدلاً للقانون القديم رقم ١٢٣ لعام ١٩٦٠ الذي ألغيت بموجبه عقوبة حبس المخالف واستعيض عنها بالغرامة في المخالفات البسيطة. وهدف هذا القانون إلى تفصيل الجرائم وتدرج العقوبة بما ينسجم وجسامتها وإمكانية التسوية لهذه الجرائم بما يتيح تحصيل الغرامة دون إرباك للجهات القضائية بعدد كبير من الدعاوى.

٧ - القانون رقم ٢٧ لعام ٢٠٠٠ المتعلق بإحداث هيئة عامة تسمى الهيئة العامة للمستشفى المركزي بدمشق التي انتقلت اليها ملكية المشفى العمالي المركزي. ونص هذا القانون على أن تتمتع هذه الهيئة بالاستقلال المالي والإداري وترتبط بوزير الشؤون الاجتماعية والعمل.

٨ - المرسوم التشريعي رقم ٤٢٧ لعام ٢٠٠٠ المتضمن تحديد أسس وقيم الأراضي الزراعية المستملكة.

٩ - المرسوم التشريعي رقم ٥٠ لعام ٢٠٠٠ القاضي بتصديق اتفاق الملاحة البحرية التجارية بين سورية وإيران.

١٠ - المرسوم رقم ٣٩٦ لعام ٢٠٠٠ المتضمن نظام التسويات والمصالحات في المؤسسات العامة والشركات العامة والمنشآت العامة، وشروط وقواعد تسوية الدين وشروط وقواعد تقسيط الدين وشروط وقواعد المصالحات على العقود.

١١ - المرسوم التشريعي رقم ٤٢ تاريخ ٢٠٠٠/٨/٢٩ القاضي بإحداث معهد لتأهيل الأطر القضائية في وزارة العدل مقره دمشق ويتمتع بالاستقلال الإداري والشخصية الاعتبارية، ويعتبر من الجهات العامة ذات الطابع الإداري ويرتبط بوزير العدل.

ويهدف هذا المعهد إلى تأهيل قضاة الحكم والنيابة العامة الذين يتم تعيينهم بمسابقة وفق قانون السلطة القضائية وتأهيل وتدريب من يتم تعيينهم بالانتقاء لقضاة الحكم - والنيابة العامة قبل ممارستهم العمل القضائي. وكذلك تأهيل وتدريب محامي إدارة قضايا الدولة والقضاة من غير القضاء العادي. والقضاة

المرشحين من الدول العربية وكذلك الأطباء الشرعيين، وكتاب العدل، والمفتشين الكتابيين، ورؤساء الدواوين من حملة الإجازة في الحقوق. ويتولى إدارة المعهد مجلس إدارة وعميد. ويكون وزير العدل رئيسًا لهذا المجلس والعميد نائبًا له وعضوية كل من إدارة التفتيش القضائي ومدير إدارة التشريع وقاض بمرتبة مستشار.

١٢ - المرسوم التشريعي رقم ٣٥ لعام ٢٠٠٠ القاضي بتصديق الاتفاقية القضائية الموقعة بين الجمهورية العربية السورية والجمهورية اللبنانية الملحقة بالاتفاق القضائي المعقود بين الطرفين بتاريخ ١٩٥١/١/٢٥.

١٣ - المرسومان التشريعيان رقم ١٢ ورقم ٢٠ لعام ٢٠٠٠ المتضمنان تعديل بعض مواد قانون تنظيم الجامعات. وجاء هذان المرسومان ليمنحا طلبة سورية دفعًا جديدًا إلى الأمام في ظل قيادة حكيمة تبدأ من مرحلة الإعداد والتأسيس لتنتهي بجني سليم.

ويجسد إصدار هذين المرسومين أحلامًا لطالما راودت الفئات المختلفة في المؤسسات التعليمية الجامعية والمتوسطة. فالمرسوم ١٢ يعد خطوة باتجاه لا مركزية القرار وتوزيع المسؤوليات، في حين جاء المرسوم رقم ٢٠ ملبيًا رغبات الطلاب بقبول عدد معين منهم يحدده مجلس التعليم العالي في كل عام من حملة الشهادات الثانوية والصناعية والتجارية والشرعية والزراعية والبيطرية والنسوية في الكليات من الاختصاص نفسه عن طريق المفاضلة. وهذه خطوة إضافية تدفع عجلة التطور والتحديث والعصرنة قدمًا نحو الأمام، وتحقق المزيد من أحلام الطلبة عماد المستقبل، والراغبين في الحصول على مقعد دراسي جامعي في الجامعات السورية.

١٤ - المرسوم رقم ٦٠٦ لعام ٢٠٠١ القاضي بدمج الشركة العامة للرخام وأحجار الزينة والجص والشركة العامة للإسفلت بالشركة العامة للفوسفات والمناجم، وتضاف إليها مهام واختصاصات الشركتين المذكورتين. واعتبر هذا المرسوم جميع العاملين في الشركتين منقولين حكمًا إلى الشركة الجديدة.

١٥ - المرسوم رقم ٦١١ لعام ٢٠٠١ القاضي بتصديق اتفاقية التعاون الإداري المتبادل من أجل التطبيق الصحيح للتشريع الجمركي وتداول المخالفات الجمركية والبحث عنها وقمعها الموقعة بين سورية والسودان.

١٦ - المرسوم رقم ٦٩ لعام ٢٠٠١ القاضي بتصديق اتفاقية التعاون القضائي في المواد التجارية والمدنية والأحوال

الشخصية والجزائية، ونقل المحكوم عليهم، وتصفية التركات الموقعة بين سورية والكويت.

١٧ - المرسوم رقم ٧٠ لعام ٢٠٠١ القاضي بتصديق الاتفاقية العربية لنقل الأيدي العاملة في الوطن العربي التي أقرها مؤتمر العمل العربي.

١٨ - القانون رقم ٧١ لعام ٢٠٠١ الخاص بالبرنامج الوطني لمكافحة البطالة. ويقضي هذا القانون بإحداث الهيئة العامة للبرنامج الوطني لمكافحة البطالة، ومدته خمس سنوات قابلة للتجديد بقرار من رئيس مجلس الوزراء. وتتمتع هذه الهيئة بالشخصية الاعتبارية والاستقلال المالي والإداري. وترتبط بوزير الدولة لشؤون التخطيط، ومقرها دمشق ويحق لها تشكيل مكاتب عمل فرعية في المحافظات، وهدفها توفير فرص العمل وإيجاد مجالات جديدة للعمل والانتاج.

١٩ - المرسوم رقم ٥٩٩ لعام ٢٠٠١ القاضي بتصديق اتفاق التعاون السياحي الموقعة بين سورية والبحرين.

٢٠ - المرسوم التشريعي رقم ٣٠ لعام ٢٠٠١ الخاص بتعديل أحكام ترفيع قضاة الحكم والنيابة العامة الخاضعين لقانون السلطة القضائية الصادر برقم ٩٨ لعام ١٩٦١.

وكذلك قضاة مجلس الدولة، ومحامي إدارة قضايا الدولة بحيث أصبح هذا العطاء معبراً عن اهتمام السيد الرئيس البالغ برعايته للسلطة القضائية عبر النهج القويم لترسيخ سيادة القانون، واستقلال القضاء والحفاظ على كرامة الوطن والمواطن في ظل مسيرة التحديث والتطوير بقيادته الحكيمة لتبقى العدالة سائدة في ربوع وطننا الحبيب.

٢١- المرسوم رقم ٣٧ لعام ٢٠٠١ القاضي بتصديق اتفاقية التعاون القضائي والقانوني في المواد المدنية والتجارية والجزائية والأحوال الشخصية، وتسليم المجرمين وتصفية التركات بين الجمهورية العربية السورية والبحرين.



٢٢ - المرسوم رقم ٣٨ لعام ٢٠٠١ الخاص بتصديق اتفاقية تجنب الازدواج الضريبي فيما يتعلق بالضرائب على الدخل الموقعة بين سورية وبلغاريا.

٢٣ - المرسوم رقم ٥٤٧ لعام ٢٠٠١ القاضي بتعديل مرسوم إحداث المؤسسة العامة لتجارة وتصنيع الحبوب، بحيث يصبح المركز الرئيسي لهذه المؤسسة محافظة الحسكة بدلاً من دمشق لقربها من موقع إنتاج الحبوب.

٢٤ - القانون رقم ٦٥ لعام ٢٠٠١ الخاص بالأملاك البحرية واعتبارها

أموالاً، وإخضاعها للقوانين المتعلقة بالأملاك العامة.

٢٥ – المرسوم رقم ٥١ تاريخ ٢٠٠١/٩/٢٤ الخاص بالأسلحة والذخائر المعَدَّلْ بالمرسوم التشريعي رقم ٢٣ لعام ٢٠٠١.

٢٦ – المرسوم التشريعي رقم /٢٠/ لعام ٢٠٠١ القاضي بمنح بطاقة تكريم باسم بطاقة شرف لزوجات وأولاد ووالدي الشهداء والمفقودين بسبب العمليات الحربية، أو المتوفين بسبب إحدى الحالات المشابهة، وكذلك المصابين بعجز كلي بأحد الأسباب المذكورة.

٢٧ – المرسوم رقم ١٧ لعام ٢٠٠١ القاضي بتصديق اتفاقية التعاون القضائي والقانوني في المواد المدنية والتجارية والجزائية والأحوال الشخصية وتسليم المجرمين وتصفية التركات الموقعة بين سورية والسودان.

٢٨ – المرسوم التشريعي رقم ٢٥ لعام ٢٠٠١ القاضي بإعفاء مكلفي الضرائب والرسوم المالية المباشرة العائدة لأي من سنوات ٢٠٠١ وما قبل من جميع الفوائد والغرامات والجزاءات على اختلاف أنواعها إذا سددت حتى غاية ٢٠٠١/١٢/٣١.

٢٩ – المرسوم رقم ٤٧ لعام ٢٠٠١ المتضمن تصديق الاتفاقية العربية لمكافحة الارهاب الموقعة من وزراء الداخلية والعدل العرب.

٣٠ – المرسوم رقم /٤٨/ لعام /٢٠٠١/ القاضي بإعفاء المواد الطبية التي ترد إلى جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني عن طريق سورية والتي يوافق عليها رئيس مجلس الوزراء بشكل مسبق من الرسوم.

٣١ – المرسوم رقم ٣١١ لعام ٢٠٠١ القاضي بإحداث مركز تجاري عربي سوري في العراق للتعريف بالبضائع والمنتجات السورية وإجراء الدراسة التسويقية لتلك البضائع.

٣٢ – القانون رقم ١٢ تاريخ ٢٠٠١/٤/٢٧ المتعلق بحماية المبدعين والمفكرين في شتى ميادين الأدب والعلم والفنون من مختلف أشكال العبث سواء بالانتحال، أم بالتشويه أم بالطمس، أو بأي شكل من أشكال المس بهذا الانتاج وبنسبته إلى صاحب الحق فيه وهذا القانون مكون من ٤٦ مادة.

٣٣ – القانون رقم ٤٧ لعام ٢٠٠١ المتضمن تعديل المواد ٧-١٠ ١١-١٢-١٤-١٦-١٨-٢٣ من قانون قمع الغش والتدليس رقم ١٥٨ لعام ١٩٦٠.

٣٤ – المرسوم التشريعي رقم ٢٧١ لعام ٢٠٠١ القاضي بتصديق بروتوكول التعاون الصحي والدوائي الموقع بين سوريا ومصر.

٣٥ - المرسوم التشريعي رقم ٢٣ لعام ٢٠٠١ القاضي بتصديق اتفاقية العمل الدولية رقم ١٣٨ المتعلقة بالحد الأدنى لسن الاستخدام التي أقرها مؤتمر العمل الدولي.

٣٦ - المرسوم التشريعي رقم ١٦ لعام ٢٠٠١ القاضي بتصديق الاتفاقية العربية لحماية حقوق المؤلف التي وافق عليها المؤتمر الثالث لوزراء الثقافة العرب.

٣٧ - المرسوم رقم ١٥ لعام ٢٠٠١ القاضي بإعفاء الصادرات السورية من ضريبتي الإنتاج الزراعي والأرباح.

٣٨ - المرسوم رقم ١٨ لعام ٢٠٠١ القاضي بإقامة منطقة تجارة حرة بين سورية والمملكة العربية السعودية.

٣٩ - المرسوم رقم ٣٢٠ لعام ٢٠٠١ القاضي بتصديق اتفاقية إنشاء اللجنة العليا المشتركة الموقعة بين سورية والمملكة المغربية.

٤٠ - المرسوم رقم ٣٢١ لعام ٢٠٠١ القاضي بتصديق اتفاقية التعاون في مجال الصحة بين سورية وكوبا.

٤١ - القانون رقم ٣٢ تاريخ ٢٠٠١/٥/٢٢ القاضي بضم خدمات العسكريين، وتضمن هذه القانون منح العسكريين العاملين من الضباط وصف ضباط والأفراد مهلة سنة تبدأ من أول الشهر الذي يلي تاريخ صدور هذا القانون لطلب ضم المدد والخدمات.

٤٢ - القانون رقم ٤٠ لعام ٢٠٠١ القاضي بإحداث المعهد العالي لإدارة الأعمال، ويعتبر هذا المعهد متمتعاً بالشخصية الاعتبارية والاستقلال المالي والإداري مقره دمشق ويرتبط بوزير الإعلام، ويهدف للإسهام في تنمية الموارد البشرية، وتأهيل الطلاب المجازين من مختلف الإختصاصات في مجال علوم إدارة الأعمال.

٤٣ - القانون رقم ٣٩ تاريخ ٢٠٠١/٦/٧ المتضمن القواعد والأسس الخاصة بتأليف وترجمة المقررات الجامعية وإحداث مديريات للكتب والمطبوعات في وزارة التعليم العالي والجامعات تتولى عمليات طباعة المقررات والمراجع ونشرها وتوزيعها وبيعها للطلاب أو لغيرهم. كما نص القانون المذكور على أن يقوم مجلس الجامعة مع بداية كل عام دراسي بتشكيل لجنة تسمى لجنة التأليف والترجمة والنشر، مهمتها دراسة المقترحات الواردة من الكليات والمعاهد العليا المتعلقة باعتماد الكتب الجامعية، ورفع التوصية بشأنها إلى مجلس الجامعة.

٤٤ - المرسوم التشريعي رقم ٢٢ لعام ٢٠٠١ المتضمن صرف منحة قدرها ٨٥٪ من الأجر أو الراتب للعاملين في الدولة

ولأصحاب المعاشات التقاعدية ولمرة واحدة.

وكانت لهذه المبادرة الكريمة من السيد الرئيس أثرها الإيجابي والطيب على العاملين في الدولة والمتقاعدين وكذلك تركت أثراً كبيراً أيضاً على فعاليات السوق العامة والخاصة.

٤٥ - القانون رقم ٢٧ لعام ٢٠٠١ القاضي بتصديق اتفاقية التعاون في مجال الصحة والعلوم الطبية الموقعة بين سورية ورومانيا.

٤٦ - القانون رقم ٢٨ لعام ٢٠٠١ الخاص بالصيغة الجديدة لمجمع اللغة العربية في سورية.

٤٧ - المرسوم رقم ٤٣١ لعام ٢٠٠١ القاضي بالسماح لطلاب المرحلة الجامعية الأولى، وطلاب دبلوم التأهيل - التربوي في الجامعات السورية الذين استنفدوا فرص التقدم للامتحان المسموح لهم بها من داخل الجامعة أو خارجها بالتقدم للامتحانات لدورة استثنائية.

٤٨ - المرسوم التشريعي رقم ٣١ لعام ٢٠٠١ القاضي بتعديل مقدار المكافأة الشهرية التي تمنح للطلاب الأوائل في الشهادات العامة لتصبح ٢٠٠٠ ليرة سورية بدءاً من دورة عام ٢٠٠١.

٤٩ - المرسوم رقم ٤٢٣ لعام ٢٠٠١ القاضي بتصديق اتفاق التعاون في مجال الاسكان والمرافق والمجتمعات العمرانية بين سورية وجمهورية مصر العربية.

٥٠ - المرسوم رقم ٤٢٤ لعام ٢٠٠١ القاضي بتصديق اتفاق التعاون الإداري المتبادل من أجل الوقاية من المخالفات الجمركية، والبحث عنها ومكافحتها الموقع بين سورية ومصر.

٥١ - القانون رقم ٣٠ لعام ٢٠٠١ القاضي بإضافة مادة أمن الطيران إلى اتفاق النقل الجوي الموقع بين سورية وبلجيكا.

٥٢ - المرسوم التشريعي رقم ٥٠ تاريخ ٢٠٠١/٩/٢٢ القاضي بالتأكيد على حرية المطابع والمكتبات والمطبوعات على اختلاف أنواعها ومسؤولياتها في إطار القانون وتضمن هذا القانون فصولاً تتعلق بتنظيم عمل المطابع والمكتبات ودور النشر، وأصول منح الرخص للنشرات الدورية وإجراءاته، وفصولاً تتعلق بما يحظر نشره في إطار القوانين، وأصول التصحيح والرد. وفصولاً أخرى تتعلق بعرض المطبوعات وتوزيعها، وأصول الإشتراك والإعلان بواسطتها إضافة إلى فصول أخرى تتعلق بجرائم المطبوعات وأصول المحاكمات المتعلقة بها.

ويحتوي قانون المطبوعات هذا على ٦٧ مادة.

٥٣ – المرسوم رقم ٤٢ لعام ٢٠٠١ القاضي باعتبار المعلمين والمستخدمين الدائميين والوكلاء العاملين في مدارس الجولان العربي السوري المحتل قائمين على رأس عملهم حكمًا ويستفيدون من الترفيعات الدورية المحددة بالقانون ومن الزيادات في الرواتب والأجور التي صدرت للعاملين في الدولة.

٥٤ – المرسوم رقم ٤٣ لعام ٢٠٠١ القاضي بإعفاء الشركات السياحية المشتركة، والمساهمة المغفلة غير المشتركة الجديدة، والمساهمة القابضة، من رسم الطابع المترتب على عقود تأسيسها وتحويلها وعلى أسهمها.

٥٥ – القانون رقم ٥ لعام ٢٠٠١ المتضمن إلغاء السقوف الرقمية للمعاشات التقاعدية والشيخوخة أينما وجدت في القوانين والأنظمة النافذة.

٥٦ – المرسوم التشريعي رقم ١٩ لعام ٢٠٠١ المتضمن تصديق اتفاقية تجنب الازدواج الضريبي، ومنع التهرب من الضرائب بالنسبة للضرائب على الدخل الموقعة بين سورية والبحرين.

٥٧ – المرسوم التشريعي رقم ٤٤ لعام ٢٠٠١ القاضي بتصديق الاتفاق المعقود بين سورية وإيران لتنظيم النقل الجوي بين إقليميهما وما ورائهما.

٥٨ – المرسوم رقم ٩٢ لعام ٢٠٠١ القاضي بإضافة ٤٠٠ وظيفة جديدة للملاك العددي للمصرف الزراعي التعاوني، ويأتي هذا العطاء من الرئيس القائد تكريمًا للعمل المصرفي وفي إطار التوجهات الرامية لتطوير المصارف ورفدها بما تحتاجه من مؤهلات.

٥٩ – المرسوم التشريعي رقم ٥٢ لعام ٢٠٠١ الخاص بالسماح للاتحاد العربي للحديد والصلب بإنشاء مكتب إقليمي له بدمشق يتمتع بالمزايا والحصانات والإعفاءات الممنوحة للاتحادات.

٦٠ – المرسوم التشريعي رقم ٥٣ لعام ٢٠٠١ القاضي بتصديق اتفاقية التعاون الاقتصادي والفني الموقعة بين الجمهورية العربية السورية وجمهورية الصين الشعبية.



٦١ – المرسوم رقم ٤٧٥ لعام ٢٠٠١ القاضي بتصديق اتفاق تنظيم وتسهيل النقل البري للركاب والبضائع بين سورية واليمن وعبر أراضيهما «ترانزيت» الموقع بين البلدين.

٦٢ – المرسوم رقم ١٦٤ لعام ٢٠٠١ القاضي بتصديق اتفاقية التعاون بين سورية والجمهورية الإيطالية لمكافحة الجرائم المنظمة والاتجار غير المشروع بالمواد المخدرة والمؤثرات العقلية وغسل الأموال.

٦٣ - القوانين ذوات الأرقام ٢٤-٢٥-٢٦-٢٧ لعام ٢٠٠٢ القاضية بإحداث مشافي في بعض المحافظات السورية.

٦٤ - القانون رقم ٧٨ تاريخ ٢٠٠١/١٢/٣١ الخاص بتعديل قانون التأمينات الإجتماعية رقم ٩٢ لعام ١٩٥٩ الذي أجاز الإحالة على المعاش للرجال في سن ٥٥ وللنساء في سن ٥٠ سنة بعد خدمة ٢٠ سنة ومنح معاش شيخوخة ٢.٥٪ من متوسط الأجر الشهري للسنة الأخيرة وبحد أقصى قدره٧٥٪ كما أعطى أجر شهر عن كل سنة بعد خدمة ٣٠ سنة.

٦٥ - القانون ٤٢ تاريخ ٢٠٠٢/٦/١٢ المتضمن إحداث نقابة للأطباء البيطريين. من مهام هذه النقابة الارتقاء بالمهنة، ورعاية مصالح الأعضاء والمساهمة بتطوير الثروة الحيوانية.

ويحتوي هذا القانون على ٨٣ مادة.

٦٦ - القانون رقم ٣٢ لعام ٢٠٠٢ القاضي بدمج مرحلتي التعليم الابتدائي والإعدادي واعتبارهما مرحلة واحدة، وتسمى مرحلة التعليم الأساسي، وهي مجانية الزامية، ومدة الدراسة فيها تسع سنوات تنتهي بامتحان عام يمنح الناجحون فيه شهادة التعليم الأساسي.

٦٧ - القانون رقم ٣٣ لعام ٢٠٠٢ القاضي بإحداث هيئة عامة ذات طابع علمي باسم الهيئة العامة للتقانة الحيوية، تتمتع بالشخصية الاعتبارية والاستقلال المالي والإداري. وترتبط بوزير التعليم العالي مقرها دمشق ويجوز إحداث فروع لها في المحافظات. وتهدف إلى إجراء بحوث في التقانة الحيوية وتطبيقها في مجالات الزراعة والصناعة، والعناية الصحية البشرية، وتطبيق المعلوماتية من أجل تطوير المنتجات الحيوانية والنباتية وصناعتها.

٦٨ - القانون رقم ٢٤ لعام ٢٠٠٢ الذي يقضي بأن تعاد إلى مجلس مدينة حلب مهمة إنشاء وصيانة الحدائق والغابات والأحراش والمشاتل والتشجير والإشراف عليها.



٦٩ - المرسوم التشريعي رقم ١٧ لعام ٢٠٠٢ القاضي بتصديق اتفاقية تجنب الازدواج الضريبي، ومنع التهرب الضريبي من الضرائب المفروضة على الدخل الموقعة بين سورية واليمن.

٧٠ - القانون رقم ٨ لعام ٢٠٠٢ القاضي بإعفاء أصحاب الاعمال، المشتركين لدى المؤسسة العامة للتأمينات الاجتماعية من جميع الفوائد والمبالغ الإضافية، والغرامات المترتبة عليهم بسبب تأخرهم عن سداد التزاماتهم.

٧١ - القانون رقم ١٠ لعام ٢٠٠٢ القاضي بتصديق إتفاقية التعاون القضائي

في المواد المدنية والتجارية والأحوال الشخصية الموقعة بين سورية والمملكة المغربية.

٧٢ - المرسوم التشريعي رقم ٧ لعام ٢٠٠١ القاضي بإعطاء صلاحية للوزير المختص بتصديق العقود المتعلقة بالانفاق الاستثماري التي لا تتجاوز قيمتها ٥٠ مليون ليرة سورية والعقود المتعلقة بالاتفاق الجاري التي لا تتجاوز قيمتها ٢٥ مليون ليرة سورية.

٧٣ - القانون رقم ١٧ لعام ٢٠٠٢ القاضي بتصديق تعديل المادة ٦٩ من اتفاقية الرياض العربية للتعاون القضائي بين دول الجامعة العربية، بحيث يصبح نصها بالصيغة التي أقرها مجلس وزراء العدل العرب كما يلي: -

«لا تخلّ هذه الاتفاقية بالاتفاقيات الخاصة بين بعض الدول الأعضاء.. وفي حال تعارض أحكام هذه الاتفاقية مع أحكام أي اتفاقية خاصة، فتطبق الاتفاقية الأكثر تحقيقًا لتسليم المتهمين والمحكومين، وتحقيق التعاون الأمني والقضائي في المجالات الأخرى.

٧٥ - المرسوم التشريعي رقم ١٢ لعام ٢٠٠٢ القاضي بتصديق اتفاقية تشجيع الاستثمار وحمايته الموقعة بين سورية والمملكة الأردنية.

٧٦ - القانون رقم ٢٣ لعام ٢٠٠٢ الخاص بتشكيل مجلس النقد والتسليف. ويهدف هذا القانون إلى: -

١ - تنمية السوق النقدية والمالية وتنظيمها وفقًا لحاجات الاقتصاد القومي.

٢ - المحافظة على القوة الشرائية للنقد السوري.

٣ - تحقيق استقرار سعر الصرف الخارجي للنقد السوري وتأمين حرية تحويله إلى العملات الأخرى.

٤ - توسيع إمكانية استخدام الموارد والطاقات، والعمل على إنماء الدخل القومي.

٧٧ - المراسيم التشريعية ذوات الأرقام ٢٨-٢٩-٣٢-٣٤-٣٥- لعام ٢٠٠٢ القاضية بزيادة الرواتب والأجور والتعويضات العائلية وبدل الوقود للعاملين في الدولة والمتقاعدين بنسبة ٢٠٪.

٧٨ - المرسوم رقم ١٥٥ لعام ٢٠٠٢ القاضي بتعديل المادة الثانية من مرسوم إحداث المؤسسة العامة السورية للتأمين بحيث يصبح المركز الرئيسي لها في مدينة حمص بدلاً من مدينة دمشق.

٧٩ - المرسوم التشريعي رقم ٣٧ لعام ٢٠٠٢ الذي يجيز للمؤسسة العامة للاسكان إيداع أموالها باسمها لدى أيًّا من المصارف العامة السورية.

٨٠ – المرسوم التشريعي رقم ٣٦ لعام ٢٠٠٢ القاضي بتعديل مدة تقسيط أسعار المساكن الشعبية التي بنتها الدولة من أجل بيعها للمواطنين ذوي الدخل المحدود من مدة لا تتجاوز ١٥ عامًا إلى مدة لا تتجاوز ٢٥ عامًا.

٨١ – المرسوم رقم ٢٥ لعام ٢٠٠٢ المتضمن إحداث هيئة عامة علمية باسم «الجامعة الافتراضية السورية» ترتبط بوزير التعليم العالي. مقرها دمشق وتهدف للقيام بأعمال التدريب الالكتروني عن بعد من خلال استخدام أحدث الوسائل التقنية بما في ذلك توفير الصفوف الافتراضية والمكتبة الالكترونية والخدمات الطلابية الألكترونية، وذلك على أساس مناهج ذات مستوى الكتروني، والتي تقود إلى اختصاصات جامعية تخدم عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية وتلبي احتياجات الاستراتيجية الوطنية.

٨٢ – المرسوم التشريعي رقم ١٦٨ القاضي بتصديق اتفاق التعاون الثقافي الموقع بين سورية والعراق.

٨٣ – المرسوم رقم ٦٧ لعام ٢٠٠٢ المتضمن تصديق نظام الاستثمار الموحد لمرفأي اللاذقية وطرطوس.

والمزايا لهذا المرسوم، تتيح للمرفأ بأن يقدم خدماته وفق أحدث الأساليب العصرية من طاقات ومواصفات وإمكانات الأجهزة والمنشآت، بحيث تحدد وفق هذا المرسوم مسؤوليات المرفأ والناقل وحقوق وواجبات مختلف الجهات ذات العلاقة.

٨٤ – المرسوم ٦٤ لعام ٢٠٠٢ القاضي بتصديق اتفاق التعاون في مجالات التشغيل والعمل والتنمية الاجتماعية بين سورية والمغرب.

٨٥ – القانون رقم ٢٦ لعام ٢٠٠٢ القاضي بإنهاء العمل بالأحكام القانونية النافذة المتعلقة بإحداث الهيئة العليا لمشروع سد الفرات وتحديد صلاحياتها.

٨٦ – القانون رقم ٣٧ لعام ٢٠٠٢ القاضي بتصديق اتفاقية تشجيع الاستثمار وحمايته الموقعة بين سورية والمغرب.



٨٧ – القانون رقم ٣٨ لعام ٢٠٠٢ القاضي بتصديق اتفاقية حول تشجيع وحماية الاستثمارات الموقعة بين سورية وصندوق الأوبك للتنمية الدولية.

٨٩ – القانون رقم ٣٥ لعام ٢٠٠٢ الذي نص في مادته الأولى على جمع الانصبة المنتقلة للمستحقين عن الشهداء مهما بلغ عددها. وجاء في مادته الثانية على أن تسري حالات الاستشهاد اعتبارًا من ١٩٤٥/٥/٢٩.

وجاء هذا القانون معدلاً لما سبقه من قوانين.

٩٠ – القوانين ذوات الأرقام ٣-٤-٥-

٦-٧- لعام ٢٠٠٢ المتضمنة تجنب الازدواج الضريبي ومنع التهرب الضريبي بين سورية وبعض البلدان الأخرى.

٩١ - المرسوم رقم ١٠ لعام ٢٠٠٢ المتضمن الترخيص للإذاعات التجارية.

٩٢ - المرسوم رقم ٣٩ لعام ٢٠٠٢ القاضي بتصديق اتفاقية الملاحة البحرية التجارية الموقعة بين سورية والجزائر.

٩٣ - المرسوم رقم ٣٠٤ لعام ٢٠٠٢ القاضي بتصديق اتفاق التعاون السياحي الموقع بين الجمهورية العربية السورية والجمهورية الإيطالية.

٩٤ - المرسوم التشريعي رقم ٣٨ تاريخ ٢٠٠٢/٦/٢٤ القاضي بمنح عفو عام عن الجرائم المرتكبة قبل ٢٠٠٢/٦/٢٤ من قبل الأحداث الذين أتموا السابعة من العمر ولم يتموا الثامنة عشر، وذلك عن ثلث العقوبة الجنائية وعن كامل تدابير الاصلاح والرعاية في الجنح والمخالفات.

من استعراضنا لهذه القوانين والتشريعات نرى أنها شملت مناحي الحياة، الاقتصادية والاجتماعية، والثقافية والقانونية، وقد تم في عهد السيد الرئيس تنفيذ برنامج الإصلاح الاقتصادي بجوانبه المالية والاستثمارية والإدارية. كما تم إنشاء وإدارة وتشغيل البنية التحتية الأساسية لمنظومة الانترنيت وخدماتها. وهناك قوانين ومراسيم أخرى يضيق المقام هنا لذكرها. منها اعتماد مبدأ سرية المهنة المصرفية، وكذلك إحداث السوق السورية للأسهم والأوراق المالية «البورصة» وغير ذلك كثير وما أشرنا إليه هو غيض من فيض.

❖ ❖ ❖

## واقع ومكانة المرأة العربية السورية في عهد التحديث والتطوير

رغـــداء الأحمـــد (*)



اثنان وثلاثون عامًا على التصحيح المجيد وعامان انقضيا على رحيل القائد الخالد الذي رسخ قاعدة صلبة ومتينة وأساساً قوياً وتراثاً عظيماً من القيم والمبادئ التي دافع عنها وبقي متمسكًا بها حتى انتقل إلى جوار ربه، هذا إضافة إلى البنية التحتية والانجازات الكبيرة في المجالات كافة وعلى امتداد ساحة الوطن تمكننا من الانطلاق بقوة وثقة نحو المستقبل المنشود، ولأن نهج القائد الخالد كان متميزاً فإن الحفاظ عليه ليس بالأمر السهل وخاصة أننا لسنا مطالبين فقط بالحفاظ عليه وإنما بتطويره أيضاً وهو ما يحتاج إلى الكثير من العمل والجهد على المستويات كافة بهدف البناء على ما تحقق في عهده الزاهر لنعلي البنيان ونضاعف الإنجازات مصممين على تذليل الصعوبات ومواكبة العصر دونما التخلي عن ثوابتنا الوطنية والقومية التي رسخها في قلوبنا وعقولنا متمثلين في الوقت ذاته كلمته في تحويل الحزن إلى طاقة خلاقة والمصيبة إلى عمل وإنجاز.

(*) رغداء الأحمد: باحثة من سورية. رئيسة تحرير مجلة المرأة العربية.

ففي السابع عشر من تموز للعام ٢٠٠٠ تحدث السيد الرئيس بشار الأسد في خطابه التاريخي الهام بعد أدائه القسم الدستوري وبعد نيله لثقة الشعب العربي السوري داخل وخارج سورية بإجماع فريد وتفاؤل بالمستقبل الزاهر. تناول الخطاب الحضاري تحليلاً دقيقًا للمهام الوطنية التي تنتظر الجميع وإصرارًا على تطوير أساليب وآليات العمل لتحفظ الانجازات وتنميها وتُقلع في مهام جديدة تتطلبها طبيعة الحياة المستمرة وطبيعة الظروف المحيطة والتطورات الحاصلة والمتغيرة بتسارع كبير، كما أكد على المواقف المبدئية والثابتة تجاه القضايا العربية وفي مقدمتها قضية الصراع العربي الصهيوني وعدم التفريط بالأرض وصولاً للتحرير الشامل واستعادة الحقوق أو الشهادة لأن الأرض والسيادة كرامة وطنية وقومية وغير مسموح لأحد التفريط بهما.

كما أكد السيد الرئيس على العمل المؤسساتي وتطوير أداء المؤسسات فكرًا وممارسة فهو عمل جماعي مبني على الصدق والاخلاص واستغلال الوقت بحده الأقصى وتغليب المصلحة العامة على المصلحة الشخصية، يتطلب كل ذلك المزيد من التدريب والتأهيل وخاصة في مجال تقنيات العصر وفي مقدمتها علوم الحاسوب وتطوير البحث وربطه بحاجات المجتمع التنموية.

❖ موقع المرأة في خطاب السيد الرئيس:

في سورية من الصعب أن نفصل قضية المرأة عن قضية المجتمع كاملاً لأن مجمل التشريعات والرؤى السياسية انطلقت من مفهوم المواطنة، حيث الحقوق والواجبات لكل من الرجل والمرأة... ويقدر كل منهما بقيمة وحجم ما يقدم ووفق امكانياته وقدراته ومؤهلاته.

من هذا المنطلق فإن جميع الأفكار التي أوردها الخطاب تنطبق على جميع أبناء الوطن ذكورًا وإناثًا، فالتأكيد على التجديد والتحديث في الفكر والممارسة تمهيدًا لدفع عملية التطوير قدمًا إلى الأمام فهذا من شأن كل مواطن بغض النظر عن عمره أو نوع عمله.. فالعقل والاحساس والشعور بالمسؤولية والقناعة والإيمان بأهمية دور كل منا في بناء الوطن هو الناظم وهو المعيار للمواطنة الصالحة، والمرأة في المهام والأدوار التي تؤديها تمتلك القدرة والامكانية التي تسهم في تعزيز بناء الوطن وتقوية منعته عبر تقوية قدراتها وتفعيلها أسريًا ومجتمعيًا.

والقول بأهمية النقد واحترام الرأي الآخر ومبدأ الشفافية والديمقراطية مرده أن يمارس كل انسان الصدق مع ذاته ثم مع الآخرين ومن خلالهم مع الوطن، فالثقة لاتتوفر إلا من خلال الصدق والرغبة في

تجاوز السلبيات بعد الاعتراف بها وتعميق الإيجابيات. أكدت الكلمة التاريخية بكل وضوح على مكافحة الهدر والفساد، وللمرأة دور الريادة في هذا المجال حيث تبدأ من البيت الذي يحافظ على نقطة الماء وترشيد استهلاك الطاقة والحفاظ على البيئة ويراعي أصول الغذاء السليم والوقاية من الأمراض بتعزيز السلوكيات الصحية، كما يراعي عملية احترام الوقت واستثماره بالطاقة المثلى واحترام القانون وممارسته في جميع مجالات الحياة الشخصية والعامة. والمرأة في أدوارها المتعددة **الأم، الابنة**، الأخت، الزوجة هي شريكة الرجل في شتى الميادين والمجالات فعندما أكد السيد الرئيس على مشاركة المرأة وأخذ موقعها في بناء المجتمع والوطن كنصف حقيقي فإن القناعة بالامكانيات التي تمتلكها المرأة متوفرة والإيمان والقناعة في استثمارها وتفعيلها قائمة وحاجة الوطن إليها حقيقية.

من هنا فإن الواقع يتطلب توفير الظروف والمناخ المناسب ويعود التأكيد على أهمية دور المرأة إلى منطلقين:

الأول: لأنها من المجتمع تشكل قوة عددية ونوعية وأصبحت تشارك في صناعة الحياة مشاركة فعالة وتمتلك كل المقومات اللازمة لتطوير هذه المشاركة وصقلها لتؤدي الهدف وتصل إلى الغاية المرجوة.

الثاني: لأنها معنية ومسؤولة بشكل مباشر عن تنشئة وتربية الجيل (رجالاً ونساءً) وتهيئتهم للمشاركة في بناء الوطن، وليس لأحد أن ينكر مدى تأثير شخصية الأم على أطفالها في سنوات التأسيس فهي تغرس فيهم كل ما في ذاتها من خير وصدق ووفاء وتضحية وشعور عال بالمسؤولية وعمق الانتماء ...وكلما كانت على وعي وفهم وعلم وحرية وقدرة على ممارسة الديمقراطية أدركنا أن الجيل بين أيد أمينة.

لذلك فإن توفير الظروف التي تدفعها نحو الأمام وتزيل من طريقها العقبات التي لازالت تضعها بعض التقاليد والأعراف التي تشدها إلى المراوحة في الوقت الذي يتطلب واقع الحال المزيد من الانطلاق والنهوض.

❖ **الاتحاد العام النسائي:**

منظمة شعبية تأسست بموجب المرسوم التشريعي رقم (١٢١) تاريخ ١٩٦٧/٨/٢٦ وكان هذا التأسيس أحد إنجازات ثورة الثامن من آذار الذي توج نضال المرأة العربية السورية. إلا أن أهداف المنظمة لم تلق السبيل إلى تحقيق معناها إلا بعد قيام الحركة التصحيحية المباركة حيث تم التعديل بالمرسوم التشريعي رقم (٢)

بالقانون (٣٣) تاريخ ١٩٧٥/١٢/٢١ والثاني بموجب المرسوم رقم (٣) تاريخ ١٩٨٤/٢/٥ وتشكل هذه التعديلات نتيجة حتمية لتطور عمل المنظمة بما يتوافق مع المكانة اللائقة والكبيرة للمرأة العربية السورية وللدعم المستمر الذي توفر لها في عهد القائد الخالد حافظ الأسد والذي لازال مستمراً وبأشكال عديدة في مرحلة التحديث والتطوير التي يقودها قائد مسيرة الحزب والشعب السيد الرئيس بشار الأسد.

من أهداف الاتحاد:

- تنظيم طاقات المرأة وتنسيق جهودها ضمن إطار العمل الجماعي المنظم تحقيقاً لأهداف الثورة في بناء المجتمع وتعميق الوعي القومي والاشتراكي عند المرأة ورفع مستوى وعيها الفكري والقانوني والصحي والإبداعي وتنمية خبراتها ومهاراتها حتى تتمكن من المساهمة الفعالة والكاملة في الحياة السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية.

- العمل على تأمين الخدمات الكفيلة بإيجاد الطمأنينة لدى المرأة العاملة وربة البيت من خلال التوسع في شبكة دور الحضانة ورياض الأطفال والمراكز الإرشادية والتدريبية والمستوصفات الصحية والجمعيات السكنية، ومن خلال توفير فرص العمل في المشاريع الانتاجية التي تنجزها المنظمة عبر فروعها وروابطها ووحداتها.

- العمل على زيادة وعي المجتمع عموماً والمرأة بشكل خاص من أجل إزالة القيود التي تمنع تطورها والحد من العنف الواقع عليها سواء كان اقتصادياً أم اجتماعياً.

- تعزيز العلاقات مع المنظمات العربية والاقليمية والعالمية الفاعلة لدعم قضايا المرأة وتقوية قدراتها وتوجيه رؤيتها تجاه مختلف القضايا مع السعي لتطوير رؤيتها الانسانية للواقع.

- استمرار العمل لتهيئة الكادر النسائي المتمكن في شتى العلوم والمعارف والميادين من خلال صقل الامكانيات وإتاحة فرص التعليم والتدرب والممارسة.



- تعزيز روح التعاون والتنسيق بين مجموعات النساء في مواقع القرار والمسؤولية وبين منظمة الاتحاد العام النسائي.

-إيلاء المرأة الريفية الاهتمام الأكبر تقديراً للجهود التي تبذلها والأدوار العديدة والمهام والأعباء الريفية بشقيها النباتي والحيواني إلى جانب مهماتها الأسرية.

- تقوية قدرات المرأة التي تدير أعمالاً صغيرة هي بمثابة مشروعات تنموية صغيرة توفر دخلاً إضافياً للأسرة وتقوي قدرات المرأة وتمكنها من ممارسة حقوقها

وخاصة الاقتصادية التي تنعكس بدورها على حقوقها الصحية والاجتماعية.

ولأجل تحقيق هذه الأهداف فإن وسائل التنفيذ تتلخص في:

١- الاجتماعات الدورية للقيادات ومن ثم للمنتسبات .

٢- الندوات الدورية الشهرية والتي تتزامن مع المناسبات على اختلافها بحيث كثيرًا ما تصبح أسبوعية.

٣- الدورات التدريبية وعمليًا تتجاوز (٢٥٠٠٠) دورة في العام تستفيد منها أكثر من ربع مليون امرأة.

٤- الدراسات والابحاث والمسوح الميدانية التي تنفذ على جميع المستويات ومختلف الاختصاصات.

٥- مجالس أولياء الأطفال في دور الحضانة ورياض الأطفال

٦- وسائل الاعلام التابعة للمنظمة وهي:

- مجلة المرأة العربية الشهرية المتنوعة والملونة (٦٤) صفحة

- برنامج عالم الأسرة التلفزيوني أسبوعي مدته نصف ساعة

- برنامج عالم الأسرة الاذاعي أسبوعي مدته ساعة كاملة.

وانطلاقًا من التوجيهات السديدة بادر الاتحاد العام النسائي إلى وضع خططه للعمل في ضوء عمليات التحديث والتطوير تعتمد أساليب أكثر تواصلاً مع المجتمع وتلبي حاجة المجتمع والمرأة بشكل خاص في كل ما يتعلق بقضايا الأسرة.

فقد توسعت مهام الاجتماعات الدورية وأدخلت مواد مشوقة توفر الخدمة الصحية أو المهارة اليدوية أو الموهبة الأدبية أو الموسيقية وتعزز قدرة السيدات في الحي أو القرية أو المنشأة. وانتقلت المهام لتصبح أكثر ملاءمة للواقع بعد أن تتم دراسته وتحليل ظواهره والمشكلات التي ينبغي علاجها. فمثلاً حتى يمكن وضع خطة للتثقيف الصحي الغذائي تم انجاز دراسات ميدانية في المناطق التي يلاحظ فيها زيادة نسبة عوز الحديد عند النساء ووضع الخطط استنادًا لنتائج هذه الدراسات وكذلك الحال في العديد من الأمراض أو الظواهر الاجتماعية. أما الخطوات الجديدة للعمل فقد أخذت المنحى الحديث والمتطور الذي يوفر الجهد والمال والوقت وتمت جميع الخطوات اللازمة لأتمتة العمل وادخال الحاسوب في جميع المكاتب التخصصية بهدف إيجاد قاعدة معلومات وإيجاد موقع على الانترنيت الذي بات قريباً جدًا.

ازداد عدد المنتسبات للاتحاد من ٢٧٢ ألف في العام ١٩٩٩ إلى ٣٢٠ ألف عام

٢٠٠٢ ازداد عدد الوحدات النسائية من ١٤٨٢ وحدة في العام ١٩٩٩ إلى ١٦٥٢ وحدة في العام ٢٠٠٢ ازداد عدد النقاط الطبية التابعة للمنظمة ٢٥ نقطة أحدثت في العام ٢٠٠٠-٢٠٠٢ ليصبح عدد المستوصفات والنقاط الطبية التابعة للمنظمة (٤٢).

كما ازداد عدد دور الحضانة ورياض الأطفال من ٢٤٢ دار وروضة في العام ١٩٩٩ إلى ٣٥٢ في العام ٢٠٠٢ وارتفع عدد الأطفال من ٣٠ ألف إلى ٤٢ ألف ازداد عدد المراكز الانتاجية من ٨ عام ١٩٩٩ إلى ١٤ في العام ٢٠٠٢ وبالتالي عدد العاملات داخل المنشأة أو في بيوتهن من ٧٠٠ - ١٢٠٠ عاملة تم افتتاح (٧) نواد ثقافية نسائية توفر الكتاب والحوار اللازم والضروري للكثير من الموضوعات الهامة.

ازدادت الحركة المالية والاستثمارات الجزئية لعدد من المنشآت التابعة للمنظمة وينعكس ذلك على النشاط التنظيمي سواء في انعقاد المؤتمرات أو المجالس أو الاحتفالات الوطنية والقومية والاجتماعية.

أنجزت العديد من الدراسات الميدانية التي تنفذها قيادات المنظمة عبر فريق من الباحثات المختصات.

كما ازداد دور المنظمة تفاعلاً في مشروعات القرى الصحية سواء عبر دورات محو الأمية والتأهيل والتدريب المهني ودورات التثقيف الصحي والتصنيع الغذائي ودورات لإدارة المشروعات التنموية الصغيرة وتعزيز قدرة المجتمع المحلي لتطوير ذاته وتحسين أداء عناصره وأفراده ومؤسساته، وكل ذلك نتيجة لنجاح مندوبات الأحياء اللواتي تتحملن المسؤولية اليومية لإنجاز العمل وأكثريتهن من صفوف المنظمة.

كما تم إنجاز أكثر من ٨٥٪ من مراحل العمل المطلوبة في بناء مقرات دور الحضانة ورياض الأطفال ومراكز الانتاج المقررة في الخطط الخمسية للدولة وتم تعديل المخططات التنظيمية في بعض المناطق قياسًا بحجم الأرض وحاجة المنطقة وفيما يتعلق بالاهتمامات والمستجدات فقد تنامى العمل لتدريب النساء الريفيات والحضريات على ادارة المشروعات الأسرية البيئية ومنحهن القروض الصغيرة الدوارة دون فوائد وتعزيز اختيار المشروعات التي لها طابع خدمة القرية أو الحي بهدف تعزيز روح التعاون والاكتفاء الذاتي وسهولة تعويض المنتجات أو المصنوعات وهناك تطور كبير في اداء المنظمة بجانب التوعية والفعل البيئي فقد تم تشجير أكثر من ٥٠ ألف غرسة متنوعة خلال السنتين ووضع خطط لحماية صحة الأسرة من التلوث كما تطور أسلوب تنفيذ الندوات الجماهيرية فأصبحت تحدد الموضوع استنادًا لواقع

المنطقة الصحي أو الاجتماعي وفق مؤشرات واحصائيات المراكز الصحية أو الدعاوى القضائية أو الظواهر الاجتماعية حيث تتم عملية الحوار بين المرأة والمجتمع في المنطقة المستهدفة وبين المعنيين والمختصين وتوضع برامج زمنية للمتابعة والرقابة والتقييم ومثال ذلك: الاعاقة وعدد المعاقين وأعمارهم وذاتية أسرهم ثم الأسباب المباشرة عبر سبر الحالات الاجتماعية لـ زواج أقارب، وأمراض متوارثة، زواج مبكر ثم تحدد الدورات التدريبية للأمهات بغية تزويدهن بالمعلومات العلمية الصحية - التربوية وكذلك بالأساليب والسلوكيات اللازمة للتخفيف من عبء الاعاقة. كما توفر للمعاقين دورات مماثلة بدنية ونفسية.

ويستكمل الموضوع ليتم التنسيق مع الجهات المعنية لتوفير وسائل معينة وتدريبية. أما عن المستوى العام فقد تطور واقع ومشاركة المرأة خلال السنتين ويمكن ايجازها بما يلي:

١- على المستوى السياسي ومواقع اتخاذ القرار:

ازداد عدد الرفيقات عضوات اللجنة المركزية لحزب البعث العربي الاشتراكي من ٤ رفيقات في العام ١٩٨٥ من خلال المؤتمر القطري الثامن إلى (١٥) رفيقة في العام ٢٠٠٠ من خلال المؤتمر القطري التاسع إضافة إلى رفيقة عضوة في لجنة الرقابة الحزبية، ازداد عدد الرفيقات في قيادات الفروع من ١١ في العام ١٩٩٩ إلى ١٧ في العام ٢٠٠٢ وهناك (٦) فروع مثلت فيها المرأة برفيقتين، وكذلك ازداد عدد عضوات قيادات الشعب بنسبة ١٥٪، نسبة المرأة في مجلس الشعب ١٠,٤٪ حتى الآن (٢٦) عضوة مجلس الشعب، لاتزال نسبة مشاركة المرأة في السلطة التنفيذية ٦,٢٪ من خلال وزيرتين.

- كما ازداد عدد النساء في منصب معاون وزير من (١) عام ١٩٩٩ إلى (٣) عام ٢٠٠٢ وهناك (٢١) مديرة عام و (٢٧) معاون مدير عام و (٤٧) مدير فرعي اضافة إلى (٩٣) رئيسة دائرة و(٤) معاون رئيس قسم و (٢١) رئيس شعبة.



نسبة القاضيات ٩٪ من عدد القضاة و ١٤,٥٪ من مجموع محامي الدولة ١٩٪ من مجموع محامين.

❖ في مجال التشريعات والقوانين:

شهدت السنتين المنصرمتين انجازات كبيرة جداً في المجال القانوني حيث صدر أكثر من ١٦٠ قانون في مجملها تستهدف عملية تطوير الوطن والتخفيف من الأعباء والمعاملات وفتح الأبواب مع دول عربية شقيقة وأجنبية صديقة عبر سلسلة من الاتفاقيات إضافة إلى القوانين التي ناضلت المنظمة سنوات طويلة لاصدارها

مثل قانون التأمينات الاجتماعية رقم ٧٨ تاريخ ٢٠٠١/١٢/٣١ الذي يعتبر انجازًا اجتماعيًا كبيرًا ويشكل قفزة نوعية وخطوة مدروسة واثقة تستهدف تعزيز وتوطيد أسس العدالة والاستقرار اللتين تنعم بهما سورية. لقد حقق هذا القانون مساحة كبيرة من المساواة والعدل والانصاف لأبناء الوطن عمومًا وللمرأة بشكل خاص وذلك على صعيدين:

الأول: انطلاقًا من كونها مواطنة تفيد وتستفيد من كل تطور يستهدف الوطن والمواطن في مختلف الميادين وعبر جميع الأدوار والمهام التي تنهض بها.

الثاني: ردم الفجوة التي كانت قائمة في ظل القانون القديم والتي تمت معالجتها عبر البنود التالية بحيث ضمنت الكثير من الحقوق التي كانت مغيبة:

١- تشميل الفئات المستثناة من قانون العاملين الأساسي بأحكام قانون التأمينات الاجتماعية وهنا تحتل المرأة موقعًا ليس صغيرًا كونها تعمل في منشآت وأعمال متنوعة داخل مؤسسات رسمية وغير رسمية وبذلك أصبحت حقوقها مقوننة.

٢- تشميل الوكلاء بالاشتراك في كافة الصناديق التأمينية وهذا يعني أن أبوابًا عريضة قد افتتحت لصالح المواطن عمومًا ولصالح المرأة بشكل خاص فهي العاملة بالمهام الريفية بشقيها النباتي والحيواني، وهي العاملة في مجال المهارات والصناعات التقليدية والأعباء المنزلية التي تحتاج إلى توصيف وتقدير وبالتالي تستلزم التحضير والتشجيع على تنمية الحس التأميني عندها ضمانًا لحياة كريمة.

٣- إضافة نص يقضي بمنح أصحاب المعاشات التقاعدية والمستحقين عنهم التعويض العائلي وفي هذا ضمان لحق المرأة العاملة والفتاة المستفيدة والمستحقة للمعاش التقاعدي وكذلك الأم، وبذلك تطمئن المرأة على حياتها بقوة القانون.

٤- تستحق المرأة معاش الشيخوخة عند بلوغها سن الخمسين إذا كان عندها عشرون سنة خدمة وفي هذا المجال تقدير واضح لحقوق المرأة الصحية والوظيفية الانجابية التي تنهض بها في تنشئة الجيل وتربيته وتحمل العبء الأكبر والأصعب من حمل وولادة وارضاع طبيعي وتربية قومية تؤسس لبناء الانسان السليم المعافى من الأمراض.

٥- اضافة نص جديد يقضي بحق الأرملة المؤمن عليها الجمع بين معاشها وبين المعاش المستحق لها عن زوجها المتوفى دون تحديد سقف معين.

٦- تعديل المادة ١٢٢ بحيث أصبح يمكن للمرأة المؤمن عليها أن تورث راتبها التقاعدي لأولادها وزوجها وفي حال عدم

وجودهم ينقل هذا الحق لبقية الورثة الشرعيين.

وبصدور القانون المتضمن زيادة التعويض العائلي للزوجة والأولاد وبصدور القانون المتضمن من اجازة الأمومة وفي جميع هذه الانجازات القانونية ذات الأبعاد الانسانية الاجتماعية تدعيم وتقوية قدرات المجتمع عمومًا والمرأة بشكل خاص واحترام المهام والأدوار التي تؤديها إضافة للرؤية المتطورة التي تنتهج عملية المواءمة بين النمو السكاني وبين النمو الاقتصادي والاجتماعي.

هذا بالإضافة إلى المرسومين التشريعيين اللذين حملا الفرحة والبهجة لأبناء الشعب بزيادة الدخل وتحسين مستوى المعيشة. والقوانين الاقتصادية التي تستهدف تنشيط الاقتصاد الوطني والسياحة والتصدير والأعمال المصرفية وفي مجملها تساهم في دفع مسيرة التطور التي تنعكس على جميع ابناء الوطن.

وكان لصدور المرسوم رقم ٧١ تاريخ ٢٠٠١/١٢/١ بتشكيل الهيئة الوطنية لمكافحة البطالة أكبر الأثر في توفير المناخ الملائم لايجاد ودعم المشاريع التنموية الخاصة بدعم مباشر من الدولة على شكل قروض ميسرة وتخصيص الأسرة والمرأة بقروض تساهم في تدعيم قدرات المرأة وتمكينها من التمكن بموارد جهدها وبالتالي تمكينها من الارتقاء والتقدم والحصول على التدريب اللازم وادرة المشاريع وذلك بضمان منظمتها الشعبية التي تنهض بمهامها وهي الاتحاد العام النسائي.

- المرأة العربية السورية والتعليم:

انطلاقًا من أهمية وضرورة التعليم واعتباره نقطة الانطلاق في بناء الشخصية فقد تبنت سورية الزامية التعليم ومجانيته وتوفير الخدمات الداعمة كالمدن الجامعية والمعاهد والتوسع في عدد المدارس الفنية والزراعية والصناعية إضافة للتعليم العادي مما أتاح للمرأة المناخ الملائم وهي اليوم تشكل نسبة قدرها ٤٧٪ من مجموع طلاب المرحلة الابتدائية وفي العام ٢٠٠٢ صدر القانون الذي أصبح فيه التعليم الإلزامي حتى نهاية المرحلة الاعدادية.

وفي المرحلة الاعدادية تبلغ النسبة ٤٦٪ وتبلغ نسبة الخريجات ٤٩٪ أما في المرحلة الثانوية فقد ازدادت النسبة من ٣٥.٤٪ عام ١٩٨٣ إلى ٤٨٪ عام ٢٠٠٢.

وفي المعاهد المتوسطة ارتفعت النسبة من ٣٣٪ في العام ١٩٨٥ إلى ٤٥.٢٪ في العام ٢٠٠٢.

أما في مرحلة التعليم الجامعي فقد ارتفعت النسبة من ٣١.١١٪ ١٩٨٦ إلى ٤٥٪ في العام ٢٠٠٢ ونسبة الخريجات

حوالي ٤٦.٧٠٪ أما نسبة الاناث في الهيئة التعليمية فقد كانت ١٨.٨٩٪ في العام الدراسي ٩٤-٩٥ وأصبحت الآن حوالي ٢٥٪ وبذلك فهي لاتزال متواضعة أمام حجم الاناث في التعليم الجامعي.

وفي مجال محو الأمية ونتيجة للجهود الوطنية الكبيرة والتي تتمثل بجهود المؤسسات الرسمية والمنظمات الشعبية وفي مقدمتها الاتحاد العام النسائي فقد انخفضت من ٢٠٪ في العام ١٩٩٤ إلى ١٤.٦٪ في العام ٢٠٠٢.

**نظرة اجمالية لواقع المرأة التعليمي في سورية:**

١- يلاحظ الارتفاع في معدلات التحاق الاناث بالتعليم في كافة المراحل.

٢- التقارب الشديد في نسب الاناث مع الذكور في جميع المراحل (الابتدائي - الاعدادي الثانوي).

٣- عدم الاختلاف الكبير بين الحضر والريف فيما يخص مسألة تعليم الاناث.

٤- الارتفاع في نسبة الخريجات من المعاهد المتوسطة مقارنة بين الخريجين.

٥- الفرق لايزال شاسعاً بين عدد النساء وعدد الرجال في الهيئة التعليمية.

**باختصار نقول:**

إن المرأة العربية السورية قد قطعت أشواطاً بعيدة في مجال تعليمها رغم وجود فجوة مهما كانت بسيطة وضئيلة ولكن لابد من الاستمرار بتعزيز الامكانيات الدافعة للاستمرار بالتعليم بكل ميادينه وأشكاله.

وفي موضوع نسبة الأمية لازالت قائمة وغالبيتها من النساء فالأمر يعود للموروث الاجتماعي في بعض المناطق الذي يحدد القسط التعليمي اضافة للواقع الاقتصادي والحاجة إلى العمل.

**المرأة والعمل:**

الانسان هو غاية التنمية وهو هدفها وصانعها، ولما كانت المرأة تمثل نصف المجتمع فإن أي تطور وتقدم مرهون بتطور وتمكين المرأة وتنمية قدراتها من مختلف الجوانب.



ارتفعت نسبة مشاركة الاناث في قوة العمل من ٨.٥٪ عام ١٩٨١ إلى ٢٣٪ عام ٢٠٠٢ نتيجة لسياسة الدولة بزيادة ادماج المرأة في التنمية. وتدني النسبة حتى الآن يعود إلى:

١- زيادة نسبة النساء الملتحقات في جميع مراحل التعليم.

٢- الزواج سواء المبكر أو العادي والانجاب المبكر والمتكرر.

٣- قلة فرص العمل بشكل عام للمرأة والرجل.

يتركز نشاط المرأة في العمل الزراعي بنسبة ٥٧,٨٪ وتبلغ نسبة العاملات في النظام الحكومي ٣٨٪ نظرًا لتوجه المرأة للعمل الوظيفي الذي يناسبها أكثر بعد تحسين مستواها التعليمي ونتيجة واضحة للسياسة التي تنتهجها الدولة في تشجيع عمل المرأة.

تبلغ نسبة العمل السنوي في القطاع الخاص المنظم ٢٣,٤٪ مرد ذلك اعتماد سياسة التعددية الاقتصادية التي أدت إلى قيام بعض النشاطات. كما انخفضت نسبة مشاركة المرأة في القطاع غير المنظم من ٥٦,٦٪ إلى ٣٧,٣٥٪ نظرًا لاحلال الذكور وعدم تناسب بعض الأعمال مع الظروف الأسرية والاجتماعية للمرأة.

خلاصة القول:

بالرغم من ازدياد مشاركة المرأة في قوة العمل وبالرغم من وجود القوانين والتشريعات التي ساوت بين المرأة والرجل في الحقوق وتكافؤ الفرص في الحياة الاقتصادية وبالرغم من تقديم بعض الخدمات والتسهيلات التي تشجع المرأة على الخروج من المنزل للعمل وكذلك تأييد موقفها من الأهل ومن الزوج وكذلك وجود التشريعات التي تراعي ظروف وطبيعة المرأة وتحترم دورها الانجابي وعلى الرغم من فتح المجال لمشاركتها ورفع قدراتها وكفاءتها إلا أنه لاتزال مشاركتها في قوة العمل ضعيفة وتحتاج إلى المزيد من تقوية القدرات وتلقي التدريب التقني المتطور. ومع ذلك الواقع يجيب بدقة أكثر أن فرص العمل المتاحة غير كافية لأن الحجم على طلب العمل كبير من الجنسين، وهو ما دفع لايجاد اساليب عديدة في مقدمتها المشروع الوطني لمكافحة البطالة وتشجيع الأعمال الخيرة والمشاريع الفردية والجماعية والتعاونيات وهو ما دعى إلى انهاء الخدمات فور بلوغ السن حتى يتاح للحكومة تشغيل أكبر عدد من الشباب رجالاً ونساءً.

**نظرة واقعية لمستقبل المرأة والمشاركة بالنشاط الاقتصادي والتنمية:**

يتوقع أن ترتفع مشاركة المرأة في قوة العمل في البدائل السكانية الثلاث حيث يصل عدد السكان حسب البديل المتوسط إلى (٢٧,٦٩٥٣) ألف نسمة أي بمعدل نمو سنوي ٢,١٪ من ١٨,٥٪ إلى ٣٢٪ في الأعوام المقبلة ٢٠٠٠-٢٠٢٥ نتيجة ارتفاع المستوى التعليمي للمرأة وانخفاض الأمية وزيادة الاقبال على العمل وهذا يتطلب تأمين فرص عمل مناسبة للمرأة لزيادة مشاركتها في عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وكلما ارتفع عدد السكان سترتفع الأعداد لفرص العمل.

ومن هذا المنطلق تتبنى سورية عملية التوعية في مسألة التخطيط السكاني

والإنجابي بما يتوافق وينسجم مع زيادة النمو الاقتصادي وتلعب المرأة دور المحور في هذا الاتجاه لكل ذلك وضعت منظمة الاتحاد النسائي خطط عمل سنوية وخمسية تهدف إلى:

١ - التركيز على أهمية استمرار المرأة في التعليم والحصول على التدريب المتطور.

٢ - الابتعاد عن الزواج المبكر مع الإشارة إلى أن سن الزواج في القانون ١٨ للفتى/١٧ للفتاة.

٣ - ضرورة الاختيار الزوجي العقلاني والمتكافئ اجتماعيًا وتعليميًا والابتعاد عن زواج الأقارب.

٤ - القرار الإنجابي المشترك ورعاية الحامل والولادة - والرضاع الطبيعي والتزود باللقاحات اللازمة والمطلوبة، وتباعد الحمول في حده الأدنى ٣ سنوات بين ولد وآخر.

٥ - التربية والتنشئة الأسرية السليمة في بيئة متحابة متفاهمة بعيدة عن التفكك أو الاهمال أو التسيب.

٦ - مع الإشارة إلى أن السن المثالي للانجاب السليم هو بين ٢٠ - ٣٥ سنة.

٧ - أهمية عمل المرأة لصقل شخصيتها وتحررها الاقتصادي والاجتماعي.

هكذا نفهم الموضوع السكاني وهكذا نفهم تنظيم الاسرة ونتعامل معه. فمن الصعب أن تتوفر لكل مواطن فرصة العمل والسكن والمدرسة والمشفى والماء والغذاء ومجمل الخدمات إذا استمر نبع الانجاب على ما هو عليه واستمرت الخدمات الصحية في حالة التطور والارتقاء وارتفع معدل الأعمار وانخفضت معدلات الوفيات ففي كل ذلك امتصاص للتنمية مهما كانت متزايدة فكيف إذا كان هذا المجتمع يواجه تحديات ليست عادية ويتحمل مسؤوليات قومية وإنسانية تتعاظم؟

- الطفل والمرأة والحقوق الصحية:

ترتكز السياسة الصحية في سورية على:

١ - التمتع بأعلى مستوى من الصحة هو أحد الحقوق الأساسية لكل مواطن دون تمييز.

٢ - تحقيق الصحة للجميع هو الهدف الاجتماعي للدولة وفي تحقيقه يتشكل الجزء الأكبر من التنمية الشاملة.

٣ - يتم توفير الخدمات الصحية بأشكالها المختلفة لجميع المواطنين من قبل المؤسسات الصحية في القطاعين العام والخاص وبمشاركة العديد من الجهات الرسمية والشعبية وفي مقدمتها الاتحاد النسائي المنظمة التي تعمل لتوعية المجتمع عمومًا والاسرة والمرأة بشكل خاص وتعزيز

الوقاية وتوفير بعض الخدمات المتعلقة بالصحة الإنجابية.

- المراكز الصحية:

- أحدث خلال العامين المنصرمين ٧٦ مركزًا صحيًا وهناك (٤٥) مركزًا قيد الانجاز حتى نهاية العام ٢٠٠٢ وبذلك يصبح العدد في سورية (١٦٦٠) مركزًا.

- المشافي يبلغ عددها (٥٧) مشفى وهناك (١٨) مشفى سعة ١٢٠ سرير قيد التجهيز الطبي ويتم العمل لانجاز (١٣) مشفى بسعة ٣٠ - ٦٠ سرير جميعها في مناطق ريفية. كما تم إحداث مركز الباسل لأمراض وجراحة القلب في دمشق وحاليًا في حلب ومجمع الأسد الطبي في حماة.

- وفيات الأمومة:

- كانت وفيات الأمومة في العام ١٩٩٩ (١٠٧) حالة وفاة لكل ١٠٠ ألف ولادة وفي العام ٢٠٠٢ أصبحت (٦١) حالة لكل ١٠٠ ألف ولادة.

- وفيات الرضع:

- كانت ٢٤ وفية لكل ١٠٠٠ مولود عام (١٩٩٩) وفي العام ٢٠٠٢ انخفضت النسبة إلى (١٨) لكل ألف مولود.

وقد استطاعت اللقاحات البالغ عددها (١١) لقاح في العام ٢٠٠٢ أن تؤدي إلى نسبة تغطية تصل ٩٧٪ وارتفع معدل وسطي الأعمار إلى ٧٠ سنة.

المرأة في القطاع الإداري

على الرغم من عدم كفاية فرص العمل لاستيعاب الراغبات بالعمل وخاصة الاداري الوظيفي إلا أن زيادة ملحوظة تبدو في جميع دوائر الدولة العامة والخاصة والمشتركة. كما يلاحظ الازدياد المستمر في عدد النساء اللواتي يتسلمن مهام إدارية على مستوى مدير عام - معاون مدير عام - رئيسة دائرة «مديرة مصرف، مديرة موازنة - رئيسة الهيئة المركزية للرقابة المالية - مديرة بيئه - مديرة صندوق توفير البريد - مديرة فارمكس - مديرة مراكز للبريد - مديرة مراكز ثقافية - مديرة مشفى - رئيسات أقسام -

ومع ذلك يبقى هناك مهام لاتزال بعيدة عن المرأة وخاصة في وسائل الاعلام ومن الجديد أيضًا وبفضل توجيه السيد الرئيس بشار الأسد والجهد الوطني الذي تبذله عقيلة السيد الرئيس في مجال المعلوماتية والحرص الشديد على نشرها واتاحة الفرصة لكل مواطن امكانية الحصول على التدريب ودخول عالم الانترنيت فإن انطلاقة واضحة بدأت في هذا المجال لاتزال في حالة تصاعد وخير مثال على هذه النهضة ماتوفره من دروس (صندوق تنمية الريف السوري)من اقامة مراكز ثابته للتدريب في مجموعة القرى المشمولة بمشروع القرى الصحية أو قرى فردوس

اضافة إلى ايجاد مراكز تدريب متنقلة تتيح هذه الفرصة لكل أبناء الريف إضافة لتقوية القدرات الوطنية للأفراد والجماعات عبر اسلوب الاعتماد على الذات وتفعيل الامكانيات الذاتية والمحلية مع توفير الدعم القابل للرد واعادة الاستثمار وهكذا..

وضمن هذا المجال عمدت منظمة الاتحاد العام النسائي وخلال السنتين إلى اقتناء الأجهزة واجراء الدورات التدريبية وأتمتت العمل الاتحادي بكل أقنيته، ورفع مستوى الأداء الاداري للعاملات والعاملين في الاتحاد والتوسع في عمليات تدريب النساء الريفيات على العديد من المشاريع المنتجة التي تتلاءم مع البيئة المحلية ومع واقع المرأة وواقع الأسرة.



**المرأة العربية السورية في المنظمات الشعبية والنقابات المهنية:**

لقد أولى الحزب القائد للدولة والمجتمع أهمية كبيرة لدور المنظمات الشعبية والنقابات المهنية على اعتبارهما أداة يرتكز عليها في بناء نظام الديمقراطية الشعبية واعتبرها إحدى أدوات التغيير السياسي والاجتماعي والاقتصادي في المجتمع فارتبطت بالتنمية الاجتماعية والاقتصادية والدفاعية وكانت ضرورة ملحة وحتمية لتلبية احتياجات الجماهير على المستويين الوطني والقومي.

أ ـ الاتحاد العام للعمال: يشكل التنظيم العمالي اليوم قوة بشرية وانتاجية ليست عادية على الرغم من احتياجها المستمر لتطوير الأداء وتحسين مواصفات الانتاج حتى تستطيع مواكبة التطورات العالمية نحو عصر أضحت القوة الاقتصادية هي الأكثر فعالية.

والمرأة العاملة تعمل جنباً إلى جنب مع العامل في جميع مواقع العمل وأنواعه ومستوياته وتشكل حوالي ٣٣٪ من قوة العمل في الصناعات التحويلية والصناعات النسيجية والخدمية ومع ذلك فهي لاتمثل على مستوى الإدارات واللجان النقابية وصولاً للاتحاد العام إلا بحدود ضيقة. وهناك تنظيم توأم للاتحاد النسائي هو لجان المرأة العاملة التي توفر الكثير من أجل تطوير الأداء وتحسينه اضافة لتوفير الخدمات اللازمة ومنها على سبيل المثال رياض الأطفال ومراكز الخدمات الصحية والنوادي الرياضية وصناديق التأمين إضافة للندوات والمحاضرات الثقافية والصحية والتربوية، والمشاركة في جميع المناسبات.

**. الاتحاد العام للفلاحين:**

هو الاطار التنظيمي لجماهير الفلاحين لتطوير القطاع الزراعي وتحقيق الأمن الغذائي وتوفير المواد الأولية اللازمة لتحسين الصناعات الزراعية وتطوير عمل

الجمعيات والتعاونيات ورفع مستوى الوعي القومي لدى الفلاح وهو العنصر البشري الفاعل والمحرض والمؤثر بالاقتصاد السوري.

ومما لاشك فيه أن نسبة تتجاوز ٦٠٪ من اليد العاملة في الزراعة هي من النساء وتكاد تصل في بعض المحاصيل إلى ٨٠٪ ومع ذلك فنحن لانجد هذه النسبة في التمثيل النقابي في الجمعيات والروابط الفلاحية، على الرغم من الظاهرة الايجابية التي سجلت في العام ٢٠٠١ بانتخاب احدى الرفيقات عضوة في المكتب التنفيذي للاتحاد العام للفلاحين ولأول مرة.

**. اتحاد شبيبة الثورة:** أحدثت منظمة تربوية سياسية بموجب المرسوم التشريعي (٢٢) تاريخ ١٣/١/١٩٧٠ من أهدافها العمل على خلق شباب عقائدي مدافع عن الحقوق، محصن ضد جميع التحديات قادر على تعزيز قدرات الشباب مجسداً لروح التعاون.

ومن الجدير ذكره أن نسبة الرفيقات الشبيبيات تقترب كثيراً من نسبة الرفاق وخاصة في المرحلتين الاعدادية والثانوية ٤٥٪ أما في وحدات الأحياء فالنسبة لاتتجاوز ٢٥٪ ومع ذلك فإن نسبة الرفيقات في قيادات المنظمة تتراوح بين ١٠ ـ ١٥٪ وهي عنصر فعال في جميع اللجان الاستشارية والمهام الاتحادية والدورات التي تعزز القدرات والامكانيات.

وكذلك الحال في مجال الاتحاد الوطني لطلبة سورية، التنظيم الشبابي الطلابي الذي يهدف إلى تنظيم طاقات الطلبة وتوفير المناخات الملائمة واللازمة لتطويرها، والسعي الحثيث لقيام منظمة طلابية عربية تتمكن من متابعة التصدي للامبريالية والصهيونية والعمل على تطبيق وتحقيق ديمقراطية التعليم وتشجيع البحث العلمي.

**. نقابة المعلمين: تضم جماهير المعلمين.** تأسست بالمرسوم التشريعي رقم (٨٢) للعام ١٩٧٠ ومن أهم أهدافها النضال من أجل تحقيق المجتمع العربي الاشتراكي وتوحيد نضال المعلمين وتطوير العمل التربوي اضافة إلى رفع مستوى التربية والتعليم وحماية مصالح المعلم عبر ربط المدرسة بالمجتمع والبيئة وتوسيع وتعزيز التعليم الفني والمهني لسد احتياجات التنمية. تبلغ نسبة المنتسبات للنقابة ٥٣.٩٪.

وتحتل المرأة النسبة التي تتجاوز ٧٠٪ في مرحلة التعليم الإلزامي كمعلمة وكذلك في التدريس الفني بكل أشكاله. وتقوم بدور ريادي في جميع الأنشطة الصيفية والمعسكرات ومسابقات الرواد عن طريق منظمة طلائع البعث التي ترعى وتهتم

بشؤون التلاميذ من سن ٦ ـ ١٢ سنة ومن الجدير ذكره أن نسبة تواجد الزميلات في مكاتب النقابة والشعب النقابية تمثل حوالي ٢٠٪ وقد استطاعت زميلتان أن تحصلا على ثقة الزملاء والزميلات وأن تصلا إلى المكتب التنفيذي لنقابة المعلمين في العام ٢٠٠٢.

**. الاتحاد العام للجمعيات الحرفية:**

لقد دعا الحزب إلى الاهتمام بفئة صغار الكسبة وربط مصلحتها مع مصلحة الثورة فكان أن صدر المرسوم التشريعي رقم (٢٥٠) للعام ١٩٦٩ الذي يعتبر الأول من نوعه على مستوى الوطن العربي ومن أهدافه: المساهمة الفعالة في بناء المجتمع من خلال تنظيم الانتاج وإحياء الصناعات التقليدية ورعاية مصالح الحرفيين ورفع مستوى الوعي القومي وتشجيع قيام تعاونيات صغيرة.

وقد مثلت الأخوات الحرفيات في الاتحاد العام بوجود رفيقتين في المكتب التنفيذي في الانتخابات للعام ٢٠٠١.

وهناك الاتحاد العام الرياضي الذي يوفر الامكانيات اللازمة لخلق جيل رياضي عبر المنشآت الرياضية المنتشرة وعبر التربية الرياضية وكذلك استطاعت الفتاة الرياضية أن تحدث بصمة ايجابية في تاريخ الرياضة السورية سواء من خلال الممثلات في القيادات الرياضية أم من خلال المبدعات في السباحة والعاب القوى وكرات اليد والسلة..

وعلى مستوى النقابات المهنية فهي عديدة (الأطباء إطباء الأسنان الصيادلة المحامون ـ المهندسون ـ المهندسون الزراعيون ـ المقاولون وغيرهم).

وجميع هذه المنظمات والنقابات تعتمد اسلوب الديمقراطية من حيث تنظيم دورات انتخابية تتراوح بين ٢ ـ ٥ سنوات حسب طبيعة النقابة أو المنظمة الشعبية. وجميعها تمارس دورًا وطنيًا رائدًا في تنظيم المجتمع ونقل متطلبات وحاجات القاعدة الشعبية إلى القيادات الأعلى والمشاركة الفعالة في الخطط الوطنية عبر التخطيط والتنفيذ والتقويم والمتابعة. ولكننا حتى الآن لم نلحظ أن نسبة تمثيل المرأة في قيادات هذه النقابات تنسجم وتتلاءم مع نسبة وجودها في الهيئات العامة لهذه النقابات..

**أخيرًا لا بد من القول:**

مهام كثيرة وأعباء تنتظر المرأة في العالم عمومًا والوطن العربي لأسباب منها:

١ ـ المتغيرات الدولية وغزو العولمة لدول العالم النامي سواء كانت اقتصادية أم فكرية أم علمية.

٢ ـ الحلقة الأضعف في حلقات الاقتصاد الوطني والقومي هي المرأة لذلك

سيكون انعكاس العولمة عليها أوسع وأبشع إذا لم تستطع أن تتزود بكل علوم العصر وأن تتهيأ لها الظروف الداعمة والمعززة لقدراتها.

٣ ـ التحدي الشرس الذي يواجه الشخصية العربية بمكوناتها الروحية وقيمها الحضارية ومحاولات التشويه التي تحاول الصهيونية بدعم من الولايات المتحدة الامريكية نشرها وتزويرها.

٤ ـ وجود بعض القيود الضاغطة على عملية النهوض التي يتطلبها واقع المرأة، والتي تستلزم زيادة وعي المجتمع بمختلف جوانبه (المناهج التعليمية ـ العلاقات الاجتماعية) والأدوار المطلوبة لكل من الرجل والمرأة ـ وسائل الاعلام المقروء والمسموع والمرئي) إضافة إلى الاستمرار بتطوير وتعديل التشريعات الناظمة لحقوق المرأة في مختلف الجوانب وعلى جميع الصعد.

وانطلاقًا من أهمية الدور الذي تؤديه المرأة كمواطنة وكمنشئة ومربية وكمساهمة في عملية التنمية الشاملة على اعتبارها البيئة الأولى للإنسان القادر على غرس القيم والسلوكيات السليمة كان لا بد من متابعة العمل لإزالة الحيف الواقع عليها سواء بحرمانها من بعض الحقوق الشخصية أو بأمانها الاقتصادي أو الاجتماعي، ولا بد من اتخاذ جميع التدابير التي توفر امكانية وصولها على حقها في الترقي واستلام المناصب ومختلف مواقع القرار بحسب قدرتها وإمكانياتها وبالمقابل فإن ما هو مطلوب من المرأة كبير جدًا حتى تكون عند الثقة الممنوحة لها من القيادة السياسية وأن تكون جديرة بممارسة حقوق كثيرة أعطيت لها بدءًا من دستور البلاد إلى مختلف القوانين الوضعية، وحتى تستطيع أن تطالب بالمزيد عليها أن تمارس وتقلع وتنجح ثم تتفوق لتحصل على الأفضل..

فما تنعم به المرأة في سورية في ظل المسيرة الظافرة للسيد الرئيس بشار الأسد يشكل قوة دافعة للمزيد من الخطوات الواثقة والجريئة.

❖ ❖ ❖

# الرئيس بشار الأسد وقضية التطوير والتحديث



د. عبد الله أبو هيف (*)

تستند عزيمة التطوير والتحديث في عهد الرئيس بشار الأسد إلى أساسها المكين وإنجازها الواضح في عهدة القائد الخالد حافظ الأسد، فقال الرئيس بشار الأسد بصريح العبارة:

«سورية عاشت وضع انغلاق في الستينات وتحديداً بين عامي ١٩٦٦ و ١٩٧٠م، وعندما جاء الرئيس حافظ الأسد قام بالمرحلة الأولى من التطوير ومن الانفتاح، إذا صحت التسمية. ثم كانت المرحلة الثانية في عام ١٩٩٠م تحديداً، وأنا الآن أقوم بالمرحلة الثالثة التي تتوافق مع متطلبات العصر[1]».

(*) د. عبد الله أبو هيف: باحث من سورية، عضو اتحاد الكتاب العرب.

وتبدت هذه العزيمة قوية في خطاب القسم (١٧/٧/٢٠٠٠م)، فأطلق الرئيس بشار الأسد منهجه للتطوير، و «تضمن هذا المنهج - بتعبيره - تفسيرًا لمصطلحات مختلفة منها الديمقراطية وما يرتبط بها كالشفافية وغيرها من المصطلحات[٢]».

نظر الرئيس بشار الأسد إلى عمليات التطوير والتحديث في صلب إنتاج المجتمع، على أنها تفعيل للتنمية الشاملة والمستقلة بمشاركة القوى الاجتماعية الفعالة، وعلى أنها عمل وطني وشعبي قوامهُ مسؤولية المواطنين في بناء وطنهم، بما هي مواطنة حقة:

«في خطاب القسم طُرحت مشاركة الجميع في عملية التطوير التي تقوم بها. قلت: إن عملية التطوير لا تستطيع أن تقوم بها الدولة فقط، وتأملنا من النشاطات المختلفة في سورية، الفعاليات المختلفة في سورية أن تقوم بدعم عملية التطوير[٣]».

وحرص الرئيس بشار الأسد على انطلاقة التطوير والتحديث من استراتيجية واضحة هي استمرار للاستراتيجية العامة التي وضعها القائد الخالد حافظ الأسد لتلبي «الحاجات المختلفة للتطوير المنشودة شملت مختلف القطاعات[٤]»:

«نحن بحاجة الآن إلى استراتيجيات اقتصادية، اجتماعية، علمية وغير ذلك تخدم التنمية والصمود في آن واحد. وهي ليست موجودة كوصفات جاهزة بل إنها بحاجة إلى دراسات معمقة نستخلص منها النتائج التي على أساسها نحدد إلى أين يجب أن نتجه، وهذا بحاجة إلى وقت وجهد وتعاون وحوارات موسعة[٥]».

١ - اعتبارات التطوير والتحديث:

على أن التطوير لا يرتهن بالانتهاء من وضع الاستراتيجيات المطلوبة، بل يتساوق التخطيط مع ترشيد السياسات القائمة والقادمة، ويتطلب ذلك مجموعة اعتبارات، نذكر منها:

١ - ١ - البعد الاجتماعي للتطوير والتحديث:

وقد حذر السيد الرئيس بشار الأسد من مغبة إهمال العامل الاجتماعي في حال المضي في الخصخصة هدفًا اقتصاديًا، «وهذا العامل لا يقل أهمية عن العامل الاقتصادي، ويجب ألا يكون للحل الاقتصادي انعكسات اجتماعية[٦]».

١ - ٢ - استصدار التشريعات اللازمة:

فقد «قطعنا شوطًا معقولاً في إصدار التشريعات التي لها علاقة بالمجال الاقتصادي وبغيره من الحقول، لكننا لانستطيع أن نقول: إن التشريعات هي التي تخلق اقتصادًا قويًا هي التي تشكل قاعدة لكي ننطلق منها، لكن لابدّ من المكملات الأخرى[٧]».

١ - ٣ - توافر الشفافية:

وهذا ما تتطلبه المشاركة الديمقراطية الأوسع للمواطنة المسؤولة، و «الشفافية قبل أن تكون حالة اقتصادية أو سياسية أو إدارية... الخ، وما إلى ذلك فهي حالة ثقافة وقيم وتقاليد اجتماعية[٨]».

١ - ٤ - تحصين العمل المؤسساتي:

ويستدعي ذلك التوكيد على دور المؤسسات في حياتنا واقتران عملها بالفكر الديمقراطي لأن «العمل المؤسساتي عمل جماعي لا فردي، عمل مبني على الصدق والإخلاص في التعامل، وعلى استغلال الوقت بحده الأقصى، وتغليب المصلحة العامة على المصلحة الشخصية وعقلية الدولة على عقلية الزعامة، وهو منطلق التعاون والانفتاح على الآخرين، وهو لا ينفصل عن الفكر الديمقراطي بل يتقاطع معه في مواقع عديدة[٩]».

١ - ٥ - الحفاظ على الهوية القومية واحترام الخصوصيات الثقافية:

فقد دعا الرئيس بشار الأسد إلى تدعيم الأصالة «بالإصلاح والتطوير في مؤسساتنا التربوية والتعليمية والثقافية والإعلامية، بما يخدم قضايانا الوطنية والقومية، ويعزز تراثنا الأصيل، ويؤدي إلى نبذ ذهنية الانغلاق والسلبية، ومعالجة الظواهر الاجتماعية التي تؤثر سلبًا على وحدة المجتمع وسلامته[١٠]».

١ - ٦ - تأصيل مؤسسات المجتمع المدني:

وأن يستكمل التأصيل بالتعاون الوثيق مع مؤسسات الدولة ضمن السيرورة التاريخية لتطور مجتمعنا العربي لئلا يدور الحراك الاجتماعي في غير مداره، ولئلا تهدر وظائفه في غير استهدافاتها:

«المجتمع المدني هو مجتمع حضري نشأ عن تراكم الحضارات عبر مئات أو آلاف السنين، وسورية لها تاريخ يمتد لأكثر من ستة آلاف عام من التاريخ الحضاري، والقول بأننا نريد أن نبني مجتمعًا مدنيًا يعني بأننا نريد أن نلغي كل هذا التاريخ لنبدأ بتاريخ جديد. طبعًا هذا غير واقعي بل خيالي عدا عن أنه يعني رفضًا لهذا التاريخ، ومحاولة للخروج منه، ومن يحاول إخراجه نفسه من تاريخه فهو يخرج نفسه من الحاضر ومن المستقبل[١١]».

١ - ٧ - استحقاقات المصلحة الوطنية:

لأن «الهدف هو الوطن، وأي عمل يجب أن يخدم هذا الهدف، ويجب ألا يبقى أي شيء يؤثر على مسيرة التطوير[١٢]». وقد نبه الرئيس بشار الأسد إلى مثل هذه الاستحقاقات مرارًا: «حددت بدقة من مع التطوير: هو من يعمل من أجل المصلحة

العامة، مصلحة الوطن ومن ضد التطوير يعمل من أجل مصلحته الشخصية[13]».

١ - ٨ - الالتزام بأخلاقيات التطوير:

لأن «العمل هو عمل عام وطني يرتبط بمدى وطنية المرء ومدى استعداده لخدمة بلده[14]». وتتبدى هذه الوطنية في مجموعة القيم التي ينبغي على المواطن أن يتحلى بها لضمانة سيرورة التطوير والتحديث و «هذه القيم أسعى بكلّ تأكيد لكي تكون موجودة في بلدي لترفد عملية التطوير[15]».

٢ - محاور التطوير والتحديث ومعاييره:

لم تقتصر عمليات التطوير والتحديث على الاقتصاد، بل اتسعت إلى أهمية التحكم بآليات إنتاج المجتمع كلّها، مما يستدعي تثمير عناصره وموارده البشرية والمادية استشرافًا مستقبليًا نابعًا من رؤية واقعية تحتاط للاستراتيجيات الضاغطة الأخرى الاجتماعية والعلمية والتربوية والثقافية وما يتصل بها من تواؤم أو اختلاف، فلا يكفي ترشيد التنمية وحدها، أو نجاعة التخطيط وحده، فما هو مستطاع أقل بكثير من غير المستطاع، لأنّ عزيمة التطوير والتحديث مندغمة باشتراطات الوجود العربي وتناقضاته الداخلية والخارجية. وقد حدد الرئيس بشار الأسد محاور التطوير والتحديث فيما يلي:

«علينا من أجل الوصول إلى ما نبتغيه أن نتحرك بالتوازي، وبنفس الوقت، على ثلاث محاور أساسية:

- المحور الأول: ويتضمن طرح أفكار جديدة في المجالات كافة، سواء بهدف حل مشكلاتنا ومصاعبنا الراهنة أو بهدف تطوير الواقع الحالي.

- المحور الثاني: يتضمن تجديد أفكار قديمة لا تناسب واقعنا، مع إمكانية الاستغناء عن أفكار قديمة لا يمكن أن نجددها، ولم يعد ممكنًا الاستفادة منها، بل أصبحت معيقة لأدائنا.

- المحور الثالث: ويتضمن تطوير أفكار قديمة تم تجديدها لكي تتناسب مع الأهداف الحاضرة والمستقبلية[16]».

ورأى الرئيس بشار الأسد إلى أهمية تقويم التجربة باستمرار. شأن التخطيط الناجح بما هو أفضل استثمار للموارد المتاحة ضمن حركة الواقع واشتراطات التاريخ التي تستجيب لمتطلبات التغيير وفق معايير تحدد نسبة الإنجاز والتقدم في هذا المسعى أو ذاك، فليس ثمة تطوير هو قفزة في فراغ، أو نهوض بعصا سحرية، أو تحديث يجافي واقع الحال، وينأى عن

التقاليد السائدة. وقد وضع الرئيس بشار الأسد مجموعة المعايير التالية:

- **المعيار الأول:** هو عامل الزمن الذي يفترض بنا أن نعمل على استغلاله..

- **المعيار الثاني:** هو طبيعة الواقع الذي نعيش فيه والظروف المختلفة التي تحيط بنا..

- **المعيار الثالث:** وهو الإمكانيات المتوفرة بين أيدينا للانطلاق والوصول إلى الهدف المحدد..

- **المعيار الرابع:** وهو المصلحة العامة وفيها تلتقي كل المعايير السابقة ومن خلالها تتحدد..»[17].

**٣ - متطلبات التطوير والتحديث:**

وعاين الرئيس بشار الأسد متطلبات التطوير والتحديث مما ييسر الأداء، مجاوزة للسلبيات وتعميقاً للإيجابيات:

**٣ - ١ - أدوات التجديد والتطوير:**

وأهمها الفكر المتجدد والمبدع والنقد البناء والمساءلة.

**٣ - ٢ - التغييرات الاقتصادية:**

وذلك «من خلال تحديث القوانين، وإزالة العقبات البيروقراطية أمام تدفق الاستثمارات الداخلية والخارجية، وتعبئة رأس المال العام والخاص معاً، وتنشيط القطاع الخاص ومنحه فرصاً أفضل للعمل، كما أنه لابد من تحقيق القدرة التنافسية للقطاع العام في الأسواق الخارجية، مما يؤدي إلى توزيع الدخل القومي بصورة متوازنة، وزيادة فرص العمل، وتحسين الوضع المعاشي للمواطنين في ضوء زيادة احتياجاتهم الحيوية، والتصاعد المطرد في تكاليف المعيشة[18]».

**٣ - ٣ - إعادة تأهيل القطاع الصناعي العام والخاص:**

لقد وجه السيد الرئيس إلى «إعادة تأهيل القطاع الصناعي العام والخاص لمواجهة الأخطار المتزايدة والناتجة عن تحديات العولمة، وبذلك نضمن أن يتبوأ اقتصادنا موقعاً مناسباً في التكتلات الاقتصادية والإقليمية والدولية[19]».

**٣ - ٤ - تحديد الأولويات والأفضليات:**

«واضعين نصب أعيننا أن عملية التغيير ليست هدفاً بحدّ ذاتها، بل وسيلة إلى تحقيق احتياجاتنا الحياتية[20]».

**٣ - ٥ - وضع برمجة في المجالات كافة:**

«ويشمل برنامجنا تحديث الإدارة والقوانين، والبناء على ما تحقق في السنين الماضية في مضمار التنمية الاقتصادية والاجتماعية، ورفع مستوى معيشة المواطنين، وتوفير فرص العمل للشباب[21]».

٣ - ٦ - ارتباط الانفتاح بدواعي التطوير والتحديث:

لأن الانفتاح والانغلاق «أداتان قد تخدمان أو تعرقلان التطوير بحسب المجال أو الظرف[٢٢]».

٣ - ٧ - التنبه لتأثير ارتباط الوضع الداخلي بالأوضاع الإقليمية:

«لذلك هناك الكثير من الأمور تتأثر بالوضع الداخلي وبشكل أساسي بموضوع الحرب والسلام[٢٣]».

٣ - ٨ - مراعاة البعد الثقافي للتطوير والتحديث:

فثمة معوقات موضوعية وأخرى غير موضوعية، «وكلتا الحالتين هما بحاجة لعمل اجتماعي ثقافي لكي نطور المجتمع ونهيئ الأرضية والقاعدة للوصول للديمقراطية المطلوبة[٢٤]».

٤ - مجالات التطوير والتحديث:

رأى الرئيس بشار الأسد أن مجالات التطوير والتحديث متصلة بأبعاد هذه القضية الشاملة والواسعة بشمول إنتاج المجتمع واتساعه، غير أنه رسم المجالات الأكثر إلحاحًا والأقرب نوالاً، وهي:

٤ - ١ - الإصلاح الإداري:

وجد الرئيس بشار الأسد أن قصور الإدارة لدينا هو من أهم العوائق التي تعترض مسيرة التنمية والبناء، وحدد التوجهات التالية للإصلاح الإداري:

٤ - ١ - ١ - العناية بمستلزمات الإصلاح الإداري:

«من خلال الأنظمة الإدارية وهيكلياتها، ورفع كفاءة الكوادر الإدارية والمهنية، وإنهاء حالة التسيب واللامبالاة والتهرب من أداء الواجب[٢٥]».

٤ - ١ - ٢ - أهمية المؤسسة القضائية وحمايتها:

لتأخذ دورها الكامل بهدف إحقاق العدالة، وصيانة حرية المواطن والسهر على تطبيق القوانين[٢٦]».

٤ - ١ - ٣ - الاهتمام الخاص بالتأهيل والتدريب:

«وذلك بالاعتماد على الكوادر الوطنية في سورية وخارجها، إضافة إلى الاحتكاك بالكوادر العربية والأجنبية، والإفادة من خبرات الدول التي لها تجارب ناجحة في مجالات محددة[٢٧]».

٤ - ١ - ٤ - مكافحة الفساد:

وقد وضع السيد الرئيس بشار الأسد حدودًا لهذا البلاء الوبيل، فهي «عملية مستمرة من خلال وجود مؤسسات مهمتها متابعة الخلل في المواقع المختلفة في الدولة»، على أنها «لا تأتي من خلال ملاحقة الأشخاص، وإنما «تأتي من خلال

ملاحقة القضايا» وحذر السيد الرئيس بشار الأسد من التوقف عند المحاسبة في مكافحة الفساد»، لأن «المحاسبة هي الحل الأخير في الفساد، وقد تكون الجانب الإسعافي في الحالات الطارئة. لكن مكافحة الفساد الحقيقية عملية منهجية فيها محاور مختلفة منها على سبيل المثال تحسين الأنظمة الإدارية التي لا تسمح للإنسان أن يرتكب أي خطأ في عمله، أو لنقل: إن هذه الأنظمة تخفف هذا الخطر إلى الحدّ الأدنى، وبالتالي تسمح للإنسان أن يرتقي في أدائه، ولا تسمح له بالانحدار، وهي بالتالي تحمي المؤسسة من هذا الانحدار[٢٨]».

**٤ - ١ - ٥ - نشر الثقافة والمعرفة والتقنية المعلوماتية:**

فقد عوّل السيد الرئيس بشار الأسد على انتشار عناصر القوة الجديدة في العالم في مناحي حياتنا، ولاسيما المعلوماتية والتقانة والاتصالات، فشهدت سورية نقلة هامة في نشر المعلوماتية مع استلامه لرئاسة هيئتها، ثم تعززت فعاليتها خلال عامي عهدته، ودعا سيادته إلى «إيلاء الاهتمام الكبير لتجارة العقل، وتصدير الأفكار، وتطوير البحث العلمي، وذلك من خلال توفير بنيته التحتية التي تبدأ بالفعل المنظم، مروراً بالمؤسسات البحثية، انتهاء بالتقنيات الضرورية، وحسب الإمكانيات، وضرورة ربطه بحاجات المجتمع التنموية[٢٩]».

**٤ - ١ - ٦ - العناية برسم الأهداف استراتيجياً ومرحلياً:**

لأن «أي تغيير يجب أن يكون له هدف ونتائج معروفة تخدم هذا الهدف. وكل تبديل في الدولة سيتم عندما تكون هناك ضرورة وفي الوقت المناسب[٣٠]».

**٤ - ١ - ٧ - التوكيد على التخطيط ونوعيته:**

«بهدف الوصول إلى مجتمع ودولة نوعيين، وبالتالي متابعة بناء سورية عصرية متقدمة[٣١]».



**٤ - ٢ - الإصلاح الاقتصادي:**

احتل الإصلاح الاقتصادي موقع الصدارة في توجهات السيد الرئيس بشار الأسد للتطوير والتحديث، لأن الاقتصاد شديد التعقيد والتداخل مع المجالات الأخرى، وشديد التأثر بالأوضاع العربية والإقليمية والدولية، وفاقمت هذا التعقيد والتأثّر التغييرات الدولية العاصفة والمفاجئة في النظرية والتطبيق خلال العقدين الأخيرين، ولاحظ السيد الرئيس بشار الأسد في خطاب القسم سرعة هذه التغييرات وحدتها، فقد «كان الأداء في المجال الاقتصادي على وجه الخصوص يتموج ويتبدل بحدة، نتيجة لتبدل الظروف

التي كانت هي الأخرى، شديدة التغيير وخاصة عندما انتقل اقتصادنا من اقتصاد له أسواقه المفتوحة أمامه إلى اقتصاد مطلوب منه المنافسة[٣٢]».

وتتحدد توجهات السيد الرئيس بشار الأسد في الإصلاح الاقتصادي فيما يلي:

**٤ - ٢ - ١ - رسم سياسة اقتصادية رشيدة:**

«تردم الفجوات بين الموارد والنفقات، وبين الاستيراد والتصدير، وبين الإنتاج والتصريف، وبين الأجور والأسعار، إضافة إلى تصحيح ميزان المدفوعات[٣٣]».

**٤ - ٢ - ٢ - نشدان الازدهار الاقتصادي:**

وله «محوران أساسيان: زيادة فرص العمل ورفع المستوى المعيشي للمواطنين بشكل عام. وكلاهما يتحقق على أرضية التوزيع العادل للدخل. وكل ما يحقق هذين الهدفين أو المحورين هو منهج تدعمه الدولة[٣٤]».

**٤ - ٢ - ٣ - تحسين الوضع الاقتصادي للعاملين في الدولة:**

وهو محور مهم جدًا يعزز «الأخلاقيات التي يغذى بها الإنسان في منزله[٣٥]».

**٤ - ٢ - ٤ - الاهتمام المباشر بالوضع المعاشي للمواطنين:**

و «عندما تريد أن تقوم بأي تطوير لا يكفي أن يكون أحد الأشخاص مقتنعًا به، بل لابد من أن يكون مطلب الشريحة الأوسع من الشارع[٣٦]».

**٤ - ٢ - ٥ - تطوير القوانين الاقتصادية وإدارتها وتطبيقها:**

وقد قطعت سورية مرحلة مقبولة بتعبير السيد الرئيس في مجال تطوير القوانين «أما في مجال تطبيق وإدارة القوانين، فنحن لم نحقق بعد ما نستطيع أن نقول إننا راضون عنه، وبالتالي علينا أن نبذل المزيد من الجهود في هذا الشأن[٣٧]».

**٤ - ٢ - ٦ - أهمية تعاضد التطوير الاقتصادي مع التطوير الاجتماعي:**

لأن «أصعب أنواع التطوير هو التطوير الاجتماعي، وهذا لا يعني أن القاعدة في سورية لهذا التطوير غير موجودة أو أنه لايوجد براعم لهذا التطور. لكن نتائجه بطيئة، وأهم عناصره هو التربية في المدارس، ونحن نسير بهذا الاتجاه[٣٨]».

**٤ - ٢ - ٧ - تلازم حماسة الشباب وحكمة الشيوخ في إرادة التطوير والتحديث:**

و «أي عمل تطويري لا يأخذ بالاعتبار المزج بين هذين العاملين هو بالنتيجة تطوير فاشل[٣٩]».

٤ - ٢ - ٨ - توسيع الاستثمار:

وقد أطلق السيد الرئيس بشار الأسد عملية تطوير كبيرة للقوانين بما يساعد على «تحفيز الاستثمار، ومنها إفساح المجال لإنشاء البنوك الخاصة والتعديلات على بنود الاستثمار[٤٠]».

٤ - ٢ - ٩ - الاستخدام الأمثل للموارد المتاحة ولا سيما البشرية:

«بغية استنهاض قدرات المجتمع وموارده البشرية لتشارك في المسيرة[٤١]».

٤ - ٣ - الإصلاح الزراعي والصناعي:

عني السيد الرئيس بشار الأسد بالإصلاح الزراعي والصناعي، وحض على تطوير القطاع الزراعي بالأهمية القصوى «من خلال تحديث وسائل إنتاجه، والبحث عن أسواق لتصريف منتجاته، إضافة إلى تسريع عمليات استصلاح الأراضي، وتلافي التقصير والإهمال الذي حدث في الماضي، والإسراع في إنجاز السدود التي تخدم خططنا التنموية[٤٢]».

٤ - ٤ - الإصلاح الإعلامي:

وجه السيد الرئيس بشار الأسد إلى الإصلاح الإعلامي وأهمية تطوير الإعلام ضمن المناحي التالية:

٤ - ٤ - ١ - استهداف التطوير من خلال وسائل الإعلام:

فقد رهن السيد الرئيس وظائف الإعلام بخدمة التطوير والتحديث، إذ «يمكن للإعلام الحرّ أن يحرّك بشكل يساعد عملية التطوير، كما يمكن أن يحرك بشكل معاكس لها، فعملية التطوير هي التطوير المنضبط، وليس التطوير دون ضوابط[٤٣]».

٤ - ٤ - ٢ - تطوير وسائل الإعلام لمواكبة ثورة الاتصالات الجبارة:

وهذا واضح في تعدد قنوات الاتصال الداخلي والخارجي وتحديثها، و «على كل حال الإعلام السوري يتطور ضمن الإمكانات المتاحة[٤٤]».

٤ - ٤ - ٣ - ارتباط الإعلام بالشفافية المنشودة تعزيزاً لقيم الحرية والديمقراطية:

فقد حرص السيد الرئيس على علنية الحوار والنقاش في القضايا الأساسية، وقال بصريح العبارة: «نفضل في سورية أن نترك للأفعال أن تتحدث عن نفسها. من الممكن أن نناقش في الإعلام المبادئ والنهج والتوجهات، بينما لا نناقش القرارات إلا بعد صدورها، لأنها تكون قد أصبحت واقعاً[٤٥]».

ولطالما وجه سيادته إلى الشفافية في التطوير باستخدام أوسع وأمثل لوسائل الإعلام بقوله: «هل من المعقول أن أدفع

باتجاه التطوير وأنا لا أعرف أن هناك خللاً ما.. إذًا كيف عرفت بالخلل؟ كلّ هذا يتم من خلال الأقنية الرسمية ومنها الصحافة.. وعلاقتي بالمواطنين[٤٦]».

**٤ - ٤ - ٤ - نحو إعلام مفتوح ومتوازن:**

فلدى الدولة «رغبة في أن يمتلك الشعب أدوات المعرفة ومنها الإعلام، وإلا لمنعت كلّ الصحون اللاقطة، وهذا ليس صعبًا على الدولة. هذا يدل على رغبة الدولة في سورية ومنذ وجدت المستقبلات الفضائية على أن يكون هناك إطلاع لدى المواطن السوري[٤٧]».

**٤ - ٤ - ٥ - أهمية الانفتاح الإعلامي:**

وقد أنكر السيد الرئيس وجود «عقلية انغلاق لكي نتحدث عن انفتاح.. غير المنفتح لا ينغلق بصحافة داخلية، ولا ينفتح بصحافة خارجية وبإعلام خارجي[٤٨]».

**٤ - ٤ - ٦ - تشجيع الإعلام المستقل:**

دعمًا للانفتاح في حرية التعبير، و «هناك صحيفة صدرت مؤخرًا، وصحيفة ستصدر خلال فترة وجيزة، وهما صحيفتان مستقلتان[٤٩]».

**٥ - مجالات أخرى للتطوير والتحديث:**

مدّ السيد الرئيس بشار الأسد مجالات التطوير والتحديث إلى البنى الاجتماعية التي تضمن فاعلية مشاركة الأطر البشرية بتعزيز المنظومات القيمية الشعبية والإنسانية المسؤولة والخلاقة، ونذكر من هذه المجالات:

**٥ - ١ - القيادة والمسؤولية:**

دعا السيد الرئيس بشار الأسد في خطاب القسم إلى توافر الحالة المثلى التي تتبدى في المواطنية المسؤولة، و «لا يعني هذا أن الكل صاحب منصب. فالمناصب هي مفاصل أساسية يتم فيها تنقية وتفعيل وغربلة أداء المجتمع بشكل مستمر وباتجاهين: من قاعدة الهرم إلى قمته وبالعكس. وبالتالي، إذا اختلت وظيفة القاعدة انعكس ذلك على أداء القمة. وإذا شذ من في القمة أساء إلى القاعدة[٥٠]».

ومن هذا المنظور، ركز السيد الرئيس على ارتباط الشخصية بالعمل الوطني، «العوامل هي أولاً الوطنية وثانيًا الشخصية والظروف التي ساهمت في بنائها[٥١]».

ورهن السيد الرئيس القيادة المسؤولة بثوابتنا الوطنية والقومية التي رسخها القائد الخالد حافظ الأسد في قلوبنا وعقولنا، «متمثلين في الوقت ذاته حكمته في تحويل الحزن إلى طاقة خلاقة، والمصيبة إلى عمل وإنجاز[٥٢]».

أما السبيل إلى العمل والإنجاز فهو تعزيز الوحدة الوطنية، و «أؤكد على أن من

يطرح المشكلة يجب أن يطرح معها الحل، ويجب أن نبتعد قدر الإمكان عن الاتكالية. وأعود لأؤكد أن الحل هو مسؤولية الجميع كي يصبح مكتملاً وناجعًا: فلا تتكلوا على الدولة، ولا تدعوا الدولة تتكل عليكم، بل دعونا نعمل سوية كفريق عمل واحد[٥٣]».

٥ - ٢ - تقدير العمل والعمال:

رأى السيد الرئيس بشار الأسد في العمل والعمال ركيزة أساسية للتطوير والتحديث، فحيا على الدوام مكانة العمال في تطوير الإنتاج، ودورهم في نضال شعبنا وأمتنا، و «هذا الدور هو امتداد لدور **العمال النضالي** الذي مارسوه في مختلف مراحل تاريخنا الحديث، وثابروا على أدائه بدافع حبّ الوطن والإيمان بالقيم الوطنية والقومية[٥٤]».

٥ - ٣ - مشاركة المرأة في التطوير والتحديث:

وجه السيد الرئيس بشار الأسد إلى تفعيل طاقات المرأة ومشاركتها في التطوير والتحديث، بل إنه استصعب تحقيق التطوير والتحديث «إذا لم تكن المرأة مشاركة فيه من موقعها كنصف للمجتمع حقيقي لا وهمي، فهي التي تنشئ وتربي الرجال والنساء، وتهيؤهم للمشاركة في بناء وطنهم، وهي التي تسهم في مختلف مواقع العمل في التنمية والتقدم. وهذا يتطلب أن نهيئ لها البيئة الملائمة لكي تكون أكثر فاعلية في المجتمع، وبالتالي أكثر قدرة على أداء دورها في تنميته[٥٥]».

٥ - ٤ - تفعيل الجبهة والوحدة الوطنية:

اهتم السيد الرئيس بشار الأسد اهتمامًا كبيرًا بمكانة الجبهة الوطنية التقدمية في التطوير والتحديث، لأنها النموذج الديمقراطي من خلال تجربتها الخاصة في سورية، مما يستدعي تطوير صيغة عملها استجابة «لحاجات التطوير الذي يتطلبه واقعنا المتطور والمتنامي على كل المستويات[٥٦]».

ولا يخفى أن تطوير صيغة الجبهة يعني في عنوانه الأعم والأعمق «تطوير الوضع السياسي، فذلك يتم عبر الانطلاق بداية من خلال مناقشة التجربة التي ابتدأت في الماضي، وما زالت مستمرة حتى هذا اليوم.. أعني التجربة السياسية بشكل عام. مناقشة الإيجابيات والسلبيات[٥٧]».

٥ - ٥ - تفعيل المنظمات الشعبية ومؤسسات المجتمع المدني:



عني السيد الرئيس بشار الأسد بدور المنظمات الشعبية والنقابات المهنية وبقية مؤسسات المجتمع المدني في عملية التطوير والتحديث، إذ انتجت مسيرة الشعب في هذه التنظيمات «نهضة شاملة وتنمية مستديمة في إطار الوحدة الوطنية التي تجلت بأروع مظاهرها في أقسى الظروف، وصمدت في وجه أعتى العواصف[٥٨]».

وقد وجه السيد الرئيس في هذا الإطار إلى تطوير عمل هذه التنظيمات نفسها الذي يرعاه شخصيًا. و «في هذه العلاقة حوار مستمر يتضمن كل السلبيات والإيجابيات، وهي علاقة باتجاهين، تمر

بالأقنية الرسمية والأقنية غير الرسمية، أي المباشرة، وذلك من خلال بقاء رئيس الجمهورية على احتكاك مباشر مع الشعب[٥٩]».

واستند السيد الرئيس في ندائه لتفعيل هذه التنظيمات إلى «التراكم التاريخي الكبير جداً للشعب السوري. وهذا التنوع الحضاري الكبير ترك لديه هامشاً كبيراً من التسامح والعقل المنفتح[٦٠]».

لقد دلت تجربة عامين من قيادة السيد الرئيس بشار الأسد على أن قضية التطوير والتحديث تمضي قدماً في التطبيق الناجع والفاعل بوصفها عملية وطنية وجذرية وشاملة وتاريخية قابلة للتجدد والإثراء ضمن استحقاقات متعددة لطالما نبه إليها، ودعا إلى مجاوزتها من أجل تحقق أفضل لمرامي التطوير والتحديث.

## الهوامش والإحالات

١ - من حديث السيد الرئيس للتلفزيون الفرنسي بتاريخ ٢٠٠١/٦/٢١.

٢ - المصدر السابق نفسه.

٣ - من حديث السيد الرئيس إلى صحيفة لوفيغارو الفرنسية بتاريخ ٢٠٠١/٦/٢٢.

٤ - خطاب القسم بتاريخ ٢٠٠٠/٧/١٧.

٥ - المصدر السابق نفسه.

٦ - من حديث السيد الرئيس إلى بعثة صحيفة الباييس الإسبانية بتاريخ ٢٠٠١/٥/١.

٧ - المصدر السابق نفسه.

٨ - من خطاب القسم.

٩ - المصدر السابق نفسه.

١٠ - المصدر السابق نفسه.

١١- المصدر السابق نفسه.

١٢ - من حديث السيد الرئيس إلى بعثة صحيفة الباييس الإسبانية بتاريخ ٢٠٠١/٥/١.

١٣ - من حديث السيد الرئيس في المؤتمر الصحفي الذي عقد في باريس بتاريخ ٢٠٠١/٦/٢٧.

١٤ - من حديث السيد الرئيس لمجلة دير شبيغل الألمانية بتاريخ ٢٠٠١/٧/٨.

١٥ - المصدر السابق نفسه.

١٦ - من خطاب القسم.

١٧ - المصدر السابق نفسه.

١٨ - المصدر السابق نفسه.

١٩ - المصدر السابق نفسه.

٢٠ - المصدر السابق نفسه.

٢١ - المصدر السابق نفسه.

٢٢ - من حديث السيد الرئيس إلى صحيفة الشرق الأوسط العربية بتاريخ ٢٠٠١/٢/٧.

٢٣ - من حديث السيد الرئيس إلى بعثة صحيفة الباييس الإسبانية بتاريخ ٢٠٠١/٥/١.

٢٤ - من حديث السيد الرئيس للتلفزيون الفرنسي بتاريخ ٢٠٠١/٦/٢١.

٢٥ - من خطاب القسم.

٢٦ - من خطاب القسم.

٢٧ - من خطاب القسم.

٢٨ - من حديث السيد الرئيس إلى صحيفة الشرق الأوسط العربية بتاريخ ٢٠٠١/٢/٧.

٢٩ - من خطاب القسم.

٣٠ - من حديث السيد الرئيس إلى صحيفة الشرق الأوسط العربية بتاريخ ٢٠٠١/٢/٧.

٣١ - من خطاب القسم.

٣٢ - من خطاب القسم.

٣٣ - من خطاب القسم.

٣٤ - من حديث السيد الرئيس إلى صحيفة الشرق الأوسط العربية بتاريخ ٢٠٠١/٢/٧.

٣٥ - المصدر السابق نفسه.

٣٦ - المصدر السابق نفسه.

٣٧ - من حديث السيد الرئيس إلى صحيفة لوفيغارو الفرنسية بتاريخ ٢٠٠١/٦/٢٢.

٣٨ - المصدر السابق نفسه.

٣٩ - المصدر السابق نفسه.

٤٠ - من حديث السيد الرئيس في لقائه السيد فولفغانغ تيرزة رئيس البرلمان الألماني البوند ستاغ بتاريخ ٢٠٠١/٧/١١.

٤١ - من كلمة السيد الرئيس في مأدبة العشاء التي أقامها على شرف الرئيس جاك شيراك في باريس بتاريخ ٢٠٠١/٦/٢٥.

٤٢ - من خطاب القسم.

٤٣ - من حديث السيد الرئيس إلى صحيفة الشرق الأوسط العربية بتاريخ ٢٠٠١/٢/٧.

٤٤ - المصدر السابق نفسه.

٤٥ - المصدر السابق نفسه.

٤٦ - المصدر السابق نفسه.

٤٧ - المصدر السابق نفسه.

٤٨ - المصدر السابق نفسه.

٤٩ - من حديث السيد الرئيس إلى بعثة صحيفة الباييس الإسبانية بتاريخ ٢٠٠١/٥/١.

٥٠ - من خطاب القسم.

٥١ - من حديث السيد الرئيس لمجلة دير شبيغل بتاريخ ٢٠٠١/٧/٨.

٥٢ - من خطاب القسم.

٥٣ - من خطاب القسم.

٥٤ - من رسالة التحية التي وجهها السيد الرئيس إلى الطبقة العاملة بمناسبة أسبوع المباريات الإنتاجية بتاريخ ٢٠٠٠/١١/١٧.

٥٥ - من خطاب القسم.

٥٦ - من خطاب القسم.

٥٧ - من حديث السيد الرئيس إلى صحيفة الشرق الأوسط العربية بتاريخ ٢٠٠١/٢/٧.

٥٨ - من رسالة التحية التي وجهها السيد الرئيس إلى الطبقة العاملة بمناسبة أسبوع المباريات الإنتاجية بتاريخ ٢٠٠٠/١١/١٧.

٥٩ - من حديث السيد الرئيس إلى صحيفة الشرق الأوسط العربية بتاريخ ٢٠٠١/٢/٧.

٦٠ - من حديث السيد الرئيس لمجلة دير شبيغل بتاريخ ٢٠٠١/٧/٨.

# الإبـداع

## شعر

زغاريد لأعراس الحداد

ممدوح السكاف

وجنين تنزف عن جنين

عبد الرحمن عمار

## قصة

منزل النساء

حسن حميد

مذكرات تشرشل

سحبان العمر

## زغاريد لأعراس الحداد

**شعر**

ممـــدوح الســـكاف (*)



اقرأ على خُطُوَاتكَ البيضاءِ
قرآنَ الزُّفَاف،
وسَمِّ باسم اللهِ،
باسم الحُبِّ
باسم الآبِ،
باسم الابنِ

(*) ممدوح السكاف: أديب وشاعر من سورية، عضو اتحاد الكتاب العرب، عضو جمعية الشعر، من دواوينه: «الحزن رفيقي».

واكتُبْ آيةَ الكُرسيِّ
بالأنفاس طاهرةً
على سِفْرِ البلادْ
مِنْ ههنا
من صَخْرَةٍ هَبَطَتْ على مَهْلٍ
مُرَقْرَقةً
مُنَغَّمَةً
كسنبلةٍ
مقدسةٍ
هَوَتْ كالهَطْلِ من رَبٍّ السماءِ
لأرضنا
تبني الملائكُ فوقها حَرَمَ الصلاةِ
مُسَوَّراً بحدائقِ السّحرِ المرصَّعِ بالسناء
لشعبنا
من سُرَّةٍ سِرِّيَّةٍ طُبِعَتْ بختم خلاصنا
كالحنطة السمراء
أَغْفَتْ في رُشَيْمٍ
بالدموع سكيبةً
من حُزْننا
من غبطة الميلاد في لَعِبٍ مع الأولادِ
من غَبَشٍ تَشَقَّقَ عنه فجرٌ
وانجلى نُورٌ
وفاض على الظلامِ

بموجه الفضيِّ
تبتدئ الشهادة في النجاوى والسَّرائرِ،
والشهيدةِ
والشهيدِ
إلى الخلود
من العبادْ
سارت مواكبُهم على نَعْشِ الهواءِ
وأدْلَجَتْ في سَيْسَبانِ الشمسِ
فوق أكفِّهِمْ
رؤيا كأغنية المراعي
من هديل الناي تفرّف لحنها
في رؤية الرؤيا لأطفالٍ
من الأحلامِ،
أعيادٍ من الأنسامِ،
ألعابٍ من الأوهامِ،
في رؤيا على رؤيا،
وترتيلٌ لمكّةَ في المدينة خاشعٌ مُتَبَتِّلٌ
يهمي على القُدس الحزينةِ
بيت لحم،
في «المغارة» تُوِّجَتْ بـ «النارِ»
نارٌ من صليل جراحهم،
صلَّتْ بها جُثَثٌ من الأمطارِ
تَسَقُطُ كالرَّمادْ

في حالك الضوء الوليدِ،
على شفاه من زغاريدِ
لأعراس الحدادْ
هامت بها سحب الشهيدة والشهيدِ
يُحلّقان على غيوم الخصب
ينهملان بالمطر السخيّ
على نشيدٍ في رباعٍ
عَرَّشَتْ شجراً،
كأجسادٍ مُعَطّرةٍ
تناسل كالطفولةِ
في الهضاب النابضاتِ
بأرجوان شقائق النعمانِ
تهوي في انسيابٍ شاعريّ اللحن
يعزف للوهادْ ..

اقْرَأْ فأنتَ الآن مكتوبٌ
مع الأبرار في الطُّورِ المقدَّسِ
ترشفُ الإسراء منهمراً
كغدرانٍ تُسَقْسِقُ،
في عروج الرُّوح بالمعراج
تمشي في الشوارع هائماً
بسلامكَ الكوني
تدخلُ قاعة التسبيح في مهد القيامةِ

عانَقَتْ صُلْبانُها
قمرَ الأهلَّة في المآذنِ،
رانيات نحو إكليل الذبيحةِ،
نحو جُرْنِ الماء،
يَشْرَبُه الحواريُّونَ،
كالسِّرِّ المعتقِ
من إناء الصمتِ،
من نَبْعٍ بِزَمْزَمَ
مستفيضِ الدَّفْقِ،
يَنْهلُه، بمُهدَته، عُمرٌ
يَرمي له طفلٌ
على دبّابة الوحش المجسَّدِ
كالبشرِ
حجراً،
كسهمٍ من كنانِ الظَّهْرِ،
يُنْسَلُّ كالعواصفِ،
ثم يقذفُ بالحجرْ
وارْفَعْ أذان الصُّبح مُمْتطياً
بُراقاً رَفَّ كالأطيارِ
ضرَّجَه اخضرارٌ،
من نداءٍ أو دُعاءٍ،
في جوامعَ تهدر الأصواتُ
كالإعصارِ:

حَيّ على الجهادْ
قُمْ أيُّها العربيُّ من وَسَنِ المهادْ
قُمْ خَلْخِلِ البنيانَ شاخَ من التَّرهُّلِ والترقُّقِ
والسحايا والمنايا،
والعُروشَ تَحَنَّطتْ
كالمومياءات استعادت
نقرسَ الذُلِّ المحبَّب للفرنجةِ
في ابتهاجٍ واحترامٍ
في خنوعٍ وانقيادْ
قُمْ أيها العربيُّ
قَدْ
نَسيَ البياضُ نَقَاءَه
وانحلَّ في لُغَةِ السَّوادْ
قُمْ للصراخ من السكوتِ،
وللحضور من الغيابِ،
وللوجود من الفناءِ،
وللحياة من المماتِ،
وللخروج من التشتُّتِ لاتحادْ
قم أيها العربيُّ وابعثْ
فيك عنقاء التوالدِ
من جليدٍ أو جمادْ
أنت ارتعاش النار في ثلج المآسي
فلتكن للهيبها القدسيِّ،
منطلق الشرارة،
للشفاء العبقريِّ
من الجراح تقيَّحت بصدٍ يدها فوق الضمادْ
اقرأْ وصيَّتكَ الوحيدةَ يا حبيبي
واقرئيها يا حبيبةُ
وامْتَزِجْ
بالرَّاحِ والرَّيحانِ،
والإنسانِ في الأوطانِ
وامتزجي بذرّات الترابِ،
وهلِّلي لقوافل الأبطالِ،
يَقْطُرُ من رحيقِ صفائها النبويِّ،
مِسْكٌ من دمٍ،
من عند الغزلان ينزفُ،
واسكبي من عطرك الموَّاجِ،
فوق الزعتر البّريِّ،
في أرضٍ من الزيتونِ،
أوبيّارة الليمونِ،
في نسغ المصير الآدميِّ
يجيء من حضنٍ إلى حضنٍ سيمضي
وافتتح يا أيُّها الشبلُ الجسورُ ملاحماً
بالموتِ،
آيات من القمح المصلّي للحصادْ
واصْعَدْ إلى ملكوتكَ الأعلى برفقٍ

منْ ثَراكَ إلى العمادْ
اصْعَدْ وسلْمْ أيها الفادي
على الشهداء،
في جَنَّات عَدْنٍ يُرْزَقُونَ
وقَبِّلِ الأطفال منهم،
أخمَدُوا بحجارة السجّيل،
تاريخَ الجرائم والفسادْ
مُتَسلْسِلاً بوبائه من عهد آدمَ،
عهدِ قابيلٍ وهابيلٍ وعادْ

واقرأْ على الأحياءِ في «الأحياءِ»
قاموا في مقاومةٍ،
وشبُّوا، ثم ماتوا
آيةَ الكرسيِّ،
في الأقصى المباركِ
في فلسطينَ الجريحةِ
أُنْزِلُوا خيرا المنازلِ،
عند ربِّهِمُ،
وسمَّاهم كواكبَه أضاءتْ
في دُجَى ظلمٍ
وتَتَّقِدُ اتقادْ
اقرأْ على أمّ الشهيد، على الشهيدِ،
على أبيه وأخته وشقيقه،

من سورة الأنفارِ،
يَنْفِرْ
للنزال وللطرادْ
مُتَزَنِّراً بلهيبه الجسديّ
يرفل في هنيهته الجميلةِ
بالسعادةِ
والشهادةِ،
والمودّةِ،
والودادْ...
اقرأْ وصلّ على النبيِّ محمدٍ،
عيسى المسيحِ،
تَعانَقا،
وتشمرا،
للذَّودِ عن بلد القداسةِ
والعراقة والنبالةِ،
في تواريخ القديم من الجديدِ
من البلادْ
على فلسطينَ تُسَلّمُ
في دمشقَ على صلاح الدينِ،
في الأمويِّ قام بقبره،
واستلَّ بتّاراً
بمقبضه الوطيد،
على صهاينةٍ جبابنةٍ يُدَجِّجهم

سلاحٌ للدمار وللخراب،
يسدّدون حريقه،
نحو البيوت يبيدُ أهليها
عراةً عُزّلاً،
يابئسَه متوحشاً
هذا العتادْ..

اقرأ على زند بساعدك انتضى رمح الزنادْ
من سورة التحرير والتعميرِ،
آيات الصمودِ،
مع التجذُّرِ والتشبّثِ،
والتوهج والعنادْ...

اقرأ فليس بقارئٍ إلاّكَ،
معجزة العبور من الرقاد على الأرائك
للرقاد على القتادْ.

أقرَأ على خُطُواتِكَ البيضاءِ
إنجيل الزِّفافِ،
وسمِّ باسم اللهِ،
باسم الحُبِّ،
باسم السلمِ،
باسم الخصبِ،
باسم الحلمِ،

واكتُبْ سورة الرّحمنِ
هاطلةً من القرآنِ،
سَطِّرْها دماءً
من خضابٍ في مِدادْ
قد آن زلزال الخروجِ،
من الكهوفِ
من الجليدِ
إلى انبعاثٍ
وانعتاقٍ
من سراديب الخُواءِ،
إلى مناراتِ المرافئِ،
ساطعات بالندى الضوئيِّ
في ليل الشواطئ
هائمات في نداء الأفق للآفاقِ
سَرَّحَها على مرج السواحلِ،
في فلسطين الجديدةِ
أرجوانٌ من حُدَاء
في امتداد لامتداد

اقرأ على خطواتك الحمراءِ آيات النشورِ،
وسمِّ ما رتَّلتَ من دمك الهريقِ
دمَ العبورِ
دمَ المعادْ

❖ ❖ ❖

# وجنين تنزف عن جنين

## شعر

عبد الرحمن عمار *

الصمت لجتُه،
وأطيارُ المساء،
هديلُها وهنٌ على وهنٍ
وصحراء الأسى،
امتدت مفازتُها الوسيعةُ.
والخيالُ يعيش في صدفِ الخريف
على الطوى.

(*) عبد الرحمن عمار: أديب وشاعر من سورية. عضو اتحاد الكتاب العرب، عضو جمعية الشعر. من دواوينه: «دمي يتوارى».

للدار وحشتها.
ووجهُ جليسها في الظلِّ مركونٌ.
يجدِّدُ في مقام الحزن قهوته
ويبقى رهنَ عزلته صريعَ الوقت،
يسندُ قلبَه الحاني على جدرانها.
يا نارُ كوني شمعةً ميّاسةً.
تروي حقولُ عنائه بالنور والإيناسِ..
كوني بسمةً وهّاجةً..
كوني غصونَ الياسمينِ.
على مدارجِ حلمه،
فالليلُ يرسو في أنينٍ شاحبٍ،
والنهرُ متكئٌ على صفصافه
وترُ الهوى
والذئبُ حين الرَّوْعِ
في الوادي عوى

❖ ❖ ❖

هو في رهيف الوجد زنبقةٌ
من الإيهامِ..
صوتٌ قد تبعثر عمرُه رملاً
على الشطآنِ،
فارتحلت إلى قمر من النايات
غربتُه المديدةُ.
بالأشجار النوى
ترسين هاجعة على وجدانه،
وتنادمين قوافل الأشباح
بين ضلوعه،
فتظلُّ أبوابُ ارتشافِ النور
مغلقةً،
وتحت جذورها،
ترسو مفاتيحٌ من الآمالِ.
فانفرْ أيها الأملُ المبعثر
من سباتِكَ
نحو أرصفة الموانيء..
قدِّم النجوى على طبق من الترحال..
يُمِّمْ قلبَكَ المسكونَ بالصلوات
شطرَ معالم الأقصى
وشطرَ جهادها الأنقى
ورتِّلْ من كتاب الأرض آياتٍ.
ورتِّلْ.
ثم رتِّلْ
مطلقاً قبسات نجواك الوديعة في المدى
إن الجهات لها الصدى
تصطاده ثمرات ضوء يانعات
أو يواريه قنوطاً وانكساراً،
في سواحله، الدجى
فلكل طير سَمْتُه في لوحة المعراجِ
حين تبلِّلُ الأمطارُ شرفتَهُ.
وللأشواق، تحت عرائش التكوين،
منهجُها المعبأ بالجوى

❖ ❖ ❖

هو عند أطراف الزمان.
تراكمت أوجاعُهُ.
فمضى إلى وطن من الحزن الوريفِ

فالروح هائمةٌ
وتجهل كيف تسند رأسَها
وتنام في قصب الحنين،
ووحده الحزنُ المعتّقُ
تشتهيه الروحُ
ينسج ثوبَها الصيفيَّ من دمع شفيفْ،
في الليلة الليلاء،
يكتنزُ الوداعةَ والبلاغةَ والمنادمةَ الشذيةْ.
يوجز الأوطانَ في نغمٍ فراتيٍّ رهيفْ
ويميل نحو جليسه.
يتهامسان على انفراد،
في فضاء كاتمٍ للصوتِ
يمتزجان في ألم أليفْ.
ويشاهدان معاً، على وَقْعِ القواني،
كيف ينحرف النهار عن الرصيفْ.
ومع القصيدةِ،
وحده الكهلُ المفرَّغُ من خرائط حلمِهِ،
تلقاه يهدل قلبُه حيث انزوى
والحلمُ طاقةُ أمةٍ مهدورةٍ
عَصَرَتْه كفُّ وُلاتِها في دورق الأيام،
والأيامُ حافلةٌ بأنفاس الأنام.
وخوذةُ البلدانِ
أولُها حداءٌ في غمامٍ
ثم قادمها خيوط من نزيفْ.
والموحشاتُ المهلكاتُ،
يَمِسْنَ أجداثاً على طللٍ.

ويكْسِرْنَ المصابيحَ المضيئةْ،
فوق سارية الغوى

❖ ❖ ❖

الآن يستلقي على عشب الأسى
يطفو على زبد البحار،
يبعثر الأشياءَ في ملكوتها،
ويتوه في غَسَقِ المدى.
هل يستجير بنفسه من لعنة موقوتةٍ
ويردُّ عن آماله الخضراء جائحة الردى..؟
أم يستعيذ بشاشة التلفاز
علّ جنائنَ الأحداثِ،
تُنبت بسمةً،
وطوارقَ الرغبات تنعشُهُ
وتصبح بيرقاً يسمو
ويخفق في موازين القوى،
في نشرة الأخبار
توجز نفسها الدنيا،
فتنعكس المرايا
ثم تنحسر المراكب عن مراسيها،
ويبقى الفعلُ مبنيّاً على المجهول،
والمفعول يصبح فاعلا
ويرى الحواضرَ،
عن شباك الصيد والصياد،
تحرف وجهها،
وشريعةُ الغابات تنطق باسم صانعها،
فلا قتلٌ وطاغيةٌ
ولا عين ترى شمسَ الضحى.

والطواطمُ البدويُّ،
يمضي وقت عطلته الخليعة
لا هياً متجاهلا
يتحجّرُ المعنى طويلاً
فوق أشرعةٍ مهرّاةٍ
ويرحل في لغات الأرض مهزولاً،
يسلّعُ عُقْمَه
ويعيدُه تفّاحةً ممهورة بدمِ شهيدٍ
لا يحرّضُ سائلا.
وإذا الكنايةُ في غُلالتها
تقنّع صوتَها.
تنحاز عن وجدانها، وتسيل ماءً موحلا
والشِعْرُ منحطمٌ،
يدور مع الأسى ليلاً.
وقِبْلتُهُ:
بما ملكت يداه.. بأجمل الكلمات
يقتل قاتلا..؟

❖ ❖ ❖

الآن يصغي،
أو يشاهد مايجود به المنونُ
وما تخبئُه الظنونُ
والآن يدرك،
ما رأت رؤياه من زمن.
فما يجري تعمّقَه نداءاتٌ مكبّلةٌ
بأصفاد من الصمتِ الكليمِ،
فلا يُعان ولا يعينْ
و «السوسياسةُ» تستجمُّ

وتعتلي ظهراً من التسويف
والذل المكابرِ،
فالعباءةُ، في جلالة قَدْرِها،
صارت جهازاً لاقطاً،
تستقبل الإيحاءَ والإيماءَ والإملاءَ.
فيما قد يكون ولا يكونْ
هذا هو اللغز الذي يغزو النفوسُ
ولا تكذّبه العيونْ.
و «جنين» في رَحِمٍ ممزقةٌ
وتنزف عن جنينْ
وتظل من ألمٍ تنادم نايَها،
والناي، في دمها الذي تُجنى مواسمه
وتنمو مرة أخرى
وتُجنى .. ثم تُجنى،
قد تأقلمَ واستوى،
وجنين في رَحِمٍ ممزقةٌ
وتنزف عن جنين
ترنو إلى طول البلاد وعرضها،
فلعلّها تلقى، ولو قبساً خجولاً
من فُتات النار،
يُقبل نحوها،
حتى يؤانسَ ليلَها،
وإذا ببيرق أمة شعثاءَ مهترئٍ
يمجّدُ عقمَ حاملِه
ويغرق في هُباب رماده،
وإذا برمحٍ طاعنٍ في السن،
يدفن كالنعامة رأسَه

وبياتٌ في الصحراء أبدةٌ مؤكسدةٌ،
فلا صلةٌ له تُرجى مع الأرحامِ
لا صلةٌ،
وفي وَضَحِ الدماء، تأرجحت كلماته
وتضاربت غاياته..
خلعتْ نواصيه شهامتُها..
تناوَمَ والتوى.
الآن يصغي
أو يشاهد ما يجيء به المنونُ،
فكيف لا يلوي أصابعَه أسى
أو يغمض العينين من شجن
ومن غضب
ويمشي في حقول الآسى منكسراً
ويسمع كلَّ نابضة من الأرواح
أنَ رحيلها.
هو إذ يشاهد؛
قد تعرّت من رداء حياتها الأرواحُ
واحدةٌ .. فواحدة
وأخرى بعدها
هو إذ يشاهد؛
أنطلقت كأسراب الحمام إلى رحاب اللهِ
واحدة.. فواحدة
وأخرى بعدها.
تسري الفصول إلى الفصولْ
سريانَ ذاكرة الحقول
هذي فلسطينٌ ارتمت
بدمائها شفةٌ بتولْ
حطينُ وردةُ مهجة
تنهار في قفص الذهولْ
تحنو على كبد، كما
يحنو النخيل على النخيلْ

❖ ❖ ❖

للكهل محرابٌ،
تصلي فيه دمعتُه المضيئةُ.
كلما أنسَرَبَتْ إليه ملامح الموجه
المطوّق بالورودْ
كم من شهيد مرَّ كوكبُه المضرّجُ
قاصداً بيّارةَ الشهداء..
كم غصنٍ من الليمون
يورق عن شهيدْ.
هذا دَمٌ،
ينبوعُه السيّالُ منفردٌ
يجدد نسغه ألفاً
وأطيافاً مباركةً
ويبحث عن دريئته
فلا يلقى سوى الكلمات متخمةً
بلا معنى.
ويبحث في شتاء القوم
عن مهدٍ ربيعيٍّ
يمدّد فيه وجنتَه.
فلا يلقى سوى الظلمات وادعةً.
على سُرُرٍ مرفّهةً.
ويبحث عن حمامٍ زاجلٍ
يسمو على إيقاع رحلته،

فلا يلقى سوى العجلات دائرةً
تُخلّفُ دونها غبشاً بهيمياً
وسيفاً من ضجيجٍ
واحتواءً،
طعمُه الوعدُ المسيّجُ بالوعيدْ
هذا دمٌ،
تلقاه معتقلاً وموشوماً
على إرث المخيّمِ
ثم مصلوباً على شجر المراثي،
والبلادُ،
بحزنها المطروح في الآفاقِ،
تشهدُ كيف يُسفك
عند قارعة النهار
من الوريدِ إلى الوريدْ.
هذا دمٌ،
تسري به الأيامُ قافيةً،
ولم تَحْفَلْ به لغةُ الجنودْ.
هذا دمٌ،
حضنته، باسم الله، أنقاضُ البيوتِ
وحمّلتْ أثقالَ غربته
على لهبٍ طريدْ.
هذا دمٌ،
أياتُه سحبٌ معطّرةٌ
تسافر في ملاحمها تواريخُ الصمودْ،
فالأرضُ تُنتج كلَّ حين
من صفوف الموت أقدسَه.
ومن رحِم الولادةِ
تستردُّ الأرضُ نضرتَها
وترفع حُمْرَةَ الرايات قافلةً
يمجّدُها الخلودْ



❖ ❖ ❖

# منزل النساء

## قصة

حسن حميد ❖



يا إلهي،

مطر، مطر، مطر.. يلفُّ الأشجار، والدروب، والبيوت، والناس، والجهات كافة. يمنح المساء، والأشياء، والكائنات.. موسيقا ورذاذاً وطراوة وندى.

هنا لا شيء سوى موسيقا المطر، والصمت الوارف الثقيل الذي لا يبدد وحشته سوى رجل وامرأة.

الرجل يدور حول البيت كذئب جريح. والمرأة ساهرة تغزل صوفها، وقد انطفأت حولها ثلاث نساء جميلات انطرحن على فراش واحد شديد السعة يكشف عن تفاصيل

---

(❖) حسن حميد: أديب وقاص وروائي من فلسطين. عضو اتحاد الكتاب العرب. عضو جمعية القصة والرواية. أمين تحرير جريدة الأسبوع الأدبي. من أعماله: «هنالك. قرب شجرة الصفصاف».

أجسادهن الطرية. بدّون في حالة من الطمأنينة الآسرة، بينما بدت المرأة الساهرة قربهن حارسة لعتمة الليل المطير، تجولُ ببصرها باضطراب وخوف كلما لمع البرق خارج نوافذ بيتها العالي أو كلما قصف الرعد. تزمُّ شفتيها، وتجرض بريقها، وتضمّ صدرها بذراعيها، وتتمتم بكلمات مبهمة!

الرجل والمرأة.. كلٌّ منهما مطمئن لوجود الآخر في مكانه. الرجل يعرف أنها في داخل البيت تنتظر مجيئه الغامض. والمرأة تعرف أنه في الخارج يحوّم سيّداً لهذا الليل الخرافي، وما من أحد الآن قرب بيتها سواه!

❖ ( لم تلتقِ به سوى مرة واحدة.. حين جاءها ليلاً، والدنيا برد. طرق الباب وانتظر إطلالتها التي تأخرت في المجيء. عاود الطرق مرة ثانية وانتظر. سمع وقع خفق نعليها وراء الباب، وتعالى صوتها سائلاً:

❖ «من»؟!

فأجابها :

❖ « أنا الأقطش»!

فانكمشت خلف الباب مثل قنفذ، وكفت عن السؤال والحركة. كانت قد سمعت عنه عندما استأجرت هذا البيت المنفرد قليلاً عن البيوت، والقريب قليلاً من شجيرات الصبار الموحشة نهاراً والمخيفة ليلاً؛ سمعت أنه ابن ليل. لا أحد يعرفه نهاراً. رجل جسور، لا يهاب شيئاً. رجل غامض ومحير وخصب أشبه بالأسطورة. لم تسمع من أحد أنه عرف الرجل أو رآه على الرغم من كثرة القصص والحكايات التي تدور حوله.

حاولت أن تعود إلى الوراء قليلاً لكي توقظ النساء الثلاث النائمات قربها.. لتشدَّ ظهرها بهن؛ لكن صوت الأقطش الناهر الذي جاءها مرة ثانية جعلها تصطدم بالباب فتفتحه وكأنها منوّمة. تقدم الأقطش ووضع قدمه في طرف الباب كي لا يغلق بوجهه. وبدت المرأة بكامل قامتها، وقد شحب وجهها، وكلماتها تتدافع:

❖ «أهلاً .. تفضل» !!

ولم يستجب إليها. ظلَّ جامداً صامتاً في وقفته تاركاً لها المجال لكي تتملاه.. فكادت المرأة أن تقع أرضاً بسبب الروع الذي داخلها، فللرجل وهرة كوهرة الوحش. ولمع البرق من خلف الأقطش فبدا طوله الفارع، ووجهه العبوس. وأشارت له المرأة بيدها لكي يدخل وقد وزّعت نظرها في وجهه تماماً.. فدخل، وأغلق الباب وراءه، فتبعته وهي تتمتم. ثم سبقته متخطية إياه على عجل باتجاه النساء النائمات، فأحكمت الغطاء فوقهن لكأنهن بناتُها. واستدارت نحوه، ودعته إلى الجلوس، وقد بدا لها كجندي يعود من ساحة الحرب للتو، فهيبته هيبة فارس. كان مبلولاً تماماً لكأنه مشى أو وقف طويلاً

تحت المطر. أسرعتْ وحملت منقل النار، وقد توهج جمره، وجاءت به إلى مقربة منه، ووضعته أمام قدميه، وأخذت معطفه الطويل الأسود عن كتفيه، واستدارت به، وعلقته على مسمار في الجدار. أشعرته بودّها ولطافتها لكأنه زوجها يعود إليها ليلاً من سفرته البعيدة.. متأخراً وقد هدّه التعب. يجلس في مكان جلوسها تماماً، قرب غزلها والسنارتين. يرفع بصره، وينظر إليها باهتمام شديد ليتعرفها.. امرأة طويلة، ناحلة، بيضاء، تضيء وجهها بابتسامة وسيعة، وعينين لامعتين. تقفُ أمامه حائرة، تجمع كفيها في صدرها، وتسأله إن كان يريد طعاماً أو شراباً. فلا تكون إجابته سوى أن يمدّ يده نحوها، فتعطيه يدها استجابة للنداء، وتهبط قربه دونما خوف أو نفور. يدقق في وجهها، وتدقق في وجهه. يراها جميلة لكأنها هي صورة الأنثى الأولى. وتراه رجلاً بكراً يطلع من قلب الليل تماماً. يسألها، وقد حارت أين تذهب بنظراتها ونظراته اللائبة:

❖ «أأنت خاتون» ؟!.

فتجيبه بإيماءة من رأسها، إيماءة شبيهة بانخطاف الضوء، أو شلال لون لحبّ رمان تدلقه كفُّ صبية على مهل شديد. وتراقبه انتظاراً لأسئلة أخرى، ولوقت مديد يقضيانه معاً. غير أنه نهض، فنهضت. مشى نحو الباب، فتبعته كالمسحورة وعلى نحو مفاجئ استدار نحوها، ووضع يده على كتفها بحنو ولطف، وسألها:

❖ «والرجال.. يا خاتون» ؟!

فانطفأ بريق وجهها، وتراجفت شفتاها، وراحت تدعك كفيها باضطراب وحيرة، لكأنها خافت أن يأخذها من كتفها إلى خارج بيتها بعيداً نحو ليل فيه مطر، وأشجار صبار، وأشباح، وأذى عميم. فراحت تتلعثم، وتهمهم دون أن تقول كلمة واحدة. وأمالت رأسها نحو كفّه، فأحسّ بوطأة السؤال عليها. قال كمن يودّ إنقاذها:

❖ «الرجال.. يا خاتون» !!

وهزّ كفّه فوق كتفها بمودة.. وخرج! وأغلقت هي الباب وارتمت عليه. أحسّت أن شمساً قوية كشفتها في عزّ هذا الليل، وأن ما كانت تتخوف منه وهماً صار حقيقةً، وأن ما كانت تنتظره قد جاء!

الآن،

تحسُّ بالأقطش يدور حول البيت.. لكأن أنفاسه تشيع داخل البيت. لا بدّ أنه سيطرق الباب بين لحظة وأخرى. والمطر ينهمر بغزارة لكأنه ستارة تحجب وقع قدميه. تنظر إلى النساء النائمات. وتهزّ رأسها، وتعاود غزلها.

إنهن ماضيات في لذاذات نومهن. إن جاء الأقطش فلن يرى سوى

المشهد ذاته.. امرأة تغزل، وإلى مبعدة منها ثلاث نساء نائمات في مفرش وسيع، ومنقل النار أمامها يضيء جمره مثل خرز الزجاج، وبمحاذاتها صحن فيه تين وزبيب. ستقول له إن سألها عن الرجال مرة أخرى: إنهم يعذبونها. يأتون إليها ليلاً مترادفين، حذرين كالقطط. تراهم، من نافذتها، يمشون في عتمة الحيطان كالخائفين. يأتون فرادى، وعيونهم لائبة، ملأى بالشهوة والأسئلة. يتحدثون عن أنفسهم كالفاتحين، فيلعنون قسوة الحياة والزوجات، ونكد الدنيا ويباسها، ويخبرون عن أموالهم، وأملاكهم، ونفوذهم، ويحلمون أمامها بالسعادة المفقودة. وتراهم يغافلونها، فيسترقون النظر إلى النساء الثلاث الملتفّات حول بعضهن بعضاً كعش النحل في الطرف البعيد من البيت، واحدة تمشط شعرها، وواحدة ترقع فتقاً في ثوبها، والأخرى تصلح زينتها. وتعيدهم إليها واحداً واحداً حين تتوقف عن الكلام، فيمضون مخذولين تباعاً.. كالدببة!!.

لاشك أنه الآن.. في الخارج. تحسُّ به تماماً لكأنها تمشي معه. إنها على شوق وقلق لرؤيته مرة أخرى، لذلك؛ تترك غزلها والسنارتين، ومنقل النار.. وتنهض. تقترب من النافذة وتنظر إلى الخارج .. فترى المطر يتهاطل مثل خيطان الفضة وسط عتمة لا تكشف عن أحد، تمسح بلور النافذة براحة يدها.. لعل غباشتها تشق عنه.. فتراه! وتظلُّ واقفة في مواجهة النافذة لعل البرق المتواصل الذي يكشف عن عناق النبات والأشجار. يقوده إليها. تودّ لو تلتقيه مرة أخرى، لتشكره كثيراً، لأن الرجال الذين كانوا يأتون إليها في كل ليلة ما عاودوا المجيء، أبداً منذ أن زارها في ذلك الوقت المتأخر من الليل!! لعلهم عرفوا بمجيئه إليها فما تجاسروا على القدوم مرة أخرى. تشعر بأنها مدينةٌ لهذا الرجل الغامض، وقد هدأ بالها، وراق ليلها وسكن، وأنها ما عادت محطة للأسئلة، أو مكاناً للمتعة!.

ليته يأتي الآن، لتقول له إنها تعاهدت مع هؤلاء النساء الثلاث اللواتي هدهن الزمن، رغم جمالهن الكثير، على أن يمشن معاً ما تبقى في العمر من سنوات.. حالما يخرجن من السجن. فقد تعارفن هنالك، حين باحت الواحدة منهن بقصتها للأخرى، تعاهدن أن يتعاون على الحياة لتصير أحلى. ستقول له إنها دخلت السجن، وهي ابنة أربع عشرة سنة بسبب قتلها للرجل العجوز السمين الذي زوّجوها له. ستعترف له بأن الرجل اشتراها مثلما يشتري بقرة.. فأراد أن يحلبها وهي لم تعرف الحبل والولادة بعد.. فرفسته مرة ثم أخرى.. إلى أن ... فاقتيدت إلى السجن، وهناك سألوها: ماذا فعلت يا خاتون؟! فقالت احترق زوجي لأنه كان يعذبني، ويضربني، ويعضني، ويكويني بقضيب الحديد. يحميه على الجمر.. ويكويني. ها هما فخذاي.. انظروا، وها هو قفاي

وظهري.. انظروا ! رجل لم يقوَ على شيء في حضرتي. يتقرّب إليَّ. يشمّني طويلاً، ثم يضمّني كثيراً.. ويرتجف، وحين أنظر إليه أراه يبكي وهو يلفّ جسدي بنظراته العطشى، ويمسّد عليه، وأسمعه يتمتم: هذه البساتين لمن؟! فأحار به، لا أدري ماذا أفعل له ليقدر عليَّ. آخذه إلى صدري كطفل فأشجعه وأحمسه، ولكن، ما من جدوى. يظلُّ جسدي بارداً كالرخام، ويظلُّ هو يرتجف ويرتعش كعصفور بلله المطر.

واشكو امري لأمي. فتقول لي: اصبري عليه. فأصبر. لكنه، وحين راح يكويني، ضاقت الدنيا عليَّ، صارت كالجحيم .وأنا أرى جسدي يذوب كالشمع تحت قضبان الحديد الحارقة. رجوته وتوسلت إليه كي لا يحرق جسدي. فكان يبكي ، وهو يقول لي: هذه البساتين لمن ؟! وصارحني بأنه سيكوي كل ما يعذّبه من جسدي. فقررت أن ألجأ إلى أمي هرباً منه، فذهبت إليها، لكنها لم تفهمني، وكذّبتني. اتهمتني بأنني أكوي جسدي لأتخلص منه، فحلفت لها أعظم الأيمان وأغلظها.. فما صدقتني. وأعادتني إليه قسراً. تمنيت، في ساعة عجزي، لو أن والدي لم يمت؛ لو أنه عاش إلى هذه الأيام.. لينقذني. ذهبت إلى قبره، وارتميت عليه. أخبرته بقصتي، ورفعت ثوبي ليرى مواضع الحرق، وسألته ماذا أفعل. فلم يجب. قلت له: أنقذني يا أبي، لا تتخلَّ عني.. أرجوك، ومسحت قبره بكفيَّ خمس ست مرات.. ثم مضيت بعد أن سقيت أعواد الحبق الذابلة المحيطة به. ولم أدرِ لحظتئذ لماذا شعرت بالقوة وأنا في طريق عودتي إلى البيت. وفي المساء، حين رأيتُ موقد النار يعج بالجمر، وقضيب الحديد محشو في داخله.. طار عقلي لكأنني أرى القضيب والجمر لأول مرة في حياتي. فتلمست مواضع الكي والحرق، وشممت رائحة لحمي المحروق، فتهضت آلامي دفعة واحدة، واحسست بتفاهة حياتي. لذلك قررت أن أواجه زوجي إن هو أقدم على حرقي في هذه الليلة؛ قررت أن أكويه مثلمايكويني لكي يحسَّ بي. ولكأنه كان يعرف نهايته أو يعجل بها، فهو لم يدع ساعات الليل تتقدم كثيراً، فقد طلبني في وقت مبكر جداً. قلت له: أتريد طعاماً..؟! قال: لا، أريدك أنت..! قلت: تريدني لماذا وأنت لا تقوى على حرثي، دعني أرجوك! قال: أريدك ، اقتربي! فرجوته طويلاً، وقلت له للمرة الألف: حرام عليك. أنت تُعذّبني وتتعذب معي، دعني!. لكنه ألح عليَّ، فامتثلت له. قلت : ها أنذا..! فأخذني إليه. قبّلني طويلا، وشمّني كثيراً، ولَمس عليَّ، ثم شرع يبكي، ويهمهم: هذه البساتين لمن؟! لكأنه يغني أو يمثل طقساً ما، ورأيته يتركني ويقوم إلى الموقد. فاعتصرني الألم، وأخذتني مشاهد الحرق. وسألني أن أناوله أية قطعة قماش ليقبض بها طرف قضيب الحديد المُحمّى. فهاجت روحي ونفرت، فتقدمت نحوه، وبيدي قطعة

القماش، وأنا ارجوه ألا يحرقني، لكنه كان يبكي، وكأنه في عالم اخر، ويهمهم: هذه البسماتين لمن؟! ولم ادر كيف تعثرت به فانقلب فوق منقل النار: فوق الجمر تماماً، فصرخ، وقد شعر بحرارة النار، وصرخت أنا أيضاً لكأنني أنا التي أحترق. حاولت أن أسحبه نحوي بعيداً عن الجمر. شددته، وشدني.. إلا أنه كان ثقيلاً جداً فوقعت عليه، صار تحتي تماماً. وقد انغمر وجهه في الجمر. وتعالى صراخه كوحش وقع في الفخ، وتعالى صراخي أيضاً لكي أنقذه، فلم أستطع. وكان أن جاء الجيران، والناس، ثم أمي، ثم الشرطة. أخذوه إلى المستشفى، وأخذوني إلى السجن الذي لم أخرج منه إلا بعد عشرين سنة.

أجل، إن جاء.. سأقول له كل شيء!.

لكي لماذا لم يأت، ولماذا لم يدخل؟! منذ قليل فقط كنتُ أحسُّ به يمشي حول البيت. إنني متأكدة أن مامن أحد في المحيط سواه الآن، ليته يأتي!!.

إن جاء.. سأقول له إن هذه البنت الشقراء، صفية، دخلت قلبي منذ رأيتها لأول مرة في السجن. أخذتها من يدها، واقتدتها إلى مفرشي. أجلستها إلى جواري، وغسلت لها وجهها، ويديها، وخلعت لها حذاءها، ومشطت شعرها الطويل الأشقر، وقبّلتها، عذّبتني دموعها الغزيرة. فرجوتها ألا تبكي. قالت لي: أنا مظلومة! فهززتُ لها رأسي، وقلت: الآن، أرجوك أن تأكلي إن كنت جائعة، أو أن تنامي إن كنت متعبة! فطاوعتني، ونامت! وحين استيقظتْ في آخر الليل رأتني قربها كالملاك الحارس أنظر إليها كأنها مرآتي. فابتسمت لي. يالله، ما أجمل ابتسامتها. أحسستُ بها كأنها قنديل يضيء رحابة عنبر السجن المعتمة. أشعلت شمعتي، وأجلستها. وسألتها إن كانت جائعة، فأومأت خجلاً، فأخرجت لها جبني، وزعتري، وبعض عروق النعناع، وحبات من الزيتون الأسود، وهيأت لها كأساً من الشاي، وشاركتها في الطعام. وبكيت قهراً لأن جمالها الساحر سيذوب هنا، فمثلها تكون أميرةً لا سجينة! وعرفت منها أنها أحبت شاباً فهربت معه بعيداً عن قريتها وأهلها. قالت له: من أجلك أذهب معك إلى آخر الدنيا، وليس لي من شرط سوى أن تحبني.. فقط. وهناك في المدينة أدخل عليها أولياء أموره في الوظيفة. قال لها: هذا مدير.. روحي بيده، وهذا نائب مدير، رضاه غايتي، وهذا رئيس ديوان ستارتي أمام الآخرين، وهذا كبير المحاسبين ماء حياتي، وهذا.. فصدّت عنهم جميعاً. وعاتبته بمرارة ولوم. قالت له: أهكذا؟! أنا طلّقت أهلي وقريتي والدنيا بحالها من أجلك، وأنت الآن تدخل عليَّ هؤلاء.. أما تحبني؟! فاتهمها بالتحجر والتخلف، وقلة العقل، وعدم الواقعية، وسألها السؤال المُرّ: وماذا ستخسرين إن سايرتهم؟! فتصمت، وقد أحسّت بنذالته. وشاء القدر أن فتن بها المدير، فأكثر من التردد عليها في أوقات غياب زوجها، وزاد في الإلحاح والمطالبة، لكنها صدّته مرات

ومرات، وهددته بالجيران فما تواني عن المجيء إليها، وفي إحدى المرات لم تدر من أين نبت زوجها، فاستشاط غضباً وهو يراها تقسو على المدير وتشتمه، وصرخ بها: إنه المدير، فمن تظنين نفسك؟ فقالت له: مدير عندك، كلب عندي! فضربها حتى كاد يقتلها. وقد فهمت منه أنه على علم بمجيء المدير إليها يومياً، فسألته: لماذا لاتحميني منه! فقال: أحميك لماذا، فالرجل يكاد يجن بك!! لحظتئذ لم تحببه، ولم تسمع صوته مرة أخرى لأنها لم تدر كيف التحمت به فأطبقت على عنقه حتى تلوّى بين يديها. وسقط!

أعرف انه سيعذرها، إن جاء، وسيتأسف كثيراً لأنها قضت سنوات طويلة من عمرها في السجن لأنها قاتلة. وإن أراد معرفة قصة هاتين الجميلتين المجاورتين لـ صفية، مرجانة وندى، فسأقول له إنهما لقيطتان، لا أهل لهما، ولابيت. عاشتا في الميتم، ثم هربتا منه وهما في العاشرة من عمريهما. خَبرت كلٌ منهما الحياة بمرّها وحلوها، فعرفتا معاً دروب الخديعة، والاحتيال، والفقر، والغنى، والسرقة، والأكواخ، والقصور.. والرجال. عركتهما الحياة وقست عليهما، فكانت محطتهما الختامية في السجن بعد كل هذا الجولان، وسأخبره بأنهما، ومع مرور الأيام.. تابتا نادمتين!!

الآن،

إن جاء، سأقول له أشياء كثيرة، سأفتح له قلبي.. وأغلق عليه، لكن أين هو؟! لعل المطر الغزير يمنعه من المجيء. ياإلهي كم انا بحاجة إليه الآن، ليته يأتي.. سأجلسه هنا فوق هذا الجلد الدافئ، وأقدم له التين والزبيب، وشراب القرفة المغلي. سأنظر إليه طويلاً لأحفظ تفاصيل وجهه، سأدعوه إلى أن يأتي إليَّ بثيابه لأغسلها له، وسأرجوه أن يمرَّ بي كل ليلة، ولو للحظة واحدة، لأطمئن عليه!! ليته يأتي الآن، فيمحو هذا الانتظار.. الثقيل!!.

❖ ❖ ❖

# مذكرات تشرشل

قصة

سحبان العمر (*)



- الطيران الألماني سيستنفد قوته لا محالة !!

قالها ببرود... رجل هرم، بدين، متورم، يبدو كتلة واحدة بلا تفاصيل،انهزمت ساقاه تحت ثقل جسده ... غاصت عنقه، عرّشت جمجمته بين طيّات الشحم. قوّاده مجتمعون معه، يلتقطون انفاسهم المتلاحقة ... هل أراد أن يرفع الرهافة في أسماعهم، أم هو مزاح كمطر الصيف ؟!!...

الحرب العالمية الثانية تحتدم معاركها، مئات الطائرات الألمانية، تشنّ عشرات الغارات على لندن كل يوم... ورغم ذلك، فتشرشل مطمئن:

---

(*) سحبان قدري العمر: أديب وقاص من سورية. من أعماله: «الصقيع».

- الطيران المعادي سيغدو أثراً بعد عين!!...

اغتسلوا بعرق المفاجأة... الدوار تحلزن في رؤوسهم... برعم صغير من وردة الأمل تفتح في صدورهم... تصلبت استفساراتهم على شفاههم، ولم يعقبوا... يعرفونه شرهاً، لا يتجرأ أحد على مقاطعته وهو يأكل .... واصل حشو فمه بالطعام، وضجيج صمتهم يعبث في قلوبهم...

❖ ❖ ❖

ليل عابس الوجه أسود، يضخ الظلام، تمدد بين الروابي والسهول، مرتدياً وشاحه، سماؤه محتقنة بالغيوم، تزفر الريح الباردة في آذانها، عواء الكلاب يخترق رداءه، زجاج نافذتك يرتجف من هلوسة العاصفة... كنتَ مستلقياً على حافته تقرأ، ابتسامة المصباح تضيء غرفتك الصغيرة، وقد أسبل الحذر سكينته عليك.... زغردت النار في المدفأة... تسرب دفء لذيذ إلى أطرافك...

عقارب الساعة تتجاوز منتصف الليل، هدأت الريح، رذاذ خفيف يرطب الجو ، لذّ السهر ... حفيف حذر لأوراق الأشجار يمزق سكون الليل ... سمعت طرقاً خفيفاً على الباب.... ركنت الكتاب جانباً.... نهضت بتثاقل.... فتحته..... برز من خلفه رجل طويل، تختصر قامته القصب، يتسربل وقاراً.... رسمت السنون خطوطاً متعرجة في تضاريس وجهه العتيق، الذي قُدّ من صخر....

- تحياتي سيدي.... تفضلوا....

- أراك ما تزال ساهراً كالعادة تقرأ... ما الكتاب الذي بين يديك؟!

- مذكرات تشرشل....

❖ ❖ ❖

همسٌ أصمٌ يدور بين قادة عسكره «هناك سلاح سري للغاية، خبأه عن أقرب مقربيه، سيسحق الطيران الألماني... ولّى عهد الأسلحة الكلاسيكية.... جاء الفرج...يا له من داهية»..

انتهى من التهام طعامه، تجشأ... أومأ إلى الخادم أن تجلب الفواكه والحلوى.... التفت إلى قوّاده... استدارت عيناه لتبتلع الوجوه دفعة واحدة:

- الطيران الألماني سيستنفد قوته لا محالة... لندن هادئة... سماؤها صافية، لا طائرة معادية في أجوائها، لا قنابل، لا صواريخ، لا حرائق، لا دخان...

سقطت عباراته من شفتيه، لتلتصق بأسماعهم كالأصماغ، أو كقرص العسل الذي يجتذب النحلات... ملامحه خاوية من أية تعابير تنم عن عواطف إنسانية، كالفرح والدهشة أو الحزن، غير أن بريق عينيه كان يتقن المراوغة...

صهلت جياد الحيرة والترقب في عيونهم، ثم انحسرت حركتها في محاجرها وتجمدت، وهي ترى الخادم التي خرجت تجلب الحلوى، وقد تمزّقت أشلاءً على بعد خطوات منهم... همس صامت يجول بينهم «المضادات الأرضية، تقف عاجزة تكاد لا تفعل شيئاً، كأنها ألعاب الأطفال... يا تشرشل.... القصف وصل مقرّ قيادتك، وقتل خادمك... أرنا سلاحك السريّ الرهيب... عجّل، لنكسب الوقت، قبل أن ننهار، أو تتخطفنا يد المنون جميعاً»...

❖ ❖ ❖

امتدّت يده إلى سطح المنضدة، سحب الكتاب، رازه، نقّله بين كفيه يزن ثقله:

- مذكرات تشرشل.... ضخم دسم غني.... عندي نسخة منه، قرأته ثلاث مرات.. لا أزال أذكره فصلاً فصلاً.... تشرشل رهيب... ابن حرام، ثعلب، داهية...

قلّبه بين يديه، وزنه ثانية، ربت عليه بحنو، غمزني مستعظماً ثقله، وكبر حجمه.... عقبت ببراءة:

- إنه الجزء الأول.... انتهيت منه البارحة... نصّصتُ الجزء الثاني، قد أنتهي منه قبل أن أرقد الليلة....

خطف الجزء الثاني من يدي ثم صاح:

- بالطبع إنه في جزأين... أضخم وأدسم... قرأته أربع مرات، ترك في نفسي أثراً لا يُنسى.... أكاد أحفظه عن ظهر قلب...

ساد صمت بيننا، لم يقطعه سوى صوت صفحات الجزء الثاني، الذي أخذ يقلّبه بين كفيه، وقد ارتسمت على وجهه المندهش بكبره وثقل وزنه، ملامح طفل سعيد، أرضعته أمه من ثديها بعد حرمان....

أغلق الكتاب، نظر في عينيّ باهتمام:

- يا أحمد... إنني أهوى السياسة، وبخاصة مذكرات الكبار... هتلر ... إيزنهاور، ديغول، نهرو... ايدن، غوربتشوف... وابن الحرام تشرشل، الذي أطبق علينا الليلة مثل القضاء المستعجل... آه.... لو قضيت عمري كلّه اقرأ لما مللت!!...

- يا سيدي... سيساهم في وجوههم... أنوار الثقافة تسعى بين أيديكم... لا بدّ أن مكتبتكم عامرة بآلاف المجلدات من أمهات الكتب...

- أجل.... أجل.... خمسة آلاف مجلد بالتمام والكمال... قرأتُها جميعاً من الجلدة إلى الجلدة... المطالعة يا أحمد هي الغذاء الأمين للروح والذهن... والتوازن الحقيقي للإنسان أن يغذي عقله كما يغذي جسده....

❖ ❖ ❖

حُرم تشرشل من الحلوى والفاكهة، لكنّه ما يزال يملك علبة «سيجار» من النوع الفاخر.. تناول واحداً منه بوله، أشعله، غاصت سحب أمواج الدخان فيّ رئتيه، وأحشائه، وسرت في شرايينه، وتسربت إلى أخمص قدميه... نفث سحابة في فضاء مجلسه، فملأ الهباب المتطاير عيون قادته وخياشيمهم.. نظراتهم تكاد تلتهمه لشدة شوقها وشغفها... قذائف مكتومة تفرقع في الصدور... يحومون حول أنفسهم كالتائهين في الصحراء، تراودهم وساوس شتى....

الخوف المغلّف بالأمل، يفرد جناحيه، ويبني عشّه في قلوب تمالى وجيبها إلى حدّ يصمّ الآذان.. ازدحمت في آذانهم حرائق التساؤلات عن السلاح السرّي الرهيب الذي أخفاه عنهم طوال هذا الوقت... أهو حقيقة، أم أكذوبة كبرى ؟!!.... لكنهم لم يعرفوه يوماً إلا جاداً!!... ساعة الصفر تقترب، عقارب الزمن تتجه نحو الحسم... علائم الارتياح تملأ وجهه... لقد اعتادوا أن يماجلهم بأدق تصوراته، وأخطر قراراته، حين يغرق في أنفاس «سيجاره»....

❖ ❖ ❖

سمعت قرقعة بخار الشاي، فقمت القّمه، واصبُّ كأسين، نزدردهما معاً... مصمص شفتيه من بقايا القطرات العالقة بهما، ثم قال:

- تعساً لأبناء هذا الجيل... جيل التلفزيون، والديسكو، والقصف والهذر... لقد تمنيت على ربي أن أرى أحد أبنائي يقرأ، دون أن أسلّط على رأسه العصا... مايعلي منزلتك عندي ياأحمد، أنك قارئ ممتاز... العتمة لاتسكن عينيك...

- أخجلتموني ياسيدي... مديحكم فضل أعتز به... الله يسترنا بستره... جيل جاهل، لايعرف أين يضع أقدامه... لكننا لن نفقد الأمل، طالما أنتم قدوتنا، نتعلم منكم...

- إيه.. سقى الله أيام الشباب... للسن حقه ياأحمد... لقد كلّت عيناي من القراءة، وتعبت بسرعة هذه الليلة، فخرجت إلى الفلاة، بعد أن هدأت العاصفة، وأمسى السكون نديّاً، لأستنشق هواءاً نقيّاً... وكالعادة لم أجد غير ضوئك مشعاً، بينما شخير زملائك يسد الآفاق!!...

وبحركة لاشعورية امتدت يده إلى الكتاب، يروزه، يستعظم حجمه يمطّ شفتيه هامساً:

- ضخم... ضخم جداً... كلّه تجارب وعبر، أكاد أراها تمرّ أمامي كشريط سينمائي...

❖ ❖ ❖

نظر إليّ نظرة مليئة بالترقب والعتب، وقد سألته متمهلاً، إن كان يرغب في كأس أخرى...

قاطعني بحدة:

- أُتخمنا من الشاي... أكمل القصة بربك، لقد استنفرتَ حواسي كلّها ونشّفت دمي ببرودك، ما السلاح السرّي الذي حطم به تشرشل الطيران الألماني وانتصر!!...

تابعت قصتي على الفور بألفاظ لاهثة:

- استمر صرير الوقت طويلاً... أراد قوّاده، أن يستشفوا ماوراء السطور المكتوبة في دفتر عينيه، فلم يظفروا بطائل، وأتعبهم فضول الأمل المشرّش في قلوبهم، فظلّوا طيّ حيرتهم...

رفع تشرشل أشلاء نفسه بصعوبة، يسوّي قامة كلماته، نطق الرجل المحاصر بالصمت والعيون التي جحظت من شدة الذهول، فقال: مئة غارة ذاهبة، ومئة غارة عائدة... سيأتي يوم ينقضُ فيه الطيران الألماني على لندن، فيجدها خراباً يباباً، حجراً على حجر... مدينة أشباح، ينعق فيها البوم والغربان... أية قنبلة تُرمى بها خسارة لاطائل منها... عندها يستنفد الطيران الألماني قوته، ويعود أدراجه من حيث أتى!!..

سكتُ أراقب وجهه الذي عبرته الدهشة، وقد فغر فاه وصرخ دون وعي:

- نادرة جميلة ومشوقة... غريب... إنني أسمعها للمرة الأولى في حياتي... بالله عليك من حدّثك بها؟!!...

تسربت كلماته بين أسارير انفعاله، فابتسمت ابتسامة طواها الخجل والحرج:

- تشرشل في مذكراته... لابد أنك نسيتها ياسيدي... جلّ من لاينسى!!..

❖ ❖ ❖

# تكريم السيد الرئيس بشار الأسد للكتاب

- كلمة السيدة وزيرة الثقافة الدكتورة نجوة قصاب حسن



- كلمة الدكتور شاكر الفحام رئيس مجمع اللغة العربية

- كلمة الدكتور عبد الكريم اليافي

- كلمة الأديب الروائي حنا مينه

- كلمة الأديب القاص زكريا تامر

132

## وسام يوسع مساحات الأمل

الدكتورة نجوة قصاب حسن
وزيرة الثقافة



في الفلسفة تعلمنا كيف ترتبط قيم الحق بالخير والجمال، وكيف تتلازم المثل وتتكامل، فالعدل هو الحق، والخير جميل، يتوحدون في منظومة فكرية أخلاقية تمثل الحكمة والمعرفة.

في واقع الحياة وفي هذا الموقف الذي شرفني فيه السيد الرئيس بشار الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية بأن أمثله في منح وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة لخيرة مفكرينا وأدبائنا، أرى فيه ذلك التوحد والتكامل بين قيم الحق والخير والعدل، حيث تجسد هذه اللحظات توجهًا يغتني بمضامين الحكمة والعطاء، وتشهد على عدل الحياة لمن يعطي بصدق وإخلاص، لأن هذا التكريم الفائق في مستواه ومحتواه ما هو إلا تقدير للنموذج الذي يمثله أساتذتنا الكرام في الإخلاص للحق والبذل.

إن الشرف الكبير الذي أولاه السيد الرئيس **بشار الأسد** بمنح وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة لكلٍّ من أستاذي الدكتور عبد الكريم اليافي والأديب الكبير الأستاذ حنا مينه والأديب الأستاذ زكريا تامر هو وسام شرف لكل إنسان يعرف معنى العطاء، ويبذل من ذاته وفكره وإنسانيته، وسام يعزز مناحي الخير، ويشهد على الحكمة والعدل، حيث لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وسامٌ يوسع مساحات الأمل والاستبشار أمام كل من يعمل بصدق وصمت لا يبغي من عمله إلا الخير العام والارتقاء بإنسانية الإنسان.

في هذا الموقف الذي شرفني به السيد الرئيس **بشار الأسد** أرى قيمة النبل والشفافية، وأدرك كيف بني هذا الاختيار استناداً إلى مقومات متماثلة لدى أساتذتنا الكرام تشير إلى مكونات أساسية عنصرها الأول هو عمر متكامل من العمل والبحث والاجتهاد، وعنصرها الثاني عطاء متدفق لأجيال متعاقبة تعلمت وتذوقت واستزادت من هذا المخزون المعرفي الثَّرّ.

هدفهم في هذا وما يزال تعزيز الهوية الحضارية لهذه الأمة، وتعميق الانتماء إلى وطن يمتد تاريخه إلى زمن بزوغ الحضارات الإنسانية، ويباهي بأسبقيته وعظمة رصيده المعرفي شعوب العالم.

كثيرون هم الذين يساهمون في بناء الوطن والأجيال. وكلهم يستحقون الشكر والثناء، إلا أن التميز الذي يتسم به أساتذتنا القديرون كلٌّ في مجاله هو أنهم نقلوا خبراتهم ومعارفهم بصدق وإخلاص.

أستاذي الدكتور عبد الكريم اليافي، الذي تخرجت أجيال من أساتذة الجامعة الذين يقرّون بفضله، يعرفه الجميع بموسوعيته المعرفية، وتواضعه العلمي، لاأستطيع أن أحيط في لحظات من الزمن حتى باستعراض عوالم معارفه أو ذكر ميادينها، لأن حكمته قد ألَّفت بين هذه العلوم والمعارف، وبنت منظومة معرفية متكاملة متناسقة تتكامل فيها أواصر الفلسفة بالعلم والدين والأخلاق مع غيرها من ميادين العلوم الإنسانية.

وإنني أسمح لنفسي أن أستعير من الفيلسوف ابن سينا وصفه للإنسان العارف الذي امتلك أعلى درجات الحكمة في وصف أستاذي القدير عبد الكريم اليافي حيث قال: (العارف هشٌّ بشٌّ بسام.. يبجّل الصغير في تواضعه كما يبجل الكبير. العارف شجاع، وكيف لا وهو بمعزل عن تقية الموت. وجواد، وكيف لا وهو بمعزل عن محبة الباطل. وصفاح، وكيف لا ونفسه أكبر من أن تجرحها زلة بشر. ونسّاء للأحقاد، وكيف لا وذكره مشغول بالحق).

أن أذكر في هذا الوقت المحدد مزايا أساتذتنا الكرام وعناوين عطاءاتهم فهذا

يشبه من يطلب إليه أن يختصر تاريخ نصف قرن بكلمات، فلا يتحقق ذلك إلا بذكر رموز فكرية أو فضاءات عقود.

كذلك الأمر حين أريد أن أعرِّف بمن تُعرَّف بهم هوية مرحلة أو مضمون مدرسة أدبية فنية، فهو لا يعرَّف به بل هو يعرف بها، فالأستاذ الأديب حنا مينه الذي سجل خلجات نفسه ونبضات فؤاده وما سكن في ضميره واعتلج في صدره كان أديبًا وفنانًا يساهم في تصوير ملامح مرحلة فكرية واجتماعية وأدبية، في صوره الحياتية المغرقة في التفاصيل والمعاشة، كان يساهم في صياغة وجدان شعب وملامح هوية، وحين كان ينطلق من الخصوصية الدقيقة كان يصل إلى العالمية، لأنه عرف كيف يقرأ النفس البشرية، ويدخل إلى صميم مكوناتها، فكان كأنه يقرأ كتابًا مفتوحًا ينفذ فيه ببصيرته وإحساسه المرهف وصدق تصويره، لذلك أصبح فكر الأستاذ الأديب حنا مينه مدرسة متمايزة يتعلم منها العديد من الأدباء والكتاب، ومحط بحث ودراسة للعديد من الأطروحات العلمية التي تبحث في أدب سورية وأدباء سورية المعاصرة.

وفي مجال الأدب والفن كان ومايزال يلمع اسم الأديب الأستاذ زكريا تامر الذي استهواه البدء بالبراعم والبذل للأطفال، لأنه علم أنه سيساهم في بناء فكر المستقبل وإبداع المستقبل. ترسم تفاصيل أدبه وشخصيات قصصه ملامح فكر وخلق وحضارة يذكرها ويذكر بها، أديب استحق اسمه الكبير من خلال عمل وأداء متميز وفن أصيل، ولفتات إنسانية، ما تزال تتجدد في نفوس من تبناها، لتزهر عطاءات زاهية، تستمد من الجذور لتعلو في عالم الفكر واستكمال مسيرة البناء والتقدم عوالم وفضاءات مميزة، استحقت تكريمًا مميزًا وتقديرًا يعلم الوفاء، وكيف يكون الرد الجميل لمن أعطى فصدق. دروس حضارية تتعلم منها الأجيال، وتستمد ركائز استمرار عراقتها ومواقفها الحضارية الأصيلة.



وإنني إذ أقف اليوم محملة بشرف أمانة سامية من رعاية سامية للعلم والعلماء والفكر والإبداع إنما أنقل رسالة قيمية وحضارية جسَّدها السيد الرئيس بشار الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية في هذا التكريم والتقدير للمخلصين والمبدعين من المفكرين والأدباء، رسالة أمام العالم نقرأ بين سطورها عزة هذا الوطن، ورسوخ بنيانه، واستمرار قيمه الخالدة.

أجمل التهاني لأساتذتنا الكرام، وأصدق معاني الولاء لمن يعلِّم النبل، ويجسِّد الوفاء، للسيد الرئيس بشار الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية.

## كلمة الدكتور شاكر الفحام رئيس مجمع اللغة العربية



الأستاذة الدكتورة نجوة قصاب حسن وزيرة الثقافة، ممثلة سيادة رئيس الجمهورية العربية السورية

العلماء الأجلّة - أيها الحفل الكريم

يحتل الفكر والعلم والثقافة والآداب المكانة العليا في حياة الأمم، وعلى أيدي المفكرين والعلماء والأدباء وأمثالهم من المبدعين قامت الحضارات وانتشرت، لترسم للإنسانية طريق التقدم والازدهار، فتاريخ الإنسانية الحقّ إنما هو هذه السلسلة المتتابعة من الحضارات التي توالت، وارتقت بالإنسان رقياً لا يكاد يصدَّق، حتى لكأنها خلقته خلقاً جديداً.

وقد تحدث الدارسون الباحثون عن أسباب هذه النهضات الكبيرة، وأشاروا إلى عامل مهمّ وهو توفير المتطلبات الأساسية التي تهيء للمبدعين والمفكرين والعلماء أن يعملوا في أجواء مناسبة ليحققوا أفكارهم وتطلعاتهم، ويبدعوا.

ومن هنا حرصت الدول التي خطت في سُلّم الحضارة على أن تشجع العلماء والمفكرين والأدباء والمبدعين، وتُلبّي مطالبهم، وتحوطهم بالتكريم والرعاية تقديرًا لمكانتهم، وما قدّموا لمجتمعهم في سبيل نهوضه ورفعته.

وقد مضت الدول التي تنشد التقدم والارتقاء على الطريق نفسه، ليتاح لعلمائها ومفكريها وأدبائها ومبدعيها أن يقدموا خير ما عندهم من أعمال.

إن تكريم النابغين من أبناء الأمة والعناية بهم أحد العوامل الأساسية المساعدة التي تقود الأمة في مدارج الرقيّ، لتعيش حياة كريمة، وتساير ركب الحضارة العالمي. وإنما تقاس الأمم بمفكريها وعلمائها ومبدعيها الذين يرفعون القواعد الثابتة لنهضتها وتقدمها.

وإن اجتماعنا اليوم احتفاءً بالتكريم الذي أولاه سيادة الرئيس المفدّى بشار الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية كلاً من الأساتذة المفكرين والأدباء. الدكتور عبد الكريم اليافي، والأديب حنا مينة، والأديب زكريا تامر وحضورنا حفل تقليدهم وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة الذي نالوه تقديرًا لإنجازاتهم وإبداعاتهم في مجالي الفكر والثقافة ليدلُّ أبلغ الدلالة على المكانة الممتازة التي يحظى بها مفكرونا ومبدعونا.

وإني أهنئ التهنئة الخالصة الأساتذة المكرّمين الثلاثة لعطائهم الرائع، ونتاجهم النفيس، وآمل أن يكونوا القدوة الطيبة للأجيال الناشئة لتسلك سبل الابداع.

لابد لي هنا من وقفة قصيرة أعبر بها عما يملأ نفوسنا من تقدير كبير وإعجاب بالغ بخطوات السيد الرئيس بشار الأسد البنّاءة، وسعيه الحثيث للسير قدمًا في التطوير والتحديث، والتغلب على الصعاب لتحقيق أهداف الأمة.

وإننا لنرفع إلى سيادته بهذه المناسبة الغالية، مناسبة تكريم المفكرين والمثقفين، أسمى آيات الثناء والشكر، تأييدًا لمسيرته الموفقة المظفرة، وتشجيعه من يقدم لوطنه العطاء. وإننا جميعًا جنود أوفياء مخلصون لقائد المسيرة، نلتفُّ حول رايته، ونقدم كل جهودنا لنحقق لأمتنا مزيدًا من التقدم..

أيها الحفل الكريم

إن الأساتذة المكرمين أعلام كبار، يتمتعون بالشهرة الطيبة والتقدير البالغ، وتوجب عليّ زمالتي للأستاذ الدكتور

عبد الكريم اليافي أن أقول كلمات بهذه المناسبة.

الأستاذ الدكتور عبد الكريم اليافي يكاد يكون نسيج وحده، فهو موسوعي الثقافة، متعدد جوانب المعرفة، مشغوف بالمطالعة، قويّ الذاكرة، يستحضر النصوص المغيَّبة، في بطون الكتب حين يشاء، وقد أولع بالقراءة والدرس منذ طفولته. يقول عن نفسه: «كنت ناشئًا متفتحًا على جميع أنواع المعارف، فكان أمامي أن أكون الأول بين الطلاب في جميع الدروس بتواضع ومحبة كبيرين. ولذلك كنتُ أصرف أوقاتي في اتقان الدروس المختلفة التي كنت أتلقاها».

ومن ذكرياتي التي لا تنسى أني حين أنهيت الدراسة الابتدائية بمدينة حمص، ودخلت مدرسة التجهيز، وكانت المدرسة الثانوية الرسمية الوحيدة، طالعتني لوحة الشرف المعلقة ببهو المدرسة، وكانت مزيَّنة باسم أستاذنا الجليل المحتفى به الدكتور عبد الكريم. فأثار ذلك إعجابنا، وتساءلنا عن الأستاذ اليافي وكيف نوفق للقائه، فقيل لنا إنه يكمل دراسته في دمشق، وكنتُ متلهفًا للقائه، فلم يتمّ لي هذا اللقاء إلا في عام ١٩٤٥م، حين عاد إلينا من باريس يحمل شهادة الدكتوراه، وكانت دراسة نفسية وجمالية لشعر ابن الفارض.

ويدهشك الأستاذ الفاضل الكريم بكثرة شهاداته التي نالها، وبالأعمال التي أُسندت إليه، إضافة إلى عمله الأساسي في الجامعة، وكثرة تآليفه وتنوعها، ومقالاته وغزارتها، دع عنك الندوات والمحاضرات والأحاديث. وله ديوان شعر جميل صدر عام ٢٠٠١م باسم «حصاد الظلال»، حوى من قصائد الشاعر ما يراوح بين سنتي (١٩٣٩ - ١٩٩٩م).

لقد جاوزت كتبُ الأستاذ العشرين كتابًا، تنوعت موضوعاتها تنوع ثقافته الموسوعية، وكان آخر ما صدر له كتابه الرائع الممتع:

حوار البيروني وابن سينا (صدر عن دار الفكر عام ٢٠٠٢م).

ولعل من الخير أن يُجمع هذا النتاجُ النفيس الغزير، ويُطبع تحت عنوان «الأعمال الكاملة»، وآمل أن يتم ذلك قريبًا إن شاء الله.

ولئن كانت كتبُ الأستاذ الكريم تشدُّ قارئها بما تتميز به من عمق في الفكر، وأصالة في البحث، وجمال في الأسلوب، وجمع لأطراف البحث المتباعدة، إن أكثر ما يشدّني إلى قراءته منها هو ما كتبه في دراسة اللغة العربية والتراث العربي الإسلامي بأوسع معانيهما.

وإن مؤلفات الأستاذ ومقالاته قد أضافت إضافات جديدة بغناها، وستظل مرجعًا خصبًا للقراء لما تتميز به من

نظرات مبتكرة، وعمق في المعالجة وإمتاع في الأسلوب.

أعود فأهنئ الأساتذة الثلاثة المكرمين أطيب التهنئات وأكرمها لإنجازاتهم النفيسة المبتكرة. وأشكر الأستاذة الدكتورة نجوة قصاب حسن وزيرة الثقافة ممثلة السيد الرئيس في هذا الحفل البهيج الذي ضمّ الصفوة المختارة، تتفضل بتقليد الأساتذة المكرمين أوسمة الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة تقديرًا لإنجازاتهم وإبداعاتهم في مجالي الفكر والثقافة. وإنها بنشاطاتها الفياضة وعملها الدؤوب قد حركت الجو الثقافي والحركة الإبداعية مما يبشر بخير كثير إن شاء الله.

خيرُ ما أختم به كلمتي أن أرفع أسمى آيات الشكر والثناء لقائد المسيرة راعي العلم والعلماء الرئيس بشار الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية لشمائله الغُرّ سجاياه الكريمة في تقدير العلماء والمفكرين وتكريمهم ومنحهم أرفع الأوسمة.

## كلمة الدكتور عبد الكريم اليافي



بسم الله الرّحمن الرّحيم

أيّتها السيّدة الراقية الأستاذة الدكتورة نجوة قصاب حسن وزيرة الثقافة، ممثلة فخامة رئيس الجمهورية السورية.

أيّها السادة الحضور المحترمون.

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، الهادي إلى سُبُل العلم والمعرفة ورفعة الدرجات وصلاح الدنيا والدين.

أما بعد فإن أفضل تكريم يناله المرء تكريم وطنه له. فكيف إذا كان التكريم صادراً عن أرفع سلطة في الوطن، فخامة رئيس الجمهورية، العالم المخلص السياسي القدير الملهم العربي القومي الإنسانيّ الدكتور بشار الأسد.

يا فخامة الرئيس! إن إحدى شمائلك الجُلّى إجلالك للعلماء والمفكرين والفنانين، وتفرُّدك لغايات المحاسن، وجمعُك أشتاتَ المفاخر. تلك مناقب تحلَّيتَ بها وتَحلَّتْ بك على غرار والدك وسلفك الهمام الرائع. هذا الوسام الذي تمنحني إياه كرم من فيض أفضالك، ورمزٌ يكبرُ مني في مجال الفكر والثقافة، كما يكرّم أمثالي وأندادي ممن شُهروا وسار ذكرهم في ميادين العلم والتنقيب في مهامه العلم الفسيحة وأجواء الانتماء القومي الصحيح وحلبات البحث القويم، وذلك في كنوز التراث العربيّ والعالميّ ومختلف أبواب المعرفة قديمها وحديثها. أدام الله لك يا فخامة الرئيس سوابغ النعم ولازلت ولا زالت البلاد من الخير معك كلَّ يوم في مزيد!

ثمّ إنّي أرفع أطيب الامتنان وأفضل الثناء وأجزل الاحترام إلى السيّدة الأستاذة الدكتورة نجوة قصاب حسن وزيرة الثقافة التي ترعى أحلى رعاية وأتمّها جهود المثقفين والعلماء والباحثين والفنّانين. وهي في كمال نشاتها ونقاوة صباها كأنّها الأم الرؤوم للفكر والثقافة. فلا بَرِحْتِ يا سيدتي تُهنِّئين بالهمة الممتازة والسعي الراقي والعَمل الحميد!

والشكر كلُّ الشكر لرئيس مجمع اللغة العربية على تفضّله بهذه التقدمة الجميلة البديعة بكلام سائغ سلس عذب، مالحسنه نهاية. ولاعجب وهو من أعطته الفصاحة قيادها، أن يشيد بي وبكاتبين ألقت البلاغة إليهما زمامها.

أيها السادة الحضور الأكارم!

إنّ لي الفخر أن أنتسب إلى كوكبة المعلمين والأساتذة الذين انصرفوا كلَّ الانصراف في عملهم إلى العلم والتعلّم والتعليم. لقد مضى عليّ أكثرُ من نصف قرن في جامعة دمشق وأنا مرهف العزم يقظ الجنان نهّاضٌ بهذه الأمور الجليلة. ومازلت أعشق العلم وأخفّ كالبرق إلى مناهله العذبة الشهيّة. إنني لأشبّه المعلم بالزارع الذي ينشر البذار ويرعى الغراس والثمار ويقلّم ويشذّب ويشقف لكي تأتي مواسم الخير والعطاء في إبّانها. ولايكفيه أن يكون دؤوبًا في البحث عن جوانب الفكر وينابيعه قديمها وحديثها، وأن يحلّي نفسه وعقله ووجدانه بحلاها. ولكنه مسؤول عن بثّ المعرفة التي يختصّ بها، ونشر الثقافة على طلابه ومريديه بأفضل أسلوب رائق وأمتع سبيل يصل إلى قلوبهم وعقولهم، وأسطع بيان مشرق وأسوغ غذاء مغدق يتلقّونه سغابًا جَوْعى للنشوء والارتقاء. وهو غذاء يكون قد جمعه ووعاه وتمثّله ليلقيه سائغًا طيّبًا إلى طلابه الذين ينتظرون لقاءه في الدروس ويأملون حواره فيها. وها هوذا بعد أداء واجبه ينظر إلى تنشئتهم الصحيحة ونمائهم السليم رجالاً صلحاء

ونساءً فضليات يكدّون في أرجاء مجتمعهم وصروف حياتهم من أجل التقدم والعلاء والمشاركة في ركب الحضارة الإنسانيّة، وفي جوّ من السلام والمحبّة والتآلف فيما بينهم ومع جموع الإنسانية بأسرها فوق كوكبنا الأرضي الجميل.

إن المعلم الذي نذر نفسه للعلم والتعليم لهو في تشبيه آخر كطائر البجع الذي ذكره الشاعر الفرنسي ألفريد دوموسي: يقدّم مهجته لفراخه حين يرى أعناقها مشرئبّة ومناقيرها فاغرة. ولست أدّعي أنّي أبذل مهجتي في كلّ درس ولكني أشعر بالتقصير دائمًا ولو أنّ ما أعمله يَلْقى الثناء حينًا والإعجاب حينًا آخر.

لقد عالجت موضوعات شتّى وعلّمت في كليّات شتّى. وإذا كان العلم نسبًا واشجًا كما يؤكد التراث العربّي فإني أعدّ نفسي وقد بلغت من العمر مبلغًا أبا أجيال كثيرة، بل جَدَّ أجيال وفيرة أفتخر بهم جميعًا. من طلابي وأحفادي من أصبحوا وزراء وضباطًا كبارًا ونوّابًا ومسؤولين في مختلف الإدارات. وقد تخرّج عليّ كثير من أساتذة الجامعات في سورية وفي الوطن العربي وجَمْعٌ مرموق من أساتذة التعليم الثانوي، وثُلَّةٌ فائقة من الكتّاب والباحثين والأدباء والشعراء. إني لكثير الأبناء والأحفاد الروحيين:

بذلت وسعي، وروحي
في كل حُسْنٍ تهيم
فازددت بالعلم نوراً
وبالإخاء المقيم
وبالمحبة دينًا
في كلّ شأوٍ قويم
وبالعروبة فخراً
وبالرسول العظيم
لقد نما في حياتي
غَرْسٌ وزهرٌ عميم
لا خير في كلّ شيء
من دون حبٌ حميم

إن المعرفة هي الشعلة الخالدة التي هي أخصّ خصائص الإنسان. وهي أصل كلّ تقدم، ويَنْبوع كلّ ثقافة، ونسغُ كلّ سعادة حقيقية، وركنُ كلّ علاء أكيد. وذلك على المستوى الفردي والاجتماعي والأممي.

ولكن طلب المعرفة ونشرها لابد فيّ سبيلها من عَنَت وجهد ومتاعب:

تريدين لقيان المعالي رخيصة
ولابدّ دون الشهد من إبر النحل
ذريني أَنَلْ مالايُنال من العلى
فصعبُ العلى في الصعب والسهل في السهل

كما كان يتغنّى أبو الطيّب المتنبّي شاعرنا الكبير في حداثته.

فما أشدَّ وأسدَّ وأجهد دَأْبَ الباحث في العلم ونشره. إنه عملٌ مُضنٍ عند التأمل والتقويم الصحيح. وكم مثَّل الشعراء المعلّم بالشَّمعة تحترق لتنشر النور:

**هل هو إلا كالشمع محترقاً**

**ونوره في السطور والكتب**

**إن غا ب فضلٌ يوماً لصاحبه**

**ففضله في العقول لم يغب**

**معلّم النشئ رمز نهضتنا**

**العلم ياقوم منقذ العرب**

نعم! لقد عشقت العلم منذ صباي ومازلت أعشقه. والعشق مع لذّته يتضمن همومًا وتباريح وفنونًا من الجهد والعناء والاحتراق لاحصر لها.

هذا وإن حبّي للعلم وعشقي له متصل بعشقي لبلادي وحبي لها. بلادي مترعة بأنواع المحاسن. لم تكن تباريح ذلك العشق وهموم ذلك الحب ومعاناة ذلك الاحتراق لتصرفني عن تأمّل أصناف الرياحين البديعة وألوان الورود العطرة الأنيقة وفتنة الياسمين والنسرين وبهجة النرجس والأقحوان وشقائق النعمان، من كل نوع صنوان وغير صنوان. ولم تكن لتصدَّني عن أن أتملّى المجالي العذاب والمجالي الحسان من تين وزيتون وضروب الأعناب وبواسق النخيل وأشجار البرتقال والرمّان.

كنت أرنو إلى أشعة الشمس في بلادي كيف تبثّ العطر والشذا والفتنة في تلك الرياحين والورود وتسكب خلاصة العسل الماذيّ في أجسام تلك الفواكه والثمار. وهي في الوقت نفسه ترقّص أسراب الفراشات الهائمة فوق الرياحين، وتلهم الشحارير والبلابل والعنادل والقماريّ أعذب الألحان. ولكنها أيضًا وبالأخصّ تلقي الدفء والمحبّة في صدور أهالي بلادي، في قلب الإنسان العربي، ذلك الإنسان!

فيا الجمال بلادي الساحر النشوان! ويالبهاجتها في الإصباح والضحى والظهيرة والأصال والأماسي! ويالروعة سمائها في شتّى أحوالها، ولاسيما إذا صَحَتْ وترصعت بمواكب النجوم والكواكب والبروج تسري بيسر وخشوع وحنان واطمئنان، ثم أطلّ عليها أميرها المزدان، قمرنا الماسيّ الوسنان!

**بلدي الحبيب حديقة من نرجس**

**من فوقه تعلو حديقة نرجس**

**فسماؤه تُزْهى بحسن نجومها**

**والأرض ترفل بالجمال المؤنس**

**يَطْرفْنَ من خجل إذا لاحظتها**

**لحات أعينها مرايا الأنفس**

بلادنا حلوة كالجنان وخيراتها جمة حسان لولا شرور الطغيان ولولا قطيع الذؤبان.

بلادنا من جنان الخلد آتية

ياحبذا نفحات الزهر والثمر

وحبّذا جنبات العيش هانئة

لولا عوادي النيوب العُصْلِ والخطر

نعم! إن بلادنا عانت من التجزئة وعاشت مآسي وكوارث عدة غلب قتامها على المباهج. وآخرها كوابيس أساطير الواقع الراهن. التي لاتكاد تبقي أثرًا لهدوء التأمّل وتملّي القلب لتلك المحاسن. بل هي تملأ القلوب شجًا وثورة وإباء. كيف يطيب لإنسان عيش أو يَنْعَمُ له بال أو تطمئنُ به حال،وهو يرى على قرب أو بعد كيف تلغ تلكم الذئاب المدجّجة في دماء الأطفال والنساء والشيوخ والصغار والكبار ولوغًا شرسًا متفاقمًا، لاردع له إلا بالبطولات والفداء والتضحيات.وتعاون جميع الشعوب المحبة للسلام.

ومع كل تلك المآسي فإن وطني ماض في سيره الوطيد نحو التقدم والتطور. على رأسه شابٌ عالم مؤمن بالرفق والتعارف والتعاون وبقيمة العلم خاصة وبالسعي نحو المشاركة في حضارة مقبلة إنسانية تقوم بصدق على حماية حقوق الإنسان وحقوق الشعوب.

ونحن في سورية العريقة نتقدم في هذا البحران الحضاري بخطا قويه ثابتة مع حراسة شعبنا وجيشه وتلاحمنا وتناصرنا وصداقاتنا مع شعوب العالم الأحرار.

والدليل على هذا التقدم والتطور الإيجابي - كما نحكيه نحن على طلابنا الميامين - أن الطالب أو المريد مافتئ يسود عندنا غالبًا أستاذه ويتقدم ويتفوق عليه مع اعترافه بالفضل وإجلاله للنسب الروحي الذي توصي به الحضارة العربية الإسلامية. وكم يسعدني أن أرى طلابي وطالباتي قد علوا عليّ في آفاق التقدم وشأوني في المآثر والمناقب والوفاء. هاهي ذي السيدة الراقية الأستاذة الدكتورة نجوة قصاب حسن وزيرة الثقافة من عليّات طالباتنا نفتخر بها أيّما افتخار، نقدّر اتساع معارفها وسمّو مزاياها الثقافية والاجتماعية والوطنية والقوميّة، تتكرم فتقلد كلاً منا بيديها الملاكيتين وسام الاستحقاق من الدرجة الممتازة رغبة من رئيسنا المحبوب الرائع الدكتور بشّار الأسد.

ألا إن المستقبل لمن يؤمن ويجدّ ويعلم ويعمل صالحًا ويخدم بذلك ذاته ووطنه وأمّته.

والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته

## كلمة الأديب الروائي حنا مينه



**السادة الوزراء،**

**السيدة الدكتورة نجوة قصاب حسن، وزيرة الثقافة،**

**الأخوة الحضور.**

في رحلة العمر، على مدى الثمانين من الأعوام تقريباً، قطعت دروبا زاخرة بالشقاء، لذلك قلت، وأكرر، إنني ولدت بالخطأ، ونشأت بالخطأ، وكتبت بالخطأ أيضاً.

لقد كانت حروفي منذورة لدمي، النازف أبداً في مواقع خطواتي دون أن تعرف الطمأنينة سبيلها إلى قلبي، فأنا أعيش القلق زاداً يومياً، وهذا من حظي الأبيض، لأن الطمأنينة تقتل الحب والإبداع، ودونهما لا أدب ولافن، ودون الأدب والفن يجد أكثر الناس، كل ما حولهم فراغاً، لافتقارهم إلى البهجة التي تمدهم بالأمل، وبالرجاء في مستقبل أفضل.

لذلك أبارك القلق، الذي قال عنه بودلير «باللوحش المفترس». وأبارك القلق لأنه الدافع إلى اكتشاف المجهول، وهذا الاكتشاف هو غاية الابداع .وأبارك القلق الذي باركه الفريد دي موسيه، ونفذ إلى سره شاعرنا المتنبي. وأبارك القلق ثلاثًا، في العيش والكتابة، رغم أنه، القلق، جعلني أضطرب مثل نورس في ريح العاصفة المجنونة، فوق اللجة الزرقاء، التي منها أخذت أصابعي وكلماتي، وأباركه، أيضًا، لأنه عمدني في النار الملتهبة، لا في مياه الأردن الطهور، وقد وسمت، هذه النار، جبيني، وظلت جذوتها متقدة في دمي، وفي هذا الدم غـسـت يراعـتي، ولا أزال أستسقيها الأرجوان في شراييني.

إن الهاجرة، في يتم السراب، وومضة البرق، في نيزكة الانخطاف والمجرة في شعاع توهجها، قد أغرتني جميعها، في اقتباس الحجر الكريم في لألائه ومنه صفت، للتي كانت، وما كانت، فظلت، في المبتغى، رجوة حلم يراود، واليوم لا هاجرة، ولا ريحَ لافحة، اليوم للنداوة بعد الهاجرة، وللإفاءة الظليلة بعد القائظة، اليوم لليد البيضاء، للسيد الدكتور بشار الأسد، رئيس الجمهورية، الذي صنع من التكرمة حلية، ومن الأريحية نبلاً، تجليا في اللفتة الجميلة، السابغة في نعميـاتها، النابضة بالود تشجيعًا، والتقدير تكريمًا، بمنحي وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة، كفاء ما قدمت لوطني وشعبي، من عطاء هو الأجدى في مجال الإبداع، وهو الرافد لنهر الثقافة العربية، التي هي، في المشرق والمغرب، ثقافة واحدة، لأمة واحدة، لها في تاريخ الحضارة الانسانية سفر لا أبهى، ولا أكرم.

إن الوسام، في المغزى الثمين له، وسام للغالية طيبًا، وللتقدير نفحًا، يحمل في ذاته، ما هو أكبر من ذاته: التشجيع لرجال الفكر والقلم، كي يمضوا أبعد، في طريق الإبداع الذي أخذوا به، وهم ماضون فيه، بسوية يجهدون لتكون أغنى وأرفع، وذات حضور في العالم.

اكرر الشكر للسيد الرئيس، على ما أولانا من ثقة، ومن حفاوة وتكريم، يتعدى شخوصنا إلى غيرنا، إلى كل الأدباء والفنانين في ربوع هذا الوطن الحبيب.

وأوجه الشكر، ختامًا، إلى السيد الدكتور حسّان ريشة، وزير التعليم العالي، وإلى السيدة الدكتورة نجوة قصاب حسن، وزيرة الثقافة، وإلى كل من سعى لنيلنا هذا الوسام الرفيع، وكل من عمل لإقامة حفل التكريم البهيج، كما أشكر الأخوة والأخوات الذين حضروا للمشاركة فيه، وبحضورهم وحضوركم جميعًا، تعطون لهذه المناسبة السعيدة ألقها وملاحتها، وشكرًا.

❖ ❖ ❖

## تكريم السيد الرئيس بشار الأسد للكتاب

# كلمة الأديب القاص زكريا تامر



لن أطيل عليكم لأنّ كل مايمكن أن يقال في هذه المناسبة قد قاله من سبقني في الكلام، ولم يتبق لي سوى القليل القليل، فهذا تكريم أدهشني ونجح في مباغتتي لعدة أسباب.

السبب الأول هو أن سورية ملأى بالمبدعين الجديرين بالتكريم.

والسبب الثاني هو انه لم يسبق لأدباء سوريين أن ظفروا بأوسمة من بلادهم لقاء إنجازاتهم الثقافية والإبداعية فقط.

والسبب الثالث هو أن العرب تعوّدوا ألا يحتفوا بمبدعيهم إلا بعد أن يتأكدوا من وفاتهم.

وأنا واثق بأن تكريمنا اليوم هو في الوقت نفسه تكريم لكل مبدع في سورية واعتراف بأهمية دور الأدب والفكر في المسيرة نحو سورية حديثة متطورة، وهذا التكريم هو في اعتقادي ليس مجرد طلقة طائشة أو طلقة أخيرة بل هو بالتأكيد خطوة أولى ستليها خطوات أخرى لا غاية لها إلا رعاية الأصيل من الإبداع، فسورية كما نعلم ليست بالدولة الكبيرة، ولكنها ستكبر حين تعنى بما لديها من مبدعين كثيرين في شتى المجالات.

ومن المؤكد أن كل تكريم يحظى به الأديب يسرّ ويليق به الترحيب والثناء، ولكن تكريم البلد لأدبائه له مذاق مختلف خاص يشبه عناق الأم لأبنائها العائدين إليها بعد سفر طويل.

ولابد لي هنا من الإشادة بالسيد الرئيس وشكره الشكر الصادق لأنه اختار أن يكرمنا في هذا الوقت العصيب الذي تواجه فيه سورية أبشع الأخطار، فكان اختياره لنا رسالة بليغة تقول الكثير لآكلي لحم الوطن ومبتلعي عظمه، وتقول أيضًا الكثير لمن يتقن القراءة، ولكن مطلعها يؤكد على أن المبدع الحقيقي له الحق في الظفر بحصته من حب وطنه وتقديره، ولا يجوز أن تُسلب منه تلك الحصة، ولكن مطلعها يقول أيضًا إن الوطن لن يتطور التطور المنشود إلا إذا اعترف برجاله من أصحاب المواهب، وأستفاد منْ قدراتهم على العطاء.

ولابد لي أخيرًا من شكر السيدة وزيرة الثقافة التي نقلت إلي خبر التكريم بصوت مفعم بالفرح والفخر كأنها هي التي نالت الأوسمة، ولم تكن بالمخطئة.

وشكرًا لحضوركم الذي كان أيضًا إسهامًا في تكريمنا.

# آفاق المعرفة

# الأدب المقارن والمركزية الغربية



د. عبد النبي اصطيف ❖

الأدب العالمي «World Literature» والأدب المقارن «Comparative Literature»، مفهومان يحملان، في صلب دلالة كل منهما، بعداً عبر قومي «Transnational».

فالأدب العالمي، سواء أقصد به هذا «المزيج الغامض من آداب العالم كلها، على حد تعبير ادوارد سعيد(1)، أم قصد به تلك «الكتب العظيمة Great Books»، أو «الروائع، Masterpieces»، التي تتجاوز في تأثيرها وجمهورها الحدود السياسية والقومية واللغوية، مفهوم يعنى بالأدب عناية تتجاوز الاعتبارات القومية أو الإقليمية الضيقة، وينظر إليه نظرة تتسم بالرحابة والشمول.

---

(❖) د. عبد النبي اصطيف: باحث من سورية، دكتوراه في فلسفة النقد المقارن، أستاذ الأدب المقارن والنقد الحديث في جامعة دمشق.

والأدب المقارن، في تركيزه على عملية التفاعل بين الآداب القومية المختلفة - قديمها وحديثها، شرقيها وغربيها - مفهوم ينطوي على تسام واضح فوق الحدود السياسية والقومية واللغوية، بل وحتى المعرفية عندما يدرس تفاعل الأدب بوصفه فنّاً جميلاً مع سائر الفنون الجميلة الأخرى من جانب، ومع المعارف الإنسانية والطبيعية والعلمية الأخرى من جانب آخر.

ومعنى هذا أن أي موقف يُجانب هذا التطلع نحو الأفق الإنساني الرحب سيكون مناقضاً لروح المفهومين، بل لطبيعتهما أيضاً، وسيكون بالتالي معيقاً لتطورهما إلى حيثما يرجى لهما من مواقع ترسخ قيم التعاون والمشاركة والتفاهم والاحترام المتبادل بين مختلف الشعوب والأمم عبر الاهتمام بدراسة واحد من أبرز فنونها الجميلة دراسة مقارنة. خاصة وأن هذه الفنون الجميلة قد دلت على أنها الأداة الأمثل لغرسها في النفوس والأرواح، والضمان الأكيد لبقائها في الفسحة الإنسانية التي طالما حرصت عليها سائر الأديان والعقائد والمذاهب والحضارات البشرية عبر العصور، وفي شرق العالم وغربه، وشماله وجنوبه، إعلاءً لإنسانية الجنس البشري، وتحقيقاً لجوهر تساميه.

ولكنّ كلاً المفهومين - كما يقر بذلك مؤرخو الأدب المقارن- أوروبي النشأة والتطور. والسؤال الذي يخطر للمرء إذ يتذكر هذه الحقيقة هو: هل كان لهذه النشأة وذاك التطور من أثر في طبيعة كل من المفهومين، وبالتالي في وظيفتهما؟

ليس على المرء أن يقرأ على نحو واسع في تاريخ الأدب المقارن حتى يتبين الآثار غير المحمودة التي خلفتها هذه النشأة في كلا المفهومين، والتي نجمت أساساً عن نزعة التمركز حول الذات التي طبعت التفكير الأوروبي Euro-centrism، وفيما بعد التفكير الأمريكي الشمالي، فيهما. وليس ثمة من يماري اليوم في ضرورة الخروج على هذه النزعة واستئصال فيروسها من المنظور المقارن إذا ما أريد له أن يكون سليماً معافى في تناوله لمختلف ضروب العلاقة بين الآداب القومية.

لقد حمل النصف الثاني من القرن العشرين إلى ميدان الدراسات المقارنة في الأدب والفن (وبخاصة في أمريكة الشمالية التي غدت نتيجة استقبالها لكثير من المقارنين الأوروبيين الذين فروا إليها من أوروبة هرباً من الاضطهاد النازي، وللعديد من المقارنين غير الأوربيين الذين وفدوا إليها محفوزين بعوامل مختلفة، ساحة عمل واسع في الأدب المقارن تنظيراً وممارسة) تطورات مهمة،ربما كان من أبرزها التحول التدريجي الذي شهده الأدب المقارن

من١٥١ التقليد البحثي إلى التقليد النقدي[٢]، حيث غدا اليوم ممارسة نقدية أقرب إلى طبيعة الفن الأدبي منها إلى البحث التاريخي الأدبي الثقافي. ومع ذلك فقد ظلت الفكرة المهيمنة في هذا الحقل المعرفي المهم - هيمنة تكاد تكون مطلقة حتى عهد قريب - أن :

«أوروبة والولايات المتحدة الأمريكية هما مركز العالم، ليس فقط بسبب موقعيهما السياسيين، وإنما كذلك بسبب أن آدابها أكثر الآداب جدارة بالدراسة[٣]».

وبعبارة أخرى، إن الثقل الاقتصادي والسياسي والعسكري الذي ضمنته الحرب العالمية الثانية للغرب انعكس في هذه المركزية الأوروبية - الأمريكية في ميدان الدراسات المقارنة، إلى درجة تم معها تحييد تأثيرات المنظورات الأخرى، وعلى رأسها منظور مقارني الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية (الذي يستند إلى تجارب غنية وشائقة في التفاعل ما بين الآداب القومية الآسيوية والأوروبية المختلفة في ظل الأيديولوجية الماركسية المهيمنة)، ومنظور مقارني العالم الثالث، وبخاصة في شبه القارة الهندية وجنوبي شرقي آسية (حيث التفاعل المثير بين مختلف اللغات والآداب والثقافات الخاصة بشعوب هذه المنطقة)، وأمريكة اللاتينية (حيث تتفاعل ثقافات شعوبها الأصلية مع ثقافات شبه الجزيرة الإيبيرية وثقافات المهاجرين الآخرين) .فضلاً عن التجربة العربية الفريدة في التفاعل مع الآداب الأخرى - هذه التجربة التي امتدت نحواً من ستة عشر قرناً وشملت آداب العالمين القديم والحديث وآداب الشمال والجنوب. وكأن انشغال الغرب بالحرب الباردة من جانب، وممارسته لسياسة الاحتواء من جانب آخر، قد انتقلا إلى التفكير المقارني الغربي فجعلاه ضيق الأفق إلى درجة لا يرى فيه إلا قطاعاً محدوداً من التجربة الإنسانية في الأدب يستطيع أن يتماهى معها ماضياً وحاضراً وربما مستقبلاً أيضاً، ويستغني بها عن سائر التجارب الأخرى في العالم.

فأما الماضي البعيد الذي يظفر باعتراف الغرب فإنه يقتصر على شريحة ضيقة منه لا تتعدى الآداب الكلاسيكية والتراث اليهودي - المسيحي المرتبط عضوياً بالعهدين القديم والجديد. ذلك أن الأدب الغربي لا يقر إلا بدينه لهذين المصدرين القديمين - الحديثين اللذين يرى فيهما مكوّنين بارزين من مكوناته الأساسية. وهكذا فإنه يركز على علاقات الآداب القومية الغربية بالأدبين اليوناني والروماني من جهة، وعلى حضور الموروث التوراتي في هذه الآداب من جهة أخرى (متناسياً بالطبع أن الديانتين اليهودية والمسيحية قد ظهرتا إلى الوجود في ربوع

الشرق القديم مهد الحضارات والديانات السماوية). وهو فوق هذا وذاك لا يرى في الآداب الغربية غير أفنان تفرعت عن جذع واحد تغذى بهذين المصدرين، فضلاً عن الواقع الغني بدلالاته.

أما التراث السردي الشرقي الذي تشكل ملحمة غيلغاميش، وكليلة ودمنة، وألف ليلة وليلة، والمقامات العربية أبرز صواه، فإنه يقع خارج دائرة التراث الإنساني الذي صدرت عنها أجناس السرد الغربية المختلفة، والتي لم تبارح في حقيقة الأمر دائرة السحر الشرقي هذا. وهو أمر بات يقر به العديد من الباحثين الغربيين الذين سعوا مؤخراً إلى إبراز الدور الذي أدته الآداب الشرقية في تطور أجناس سردية مهمة كالرواية الغربية[4].

وأما التراث الشعري الأندلسي (الذي يشمل الشعر والموشحات والزجل). والذي استعاد بفضله الشعر الغنائي الأوروبي بدءاً من القرن الثالث عشر حياته وقوته ونشاطه وانتشاره الواسع بوساطة شعراء التروبادور، فأمر لا سبيل إلى القطع به، مهما تراكمت الدلائل النصية وفوق النصية على دوره الحيوي هذا، ذلك أنه يظل في الدائرة الخلافية، ويبقى مجالاً واسعاً للمماحكة العابثة[5].

وعندما يأتي الأمر إلى الماضي القريب جداً من التجربة الأدبية الإنسانية، فإن الغرب لا يرى فيه غير تمدد غربي باتجاه الآخر في العالم الثالث - تمدد ظلّل الآداب الأخرى وألهمها، وردّ عليها حياتها (ولم نذهب بعيداً، ألا يتحدث العرب المحدثون عن النهضة العربية الحديثة ويتخذون من الحملة الفرنسية على مصر في نهاية القرن الثامن عشر منطلقاً لها) ويسّر عليها تحوّلها من المرحلة التقليدية Traditional إلى الحداثة Modernity بصورتها الغربية. إنه الوجه الأدبي لاستعمار الغرب لباقي العالم، وإعماره، وتحديثه، تنفيذاً لواجب الرجل الأبيض - أو لعبئه- في تحضير هذا العالم، وتمدينه، وإلحاقه بركب التقدم والعصر.

وأما الحاضر فالغرب فيه هو الأنموذج والقبلة، وآدابه وفنونه وثقافته هي المثال والمال، والكل يسعى إلى محاكاتها. أو ليست التعبير الأمثل عن النجاح الدنيوي الذي حققه هذا الغرب السيّد الآمر الناهي، الذي يقول ويفعل، ويحقق الفردوس الأرضي.

وأما المستقبل فإنه ما يراه هذا الغرب، وما يخطط له، وما يرجوه، وما على الآخرين إلا التطلع إليه، والتضحية بالغالي والرخيص لبلوغه، خاصة وأن هذا الأنموذج غدا - في نظر المعجبين به إعجاباً أعمى - الأنموذج العالمي في جميع وجوه الحياة الإنسانية وفي مختلف بقاع الأرض شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً.

وهكذا كان من الطبيعي جداً لهذه النظرة المحكومة بنزعة التمركز حول الذات أن ترى الآداب القومية الأخرى آداباً تقع في مرتبة أدنى من نظيراتها الغربية. والسبب فيما يبدو لأصحاب هذه النظرة يكمن في كون هذه الآداب نتاج أمم وحضارات أقل شأناً من الأمم التي أنتجت الحضارة الأوروبية التي يغلب عليها العقل، وحب الحرية، والإيمان بالديموقراطية، وقبول النظام، وغير ذلك مما لم تعرفه الحضارات الأخرى فيما يزعمون. ونظرة كهذه هي، كما تضعها سوزان بازنيت وبحق، نظرة عنصرية «Racist» في جوهرها، وعابثة «Absurd»[٦] في موقفها. ولكنها كانت رائجة رواجاً واسعاً في المناخ الإمبريالي للقرن التاسع عشر الذي استخدم الغرب فيه المقارنة ليؤكد تفوقه الذي يسوّغ بدوره ضمناً هيمنته على الآخر الأقل شأناً.

يقول اللورد ماكولي متحدثاً عام ١٨٣٥ إلى اللورد بينتينك، الحاكم العام للهند في تلك المرحلة:

«لم أجد قط واحداً من بينهم (يعني المستشرقين) استطاع أن ينكر أن رفّاً واحداً من مكتبة أدبية جيدة كان يعدل جماع الأدب الأصلي للهند والجزيرة العربية. إنني بالتأكيد لم ألتق قط بمستشرق غامر بالزعم بأن الشعر العربي أو الشعر السنسكريتي يمكن أن يقارن بشعر الأمم الأوربية العظيمة»[٧].

ولذلك فإن الأوروبيين، حتى عندما كان يدفعهم فضولهم إلى ترجمة بعض النتاج الأدبي غير الأوروبي، كانوا يمارسون ذلك بدرجة دنيا من الاحترام لهذا النتاج. وأكثر من هذا فإنهم كانوا يمنحون أنفسهم مطلق الحرية في العبث به، وتغييره، بل ربما زعموا أنهم بذلك يخدمونه ويرتقون به أو يضيفون إليه ما ينقصه جوهرياً وهو الفن.

يكتب ادوارد فيتزجيرالد مترجم رباعيات الخيام (والمفارقة أن الناس اليوم لا يكادون يذكرون من هذا الشاعر الصلف إلا ترجمته هذه التي خلدته) إلى صديقه كويل في العشرين من شهر آذار من عام ١٨٥٧.

«إنها لتسلية أن أفعل ما يحلو لي بهؤلاء الذين (فيما أعتقد) ليسوا شعراء إلى درجة كافية لإخافة المرء من ممارسات كهذه، والذين هم في الحقيقة بحاجة إلى بعض الفن ليصوغهم»[٨].

وإذا كانت نظرة الغربيين إلى هذه الآداب العريقة والمدونة نظرة دونية إلى هذه الدرجة، فإنه يمكن للمرء أن يتخيل درجة استخفافهم بالآداب الشفوية التي لم يتيسر تدوينها للأمم التي أنتجتها نتيجة

ظروف تاريخية أو اجتماعية أو ثقافية، ودرجة الإسراف في تثمين عملهم في جمع هذه الآداب الشفوية وتدوينها ونشرها وترجمتها فيما بعد إلى اللغات الأوروبية الرئيسة. وربما كان هذا وراء الحرية العجيبة التي تلقّع نشاطات الغربيين بـ ألف ليلة وليلة، على سبيل المثال، ترجمةً، أو اقتباساً، أو استلهاماً، أو تحويراً، أو تحويلاً للاستخدام في الفنون الجميلة المختلفة بما فيها الفن السابع، وعلى نحو مشين، وبالطبع جدّ مسيء في كثير من الأحايين، للأمة التي أنتجتها كما حدث في الأفلام العديدة التي اقتبستها شركة والت ديزني عن ألف ليلة وليلة ( أو الليالي العربية ) من مثل علاء الدين، وعودة جعفر، وغيرهما.

والحصيلة النهائية لهذه النظرة المسرفة في تمركزها حول الذات بقاء الآداب غير الغربيةخارج دائرة المقارنة. ذلك أن المقارنة ينبغي أن تظل محصورة بين النظراء والأنداد. وبالتالي يجب أن تقتصر على الآداب الأوروبية[19]، وآداب أمريكة الشمالية لاحقاً. وبذلك تتعزز الصيغة الأوروبية للأدب المقارن الذي نشأ ونما وترعرع وازدهر ليؤدي وظيفة أو وظائف محددة في المجتمعات الأوروبية الغربية، ربما كان من أهمها تعزيز فرص السلام بين الأمم الأوروبية، وإشاعة نوع من الانسجام بين الأمم المتنازعة على الهيمنة والنفوذ داخل أوروبة وخارجها كذلك. وحتى دعوة غوته إلى ماأسماه بـ الأدب العالمي كانت دعوة متصلة بأوروبة أشد الاتصال، وكانت تعبيراً عن رغبته القوية في إنهاء الحرب الدائرة فيها، على الرغم من أنه في نهاية المطاف قد حاول التطلع إلى خارج هذه الدائرة الأوروبية.

وهكذا انشغل مقارنو القرن التاسع عشر بالأدباء الأوروبيين دون غيرهم، يتابعون عبور نتاجاتهم خارج حدود آدابهم القومية، ويتلمسون تأثيراتها على المستوى الفردي أو الجمعي، ولكن ضمن الدائرة الأوروبية حصراً. ومع تسنم أوروبة مكان الصدارة على المستوى الدولي من النواحي السياسية والعسكرية والاقتصادية، وتمدّدها خارج حدودها ليستظل بحضورها المباشر أو غير المباشر سائر العالم تقريباً، تحوّل الأدب الأوربي وأعلامه إلى معايير فنية تقاس بها سائر الآداب الأخرى التي تُركت لها السفوح الدنيا من مرتفعات الأدب العالمي التي تربّع على ذراها هوميروس ورفاقه من الأدب اليوناني، وفيرجيل وأنداده من الأدب اللاتيني، ودانتي وبوكاتشيو وبترارك من الأدب الإيطالي، وتشوسر وميلتون وشكسبير من الأدب الإنكليزي،وثيربانتس من الأدب الإسباني، وغوته وشيلر من الأدب الألماني،

وإبسن من الأدب النرويجي، وبوشكين ودوستويفسكي وتولستوي من الأدب الروسي ناهيك بالطبع عن راسين وكورني وموليير، وفولتير وروسو وفلوبير وغيرهم من أعلام الأدب الفرنسي.

وعندما يسأل الغربي عن سر اهتمامه بآداب سائر العالم على الرغم من عدم تساميها إلى معارج الآداب الغربية الراقية التي هي المثال والمآل، يجيب بأنه الفضول الأوروبي والغربي وحده الذي يقف وراء هذا الاهتمام. فالغرب - فيما يزعم - يتميز عن سائر الأمم الأخرى باهتمام جدّي بالآخر «The other» قلّ نظيره في التاريخ الإنساني، وبحب المعرفة وارتياد الآفاق المجهولة لا يدانيه فيه شرق ولا جنوب. وفضلاً عما تقدّم هناك الهوس الأوروبي الخالد بالغريب والعجيب والشاذ والمتفرد الذي يفتن الباب الأوروبيين ويراود نفوسهم فيطلبونه بشتى السبل. وثمة بالطبع أمور أخرى يمكن أن تضاف إلى الدوافع الغربية الكامنة وراء دراسة الآداب غير الغربية، على الرغم من بعدها عن الحساسيات الأوروبية: الفنيّة والنفسيّة، والأخلاقيّة، بل وحتى الاجتماعية. ذلك أن الغرب يدّون، ويحقق، وينشر، ويترجم، ويدرِّس، ويدرس هذه الآداب بغرض فهم منتجيها، ومعرفة وجوه حياتهم المختلفة على النحو الأفضل. بغرض تدبّرهم على النحو الذي تمليه العلاقات الدنيوية التي تربطه بهم: سياسيّاً، واقتصادياً، وعسكرياً، واجتماعياً. أي أنه يوّد أن يوظف معرفته بآداب «الآخر» في خدمة مواجهته له واحتوائه والهيمنة على مقدراته والتحكم بمصيره واستغلال خيراته واستثمار ثرواته على النحو الذي يكفل دوام الرفاهية لشعوبه المتقدمة الراقية المتطورة.

وغني عن البيان أن هذه العمليات كلها، التي تخضع لها هذه الآداب محكومة بالنظرة الغربية. وإذا كانت عمليات الجمع والتدوين والتحقيق والنشر لا تشي على نحو واضح بهذه النظرة ولا بتضمناتها الأيديولوجية، فإن عمليات أخرى كالدرْس، والتحليل، والشرح، والتفسير، والمقارنة، والحكم وما شابههما، تكشف عن هذه النظرة على نحو بيِّن، لأنها تُمارس على أسس ومعايير وأنظمة وقيم ومبادىء غربية تماماً، ولا تؤسس على معايير ومقاييس وأنظمة وقيم ومبادىء منبثقة عن هذه الآداب ذات التاريخ العريق، والتجارب الإنسانية الغنية، والتميز الفني الواضح، والإفصاح الصادق عن رؤية منتجيها للعالم.

والحقيقة أن الناظر في تاريخ الأدب العالمي، أو في تاريخ المتن الأدبي الذي أنتجته الإنسانية يستطيع أن يتبين أنه يشكل تياراً زاخراً ناجماً أساساً عن فيض متجدد، وأن روافده متعددة، بل وكثيرة، أنها

جاءت من الشرق والغرب، والشمال والجنوب، وأنها انبثقت أو تفجرت ينابيع في غاية العذوبة والصفاء على الرغم من أن مصادر مياهها متنوعة يصعب في أغلب الأحيان حصرها، ولكن المهم في كل ذلك أن هذه الروافد ممتدة زماناً امتداداً واسعاً يبدأ بظهور الإنسانية ويستمر حتى عصرنا الراهن، مثلما هي ممتدة مكاناً ومنتشرة انتشار الإنسان على هذا الكوكب.

ومعنى هذا أن على دراسي الأدب العالمي اليوم، وعلى رأسهم دارسو الأدب المقارن، أن يبرزوا هذه الاستمرارية من جانب، وهذا التنوع الغني المصادر من جانب آخر، وأن يكفوا عن الحديث عن، علاقات أدبية، أو عبر سياسية، أو عبر قومية، أو عبر نوعية، أو بعبارة أخرى، علاقات أدبية تتجاوز الحدود اللغوية، والسياسية، والقومية، والمعرفية، تقوم أساساً على فكرة التأثير والتأثر فقط: طرف مؤثر، وطرف متأثر: طرف دائن، وطرف مدين: طرف مانح، وطرف متلق: طرف معطٍ وطرف آخذ: طرف قوي، وطرف ضعيف؛ طرف غني، وطرف فقير: طرف معطاء سمح يعيش ويحيا الآخرون بجوده، وطرف كل ما استطاعه العيش على إنتاج الآخرين تماماً كالنباتات الطفيلية. إن على العاملين في ميدان الأدب العالمي أن يستبدلوا بهذه المقولة التي تقوم على جهل، أو تجاهل غبي، للتجربة الأدبية الإنسانية عبر العصور، منطقاً آخر تستعمل فيه مفردات اللقاء Encounter، والحوار Dialogue، والاستلهام Inspiraion، التي تحفز على التغيير والتطور والتقدم، وأن يمضي بعد ذلك إلى تصحيح ما هو سائد من فهم متمركز حول الذات للآداب القومية المختلفة وللعلاقات القائمة فيما بينها.

وفضلاً عن طبيعة المتن الأدبي العالمي التي تُحتِّم مقاربته على نحو أبعد ما يكون عن التمركز حول الذات، فإن ثمة أموراً عديدة تعزز التوجه الجديد في مقاربة الآداب القومية ومقاربة صلاتها المتبادلة فيما بينها، ربما كان من أبرزها:

أولاً - المحاولات الجادة التي تشهدها الأوساط الجامعية، والثقافية، والإعلامية، الغربية للمضيّ إلى ما وراء القانون الغربي Western Canon في الثقافة والأدب والفنون عامة، سعياً إلى الهامشي marginal، والثانوي، والمقموع Suppressed، في المواريث الغربية نفسها من جهة، وبحثاً عن الشفوي والمتحول في الثقافة الغربية المعاصرة؛ واهتماماً جاداً بآداب العالم الثالث، التي قمعت، أو أهملت، أو همشت، أو قُلِّل من شأنها، لاعتبارات جلها فوق أدبي، في المرحلة الاستعمارية.

ثانياً - التنامي المتزايد للمقاربات التناصية للأدب، والنظر إلى النص عامة،

والنص الأدبي خاصة، على أنه نسيج تداخلت فيه خيوط متعددة متنوعة مستمدة من نصوص أخرى تسربت إلى التكوين الثقافي لمنتج هذا النص في مرحلة من مراحل حياته. إن هذا الاهتمام المتزايد بتداخل النصوص وعلاقاتها الداخلية فيما بينها جعل الحديث عن التأثير والتأثر جوهراً للعلاقة بين الآداب المختلفة، والنصوص المختلفة، حديثاً أقل ما يمكن أن يوصف به هو أنه حديث يتسم بالسذاجة والإسراف في التبسيط لعلاقة فنية داخلية في غاية التعقيد.

ثالثاً – الانتشار الواعد لمقولة إدوارد سعيد في أن الثقافة القومية، مهما أغرقت في تفردها وأصالتها، ثقافة مولّدة(١٠)، بالمعنى العربي للكلمة كما اصطلح عليها في العصر العباسي، وأنها حصيلة تلاقح وتفاعل مع «الآخر» أكثر مما هي ناجمة عن عبقرية خالصة صافية لم يداخلها عنصر أجنبي. ومعنى هذا أن أحداً لا يستطيع أن يزعم اليوم أن ثقافة قومية ما، مهما كانت منزلتها في نظر أصحابها أو في نظر الآخرين، تستطيع أن تدّعي لنفسها مكانة متميزة تستأثر بها دون سائر الثقافات، أو أن تنظر إلى نفسها نظرة السيّد السامي وتنظر إلى غيرها نظرة العبد. ومعنى هذا أيضاً أن الثقافة الإنسانية جهد إنساني مشترك تعاقبت عليه الأمم والشعوب، كل في مرحلة ما من مراحل نموها وتطورها، وإنها لذلك بحيرة مشتركة يغرف منها من يشاء، ويستقي منها من يريد بوصفها الموروث الإنساني المشترك.

أما احتكار هذا الموروث.

أما تنصيب أمة ما لنفسها قَيّمة عليه.

أما الاعتقاد بأن لها الحق، إذ تملك القوة، في أن تسمح لمن تشاء بالورود، وأن تصد من لا ترغب فيه؛ أو تبتزه مستغلة ظمأه إلى المعرفة، وتطلعه لها.

أما تسمية هذا الموروث الإنساني بتسمية قومية، أو إقليمية، تمنح لبعض الإنسانية تسنم مكانة حضارية متميزة عن غيرها.

فكل ذلك باطل.

ذلك أن الإنسانية واحدة، وحصيلة جهدها واحدة، سواء أكان ذلك في المعرفة، أم في الفنون أم في الآداب. وليس لأمة فضل على أخرى إلا بمقدار إسهامها في هذه الحصيلة، أي بمقدار عملها لإغناء هذا الموروث الإنساني، الذي يظل ملكية مشتركة لكل إنسان الحق فيه، بصرف النظر عن لونه، أو جنسه، أو دينه، أو منزلته الاجتماعية.

## الحواشـــي

1- Edwardw.said, culture & Imperialism

(chatto & windus, London, 1993) p. 52.

2 -Ibid.p.50

3 - Ibid.p.54

4 - Margaret Anne Doody, The True story of the Novel انظر بشكل خاص

Harpercollins publishers, London.) 1997)

ولا سيما الصفحات( ١٢ - ١٧) والتي تشير فيها إلى كتاب بيير - دانيال أويت pierre Daniel Huet- الموسوم بـ «رسالة في أصل الروايات» الذي ظهر عام ١٦٧٢، والذي يدلل فيه مؤلفه على أن الشرقيين هم من منحوا الغرب روايته، وأنهم أول من مارسوا هذا الفن ويبرعوا فيه بما توافر لديهم من سرعة البديهة، والخطاب، والخيال.

انظر كتاب أليس. إي. لاستر

5- Alice E. Laster

spain To England : Acompayative study ofArabic, European

and English Literature of the Middle aAges

(university press Of Mississippi, jackson, Mississ issippi, 1974)

وكتاب مارينا روزا مونيكال

Maria Rosa Menocal,

The Arabic RoLe in Medieval Liteyary History

(university of pennsylvania press, philadelphia, 1987)

وقد ترجم مؤخرًا من جانب الدكتور صالح بن معيض الغامدي وانظر:

ماريا روزا مونيكال،

الدور العربي في التاريخ الأدبي للقرون الوسطى : تراث منسي

ترجمة الدكتور صالح بن معيض الغامدي، (جامعة الملك سعود، الرياض،١٩٩٩)

6 - Susan Bassnett,

Comparative Literature : A critical introduction

(BlacKwell, oxford, 1993), p. 18

7 - نقلاً عن سوزان بازنيت، المرجع السابق، ص (١٧)

8 - نقلاً عن سوزان بازنيت، المرجع السابق ، ص (١٨)

9 - المرجع السابق ، ص (١٩)

10 - حول مفهوم الهجنة انظر كتاب:

Debating cultural Identity,

Edited by pnina werbner & Tariq Modood

(zed Books, London, 1997

وكذلك كمال أبو ديب، «مقدمة المترجم» في: إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، نقله إلى العربية كمال أبو ديب ( دار الآداب، بيروت، ١٩٩٦) ، ص (٢٣- ٢٤).

# الشعر الفلسطيني في المنفى

طلعت سقيرق *



### أولاً/ هذا الحنين إلى الوطن:

هذا الزمن هو أحوج الأزمان وأشدها استدعاء للحنين إلى الوطن.. الأمر بكل بساطة يتعلق بسؤال قديم جديد شائك بعض الشيء، مشاكس في كثير من الأحيان، يقول ببساطة الظاهر، وغليان الباطن: ماذا سيكتب أدباء فلسطين بعد أن يتحقق لهم الوئام مع الكيان «وهو كيان مصطنع زائف وإن ملأوا الدنيا بالحبر والأختام والاتفاقيات»؟؟ ماذا سيقول هؤلاء الأدباء عندما ينتهي هذا الحنين إلى الوطن؟؟ والفحوى الشائكة المشاكسة ربما: ماذا أو إلى أين سينتهي الأدب الفلسطيني؟؟.

---

(*) طلعت سقيرق: أديب وقاص من فلسطين. رئيس القسم الثقافي في مجلة «صوت فلسطين». من أعماله: «دليل كتاب فلسطين».

مثل هذا السؤال احتمالي في طرحه، أي أن السائل قد يكون أحد اثنين، إما في صدد السؤال البريء النابع عن حب ليس إلا.. وإما في صدد الساعي إلى التشكيك في هذا الأدب، أو القول بآنيته.. وحتى لا تجرنا العواطف، وحتى لا نقع في مطب الدفاع في مسألة لا تحتاج إلى دفاع. نفترض أن السؤال بريء براءة ما بعدها براءة. وأنّ الناقد، والمتابع، وكل مهتم بالأدب، عليه أن يدقق في جوانب الصورة، حتى لا نعيد مثل هذا السؤال بين الحين والحين.. وأيضاً حتى لايحتاج أي أديب الوقوف وإن لمرة واحدة، موقف المدافع أو المفسر.. إذ علينا أن ننهي مثل هذا الدوران في الإجابة عن سؤال لا معنى له في الأصل، ولا جدوى من طرحه في الأساس.. إذ أنّ السؤال في دورانه حول مسألة محسومة أصلاً، يعني جعلنا أسرى جواب محسوم أيضاً. ولن أكرر هنا ماكان طرحه الأدباء والمبدعون حول المكان وما شابه.. لكن سألجأ مباشرة، إلى التداخل مع مدّ ظلال السؤال، لا السؤال.. لأن الذي يهمني، يتعلق بالأدب العربي الفلسطيني ككل، وليس الأدب الفلسطيني في راهنيته ولحظته وبرهته الزمنية..!..

السؤال، وانسحاب ظلال السؤال، يعنيان ربط الأدب الفلسطيني ربطاً لا فكاك منه باحتلال فلسطين، وهذا يعني أن الأدب أدب مدّة من جهة، وأدب مناسبات من جهة ثانية.. فهل يصح مثل هذا الربط؟؟ وعلى أي أساس يقوم هذا الربط الذي يعمل بشكل مباشر على شدّ الأدب إلى التمرحل والوقوف عند حدود زمنية معينة.. وكأنّ المناسبة هي التي أنتجت الأدب، أو كأنّ احتلال فلسطين من قبل العدو الصهيوني، هو الذي جعل أدباء فلسطين يكتبون أدباً.. والمضحك في كلّ الحالات، وفي كل التفسيرات، أن السائلين ينسون أو يتناسون أن الأدب الفلسطيني كان قبل الاحتلال، ومع نشأة الأدب، أو منذ كان هناك كتابة أو مشافهة في الأدب.. أي أن شعب فلسطين لم يحمل القلم ويسطر السطور عندما بدأت فلسطين في دخول مرحلة الظلمة الاحتلالية الضاغطة.. وقبل ذلك -هكذا يفترض السؤال- كان الكتاب يغطون في نوم عميق. وفي أحسن الحالات، لم يكن هناك من يكتب من أهل فلسطين.. فهل هذا معقول بأي شكل من الأشكال.. وهل يمكن أن يكون الأدب، أي أدب، مضغوطاً إلى هذا الحدّ المضحك، ليكون حبيس مرحلة زمنية، تبقى في كل الأحوال مرحلة طارئة على حياة شعب، لأنّ الخلاص من الاحتلال أمر أكيد.. وهذا لا يعني بأي شكل من الأشكال، إيقاف دورة الأدب، أو إيقاف دورانه. لأنّ زوال الاحتلال الطارئ لفلسطين، لايعني بأي شكل من الأشكال، توقف شعب فلسطين عن الاستمرار مع الحياة، والاستمرار مع

العيش بشكل طبيعي مع هذه الحياة، كما يعيش أي شعب آخر في الدنيا.. إذ أن وجود الاحتلال هو الطارئ، وهو الدخيل، وزواله، لا يعني أن تتوقف دورة الحياة بأي شكل من الأشكال..!!

هل أحاول الابتعاد عن الحدية في طرح المسألة؟؟ هل أريد من قبل ومن بعد الاستغراب والاندهاش حين أرى إلى هذا الإصرار أحياناً في تضخيم السؤال، ليكون سؤالاً ذا أبعاد كثيرة في هذا الوقت أو ذاك؟؟ أم أنّ هدفي يتحدد في إثارة سؤال يقول: افتراض مثل هذا السؤال يعني أن الاحتلال زال، فهل زال الاحتلال حقاً؟؟ وهذا السؤال يستدعي سؤالاً آخر يقول: هل كان أي أدب في العالم، منذ القديم وحتى الآن، مرتبطاً بالاحتلال أو الاستعمار، بعيداً عن مدّة محددة يوجد فيها هذا الاحتلال أو الاستعمار؟؟ وحين نتوسع في القراءة نسأل، ومن حقنا طبعاً أن نسأل: هل كان الأدب الفلسطيني المقاوم، هو الأدب الوحيد في العالم الذي شكل خلال سنوات من عمره أدباً مقاوماً مدافعاً عن حق شعب في الحياة والحرية والاستقلال..؟؟ ومن بعد هل انتهى الاحتلال أو الاستعمار؟؟

طبيعي أنّ الاحتلال موجود، وهذا يعني أن الأدب الفلسطيني المقاوم، سيبقى في حالة مقاومة لهذا الاحتلال. فالسؤال في جميع الحالات، رغم عدم المشروعية فيه منذ البداية سؤال عديم الجدوى. إذ كيف نسأل عن هذا الأدب وصفته المقاومة، مادام الاحتلال قائماً ومستمراً. إذن علينا أن نؤجج فعل المقاومة في هذا الأدب، قبل أي شيء آخر. ونخطئ حين نغمض العين لننتقل إلى فرضية غير موجودة في الأساس. فالربط ربط محكم في تمرحل هذا الأدب وآنيته مع صفة المقاومة. وحين نزيح فرضية السؤال إلى فرضية وهمية تقول بزوال الاحتلال فكأننا ننتقل للحديث عن شيء خيالي، ونحن في قلب الواقع، لأن أدب فلسطين هنا، يجب أن يكون أدباً مقاوماً، أدباً مدافعاً عن وجود شعب وحقه بالحرية والأمان. ولن نسأل لماذا يطرح السؤال الآن، مادمنا نقول بأنّ الزمن ليس زمن طرح مثل هذا السؤال؟؟ لأن الإجابة، مهما كانت، لا تعنينا، مادمنا نؤمن بأن الأدب الفلسطيني المقاوم موجود، وبأنّ مقاومة الاحتلال موجودة، وبأنّ الأشياء ما زالت على حالها..

نلاحظ قبل الانتقال إلى النقطة الأخرى هذا التحديد التوصيفي، فنحن نقول بشكل عادي أدب فلسطيني مقاوم، أي أن المقاومة توصيف تقتضيه الضرورة، كما يقتضيه الزمن الراهن. فمفردة «المقاوم» لا تشكل كما نرى الأدب الفلسطيني، ولا نقول إن كلّ الأدب

الفلسطيني في كلّ الأزمان هو أدب مقاوم.. بل نقول بكلّ بساطة: الأدب الفلسطيني المقاوم.. وهذا يعني ببساطة أيضاً أنّ التوصيف توصيف مرحلي، لا توصيف شمول وانسحاب على الكلّ زمنياً.. ولو كان الأمر كذلك، لكان القول الأقرب إلى المنطق يقول «الأدب الفلسطيني مقاوم» أي أن نخبر عن هذا الأدب، دون تحديد الزمن.. لكن حين نقول «الأدب الفلسطيني المقاوم» فلا خروج عن قاعدة المرحلة والآنية، والارتباط بزمن معين.. ومع زوال الاحتلال.. نقول بشكل طبيعي إن صفة المقاومة تصبح خارج المعنى المراد، لأنّ الأدب المقاوم، يعني وجود طرف يقاومه هذا الأدب، وحين يزول هذا الطرف، تزول صفة المقاومة، ويعود الأدب إلى سيرته.. مع أننا نشير، وبكلّ بساطة، إلى أن الاحتلال مازال باقياً، وبشكل طبيعي فإنّ الأدب المقاوم باق أيضاً..

في الإجابة التي تتعلق بتفريع السؤال، نعرف أنّ كلّ أدب في العالم، حين يتصف بالمقاومة مع وجود احتلال أو استعمار، فهو يرتبط ارتباطاً زمنياً جزئياً بالمرحلة.. ثم يعود من بعد إلى سيرته الأولى.. وهذا لا يتعلق بالأدب الفلسطيني فقط، كما لا يتعلق بأي أدب آخر على وجه التخصيص أو التحديد، بل يتعلق بكل أدب في كل زمان ومكان..

طبيعي أن يكون الأدب، في الظروف الخاصة الكبيرة، ابن مرحلته، لأنّ الأديب في النهاية ابن شعب، ولا يستطيع أن يكون خارج إطار الزمن الذي يعيشه هذا الشعب. وحين يتعرض شعب ما إلى استعمار أو احتلال أو اعتداء خارجي، فعلى الأدب أن يكون سلاحاً من الأسلحة، لا أن يكون خارج كلّ الحياة المعيشة وكأنه في كوكب آخر، أو كأنه يدير ظهره لناسه ووطنه وشعبه وزمنه وكلّ ظروفه. لأنّ أدباً كهذا، سيكون خارج إطار الانتماء إلى الشعب الذي يحيط به.. وهذا يعني تناقضاً ما بعده تناقض!!..

قد يطرح هنا سؤال يقول، هل يعني هذا، أن يكون أدب هذه المرحلة أدباً راهناً، لا يستطيع الانتقال إلى زمن لاحق.. بمعنى آخر: هل يعني الأدب المقاوم، أن يبقى ضيق التواجد حيث لا يستطيع التنفس في جوّ المستقبل، لأنه أقرب إلى المناسبة، والزمن الذي كتب فيه، مما يجعله دون جناحين، أي ما أن يزول الاحتلال، حتى تزول القيمة الفعلية لهذا الأدب، وتسقط بالتالي قيمته الفنية؟؟..

نظلم أدب المقاومة، كما نظلم أي أدب في العالم، حين نلجأ إلى التعميم في الإجابة، إذ لا نستطيع القول إن هذا الأدب أو ذاك سيزول في مجموعه، كما لا نقول، ولا يمكن أن نقول، إنه سيبقى في

مجموعه. فالمسألة تتعلق بروح هذا الأدب، بإنسانيته، بقيمته الفنية، بصوته ورنة الإبداع في هذا الصوت.. كل أدب يحمل النقيضين، فهناك جزء من الأدب يستمر مع السنوات، وهناك جزء يزول في لحظة خروجه إلى الهواء الطلق. إذ أنّ القدرة على الحياة، وعلى الاستمرار والتواجد، لا تتعلق بأن يكون الأدب أدباً مقاوماً، أو غير مقاوم.. بل، وعلينا أن نعي ذلك، فإن الأدب ينشد إلى الزمن مادام قابضاً على جمرة التوهج في الزمن.. والأدب يخسر صوته وصورته وكل بنيته، حين يكون دون روح منذ البداية.. وإزاحة كلّ توصيف أمر لابدّ منه، لأن التوصيف التنظيري، أو التوصيف الذي يريد أن يقول هذا الشيء أو ذاك بشكل تبريري، لا يعني شيئاً في عالم الأدب. ونعي أن روح الأدب هي الأعلى والأقدر على الحياة. وأي تبرير لا يفيد ولا يبني شيئاً. فهناك أدب مقاومة سيبقى وهناك أدب مقاومة سيزول.. وهذا أمر عام ينسحب على كلّ أدب..

نصل هنا إلى اتساع وشمولية صورة الأدب. وفي كلّ الأحوال يجب أن نصل إلى هذا الاتساع وهذه الشمولية. فالمسألة كما نعي، وكما نعرف، في قراءة كلّ ثقافة وكلّ أدب عبر التاريخ، لا تعني التوقف أو حصر كلّ القول في زاوية زمنية محددة، ضاقت هذه الزاوية أو اتسعت، لأنّ الثقافة، كما الأدب، كما الفن على وجه العموم، مسألة لها علاقة بحياة واستمرارية شعوب، ولا يمكن أن تكون في يوم من الأيام مسألة ظرف خاص، أو ظرف طارئ، أو مرحلة من هذا النوع أو ذاك..

الأدب الفلسطيني، في هذا الحيز، وهو كأي أدب، أدب عربي خاص بشعب عربي هو شعب فلسطين. وطبيعي أنّ هذا الأدب لم يبدأ عام ١٩٤٨، لينتهي عام كذا.. فقد سبق الأدب عام ١٩٤٨ بما لا يعدّ من سنين، وسيبقى بعد زوال الاحتلال مع بقاء الشعب الفلسطيني، وبقاء المبدعين فيه. والأديب الفلسطيني سيعمل على نصه وإبداعه في كلّ زمان ومكان مرتبطاً، كأي أديب آخر في العالم، بظرفه وحياته وحياة شعبه، ومحيطه، وإنسانيته. وهذه الأشياء لا تقبل القسمة أو التغير والتبدل. فهي أشياء وجدت مع الأدب، لا مع الاحتلال، وستبقى مع الأدب، وإن زال الاحتلال. وحين نقول «الأدب العربي الفلسطيني» فهذا يعني تجاوز التمرحل والزمن والآنية، وصولاً إلى الدائرة الأوسع التي تعني الأدب ككل. ولن يعنينا في شيء، أن يقال هذا القول أو ذاك، ما دمنا في النتيجة في بناء أدب يسعى لأن يكون على الدوام أدب شعب..

هل يعني ذلك خروجاً نهائياً من فوضى الأسئلة التي تأتي دون مناسبة في كثير من الأحيان؟؟ لا نريد أن نضيف إلى ما قلناه غير كلمات بسيطة تقول: إنّ الأدب

الفلسطيني، في دائرة الأدب العربي والأدب العالمي، سيبقى كبيراً قادراً على وضع بصمته بقوة وثبات..

## ثانياً/ المكان وقاموس الوجد:

لم أخرج طبعاً عن التواصل مع العنونة الأولى المتعلقة بالحنين في حديثي عن الوجد،وهنا أرى أنه يصعب أن نتحدث عن المكان في قاموس الوجد الفلسطيني، دون أن نقرنه بالشهوة، وإذا كانت معاجم اللغة ترى أن الشهوة هي الرغبة الشديدة، والقوة النفسانية الراغبة فيما يشتهى، فإنّ شهوة المكان في معجم اللغة الوجدانية الفلسطينية، تعني قوة راغبة في التماهي مع المكان بالنسبة للإنسان العربي الفلسطيني، وقوة راغبة في التماهي مع الإنسان العربي الفلسطيني بالنسبة للأرض العربية الفلسطينية. أي أنّ رغبة اللقاء والتلاحم والتداخل نابعة هنا من طرفي المعادلة، حيث يأخذ كل طرف صفة المشتهي والمشتهى. ومثل هذه العلاقة التبادلية، تعطي لشهوة المكان معنى جديداً متحركاً، لا يتصف بالتوقف عند طرف واحد. وإن كان الأمر غير ظاهر على السطح بكلّ هذا الوضوح في فهم الصورة بالشكل الصحيح، فإن وضوحه في الوجدان يمكن أن يلمس في أي لحظة من اللحظات. ذلك أنّ الوجدان قابض في آلية حركته الدائمة على هذه الجمرة بوضوح شديد. وكلّما حاولنا الغوص أكثر في حركية الوجدان، رأينا إلى أي حدّ تضطرم شهوة المكان ويعلو صوتها. وإذا كان الشعر كما نعلم، هو الأقرب إلى الوجدان، أو أنه الضمير المعبر عن هذا الوجدان وهويته، فإنّ قراءة الشعر العربي الفلسطيني، تضعنا في قلب الصورة المعبرة عن شهوة المكان دون حاجز أو فاصل..

قد تكون شهوة المكان في الشعر الفلسطيني في المنفى أشدّ إلحاحاً وبروزاً وظهوراً، جراء وقوع الابتعاد والتشرد واللجوء. ليكون المشتهى والمشتهي، الإنسان والأرض في آن، طامحين إلى اللقاء. وهذا لا يعني أن شهوة المكان ليست حاضرة في شعر الوطن المحتل. إذ من المدرك بداهة، أنّ تواجد الاحتلال الصهيوني بكلّ ما يمثل من ضغط وتنكيل وإرهاب، يعني وجود حاجز نفسي بين طرفي المعادلة. فالأرض الفلسطينية خاضعة لقوة غاشمة، تمنعها من اللقاء الكلي مع إنسانها العربي الفلسطيني.. والإنسان العربي الفلسطيني واقع تحت ضاغط احتلالي غاشم يمنعه من اللقاء الكلي مع أرضه العربية الفلسطينية.. وطبيعي في مثل هذا الحال، أن تبرز شهوة المكان بوضوح عند طرفي المعادلة. لذلك جاء الشعر العربي الفلسطيني في الوطن المحتل،معبراً خير تعبير عن شهوة المكان هذه، وفي تركيز قصدي نابع من صدق الوجدان، على طرفي المعادلة، الإنسان والأرض.

قد نجد في هذا المسار، أنّ الشعر، يهرب في حالة من الحالات، إلى التلاحم مع المكان رغم تواجد الاحتلال، تعبيراً عن رفض حالة الفصل النفسي التي يريدها هذا الاحتلال. لذلك تلجأ القصيدة إلى ربط المشتهى بالمشتهي ربطاً محكماً شديد اللحمة. ليقول بصريح العبارة، إن الاحتلال لا يستطيع أن يمنع اللقاء المرتجى. وفي مثل هذه الحركة التي تلتف على أي محاولة لفصم عرى التلاحم، يتحول المكان إلى سلاح دفاعي يعطي صاحبه القدرة والقوة من أجل الاستمرار وجوداً وعلاقة وتحدياً. ولنا أن نقرأ عند الشاعر سليمان دغش -من الوطن المحتل- قوله: «**مخدتي زهر/وفرشتي حشائش برية/ والبدر قنديل السمر/ وأنت لي أغنية/ إن جعت آكل التراب/ وأمضغ الحجر/ وإن عطشت أوقف السحاب/ وأنزل المطر..**» لنرى أن الحالة، رغم كل هذا التحدي الذي يحمله الشاعر من خلال التحامه بأرضه، تبقى حالة معبرة عن شهوة المكان في المعنى الذي أشرت إليه سابقاً. فالشاعر ليس بحاجة إلى أن يأكل التراب، ويمضغ الحجر، لولا وجود الاحتلال. فالمكان هنا، مكان حاضر في آن، ومغيب بعض الملامح الطبيعية والمرتجاة في آن آخر. وإن أخذنا الحيز الشعري في زمن لا احتلال فيه، لتغير التصور تماماً. صحيح أنّ التلاحم سيبقى قائماً، وصحيح أن التداخل سيبقى مستمراً، لكن ستتغير الأفعال التي تأتي هنا نتاج ضاغط احتلالي، فالاحتلال يعني الجوع والعطش والعذاب، بينما شهوة المكان المرتجاة، تعني توفر الطعام والماء والأمن والاستقرار. وقد يصل بنا الأمر إلى القول إن الشاعر هنا يشتدّ إيغالاً في مفردات المكان، ليعبر التعبير الأوفى عن شهوة المكان. وطبيعي أنّ الإحساس بالفقد، أو لنقل الإحساس بثقل الضاغط الاحتلالي ذي الأثر والتأثير على الأرض والإنسان، يدفع الشاعر بشكل تلقائي إلى هذا الإصرار على التشبث بكلّ مفردات المكان. ويمكن أن نشعر، إذا دققنا أكثر في جوانب الحيز الشعري المقول هنا، أن الأرض تتجسد، وأنّ الإنسان يتشيأ، لتكون الأرض إنساناً، وليكون الإنسان أرضاً. وحين نريد أن ندرس الحالة النفسية بشكل صحيح، نجد أن الشاعر مسكون بشهوة المكان، وأنّ الأرض مسكونة بذلك..

إنّ الالتفات إلى الماضي، ماضي المكان الذي ما كان يعرف احتلالاً، يجعل شهوة المكان تكبر وتتقد وتعلو وتيرتها، ولأنّ هذا المكان يطلب العودة إلى ماضيه، أي إلى حريته، فقد كانت الشهادة ثمناً أو مهراً يدفع، لتعود شهوة المكان إلى حالتها الطبيعية.

من هنا القول، إن الشعور بالفقد قائم موجود عند شاعر الوطن المحتل،

وهذا ما يجعله يرى أن الشهادة ضرورة من أجل إعطاء المكان المشتهى صورته المطلوبة. فالإنسان العربي الذي يقدم دمه وروحه، يقدمها لأنه عاشق يشتهي أن تعود الحرية لأرضه، ويشتهي أن تزول الظلمة والعتمة عن هذه الأرض. وهنا تكون شهوة المكان في قمة توهجها وانطلاقها، إذ ليس هناك أغلى من الروح تدفع في هذا المجال، يقول الشاعر هايل عساقلة /من الوطن المحتل/:

في موطني عشق الصبايا قاتل

والعشق مثل مياهه لا ينضب

إن يسقط الشهداء فوق تلالنا

ويقدموا ما تشتهي أو تطلب

فالعشق علمهم بأن ترابنا

أغلى من الرمق الأخير وأعذب

يمكن ببساطة التعبير عن شهوة المكان، من خلال الوصول إلى تقديم الأغلى من أجل هذا المكان. ودون لجوء إلى أي شرح، علينا أن نلاحظ أن التلال تشتهي وتطلب. والشهوة هنا تعبير حي عن افتقاد الشعور الطبيعي. إن أعطينا وأسقطنا الشعور على المكان، بحالة الأمن والاستقرار، ولا يمكن للتلال/المكان، أن تطلب من إنسانها الشهادة، ومن صاحبها الدم، لولا هذا الافتقاد. هي تريد أن يعود الحال إلى ما كان عليه قبل الاحتلال، أي تريد أن تحقق إقامة العلاقة بشكلها الصحيح مع عاشقها وإنسانها وصاحبها..

وإذا حللنا بصورة أدق جوانب الطلب من الأرض التي تأخذ صفة المشتهى هنا، نجد أنها تعشق إنسانها كما يعشقها تماماً. ولأنّ العشق لا يكون عشقاً صحيحاً وصحيّاً بوجود حائل أو غريب، فإنّ الطلب مشروع بأن تنادي وتصرخ أن أعيدوا إليّ الهواء الطبيعي الذي كان، والجو الصحي الذي يصلح لنمو هذا العشق بالشكل الصحيح. وطبيعي أن الإنسان المشتهى في الحيز الشعري، لا يبتعد أيضاً عن منطق الإنسان المشتهي، فهو يريد حرية لأرضه، يريد خلاصاً، ويريد عشقاً صحياً كما تريد. وحين يندفع مقدماً روحه ودمه، يحقق حالة ذهابه الصحيح في السعي إلى إعطاء المكان فسحة الحلم، والتواصل مع فسحة الحرية ولا يطغى هنا جانب على جانب آخر. فشهوة المكان، تسكن الطرفين. وتحيل الصورة إلى صورة مسكونة بكلّ ألوان التضحية والبذل من أجل الوصول إلى المكان المشتهى. والتضحية هنا ليست تضحية إنسان فحسب، بل هي تضحية مكان، لأن المكان يقدّم عاشقاً له، من أجل عشاقه الآخرين، ليكون غدهم أفضل. وهكذا تكتمل جوانب الصورة، وتصل إلى تعبيرها الأوفى..

يعيد الشاعر سليمان دغش تأجيج شهوة المكان في صورة أخرى حين يقول: «لماذا حاولوا قتلي/ لماذا حاولوا فصلي/ عن الأرض التي انتشرت على جفنيّ منديلاً/

**من الأزهار والعشب/ لماذا حاولوا فصلي عن الأرض التي التحمت على قلبي/ جناحاً ناعم الزغب/ لماذا حاولوا التفريق بين العين والهدب/ سلوا الزيتون/ فالزيتون يعرفني/ ويشهد أن ذا وطني/ وأني راسخ كالصخر/ كالزيتون كالعنب/ سلوا الأشجار/ والأحجار/ إن شئتم/ فكل الأرض تعرفني/ وكلّ الأرض تعشقني»..**

فالتساؤل هنا صيغة بحث قبل أي شيء آخر، وصيغة تشوّق وتطلع وسعي للمكان الذي يرى الشاعر أنه ينتزع منه، أو أنّ المحاولة الاحتلالية دائبة مستمرة لانتزاعه منه. وما نراه من تركيز شديد على اللحمة بين الشاعر وأرضه، إنما ينبع، من الكينونة الإنسانية العربية التي تشعر شعوراً حاداً بافتقاد رائحة المكان الطبيعية..

صحيح أن التحليق الشعري هنا يضعنا أمام حالة لا مثيل لها من ربط الإنسان بأرضه، ومن ربط الأرض بإنسانها. ولكن الإدراك موجود بأنّ هناك محاولة دائمة للفصل والبتر والقطع. الاحتلال، ولأنه لا يستطيع مهما حاول، أن يشعر بشهوة المكان التي يشعر بها الإنسان العربي الفلسطيني، يريد أن يكسر كلّ محاور هذه العلاقة القائمة بين الإنسان وأرضه، بين الأرض وإنسانها. يريد أن يجعل العلاقة واهية، لأنه بالأصل يشعر أنّ علاقته بأرض فلسطين، ما دام غريباً عنها، واهية لا تصل بأي حال من الأحوال إلى جزء من أجزاء العلاقة القائمة بين الفلسطيني وأرضه.

شهوة المكان عند الصهيوني مفقودة، مهما حاول الادعاء بها، ومهما حاول أن يرسخها في ذاته. هو يعرف أنه غريب عن المكان، غريب عن الطبيعة، غريب عن الجو، فكيف له أن يشعر بقيمة شهوة المكان بالمعنى الصحيح.. والسلاح الذي يستعمله لا يكون إلا بمحاولة كسر حرارة شهوة المكان عند الإنسان العربي الفلسطيني، وهو يزداد التحاماً في كل ذلك، لا يجد إلا الفشل تلو الفشل. لأن الإنسان العربي الفلسطيني، وهو بأرضه، ويصرّ على التلاحم مع كلّ موجوداته. وفي آلية بحثه الدائمة في تثبيت أطر شهوة المكان، يسعى إلى طرد الاحتلال، ليكون المكان المشتهى كما كان من قبل. فالإنسان العربي الفلسطيني يشعر أن للمكان روحاً تشتهي، وقلباً يخفق، ودماً يحن.. لذلك يحارب كلّ محاولة من محاولات الفصل بينه وبين هذا المكان..

إنّ الحيز الشعري المنتقى هنا، ينبع من إثارة السؤال «لماذا»؟؟ وحين يأتي فعل «القتل» يرتبط مباشرة بفعل «الفصل» أي أنّ محاولة الفصل بين الإنسان الفلسطيني وأرضه، هي محاولة قتل. ومع كلّ تقدّم في

ثنايا الحيز الشعري نلحظ أن الشاعر يركز على أن التلاحم الإنساني المكاني، مسألة لا جدال فيها أو حولها. لذلك تقفز الطبيعة في صورتها الكلية لتتأنسن، معبرة عن علاقتها بإنسانها العربي الفلسطيني. وربما كانت مثل هذه العلاقة من أكثر المقولات تعبيراً عن شهوة المكان التي يتبادل فيها الطرفان دور المشتهى والمشتهي..

إن المطالبة بتوجيه السؤال للزيتون والأشجار والعنب والأرض بمجموعها، تعبير عن أنّ العلاقة بين الأرض وإنسانها ذاهبة في القدم، راسخة في الأصالة، مستمرة في التواجد. والشاعر دون أن ينتظر الجواب، يعرفه. لأنّ كل موجودات الطبيعة تدخل في حيز المشتهي والمشتهى، كما يدخل هو. وإذا كانت الأرض تطلبه وتناديه وتعرفه بشكل تلقائي، فهو أيضاً يطلبها ويعرفها ويناديها بشكل تلقائي. إنّ النبع هنا نبع تبادلي، وإنّ الشعور هنا شعور متداخل. وحين تنفتح شهوة المكان عند الأرض، تنفتح في الوقت ذاته عند الإنسان العربي الفلسطيني. فالثقة نابعة من تلاقي والتقاء شهوة المكان عند طرفي المعادلة. ولا تأتي ثقة الشاعر كما أسلفنا إلا من بناء نفسي محكم يعرف أن قوة حركة الطلب موجودة في الأرض كما هي موجودة فيه. وكلّما أمعنا أكثر في أبعاد الحيز الشعري وجدنا متانة هذا البناء الذي تحدثنا عنه، وبروز قيمته..

نعود هنا إلى القول إن شهوة المكان في قاموس الوجد الفلسطيني تعني الكثير، وفي المؤدى تعني عند طرفي المعادلة بحثاً دائماً عن الخلاص من الاحتلال. ولنا أن نقرأ عدة نماذج نختتم بها حيز هذه العنونة/الجزء، ليجد القارئ في دراستها الكثير مما ذهبنا إليه في الحديث عن شهوة المكان.. يقول الشاعر عبد الناصر صالح/ من الوطن المحتل/: «إنّ التراب يريد دماء/ تغذي جذور الربيع/ وتفرش درب النضال المثابر» ويقول الشاعر الراحل هايل عساقلة:

إن تســألوا نبع من الكوثر
وطني وبستان من الصعتر
وحجارة من مرمر صقلت
فتمايل الياقوت والمرمر
فثراك حفنة أنجم ولذا
لو ضمني كفناً فلن أخسر

ويقول سميح صباغ «يا أيها الشهداء ملح الأرض أنتم والبذار/ مذ كنتم عادت إلى الدنيا طبيعتها/ وكان البدء والإخصاب/ والإزهار والإثمار/ عادت نحو مجراها الجبال/ وتساقط الثمر الرديء..»
وأيضاً هايل عساقلة في قوله:

نتلظى ودمـانـا تشـهـد
مطلع الفجر وقد لاح الغد
نحن لبينا فيا أرض اشهدي
لحمنا في كل درب يشهد
كم عقدنا مهرجاناً للضحى
من ضحايانا وقمنا ننشد

وقوله:

ذي فلسطين التي نعبدها
وسواها جنة لا نعبد
كلّ نجم في سماها قبلة
كلّ شبر في ثراها مسجد
بنيت من أضلع ساحاتها
وعلى الصدر تعالى المسجد

## ثالثاً/ أنفاس الوطن-ملامسة الجرح:

لا أخرج عن مدار الحديث في موضوع «شهوة المكان» التي رأيت أنّ لها الأثر الكبير في الشعر الفلسطيني خاصة، وفي الأدب الفلسطيني عامة. وفي هذا الحيز من الدراسة، أحاول ملامسة نبض «شهوة المكان» في الشعر الفلسطيني الذي كتب في المنفى بعد سنوات قليلة مرّت على الفلسطيني في تشرده وبعاده عن الوطن. وفي هذا يفترض أنّ جمرة الجرح ما زالت في أوج اتقادها، وحرارة التواصل مع الأرض ما زالت في سخونتها وفورانها. هذا لا يعني أن نميل إلى التفسير والتأويل في أن «شهوة المكان» تنتقل لتكون على غير ما كانت عليه مع مرور الزمن. لكن كما نعلم، تختلف صيغة الخطاب، كما تختلف صيغة التركيب. فاللغة، وهي في لحظة التماهي مع الذات الشاعرة، تنقل لحظة التفاعل وبرهته قرباً وابتعاداً في رحم الزمن.

صحيح أنّ «شهوة المكان» تبقى جمرة الجمر في فترة الحرمان من البيت والشارع والوطن، لكن اللغة تتغير في التركيب والأسلوب، كما يتغير نمط التفكير الإبداعي واللغوي. فالمعنى الانتقالي هنا، إذا قبلنا بزحزحة انتقالية معنوية في هذا المجال، يكاد يكون راجعاً إلى برهة اللحظة الزمنية، القريبة حيناً، والبعيدة حيناً آخر، وبما يعني تغيراً في اللغة كإنجاز معماري شعري، وفي التفكير كإنجاز يضخ اللغة ونمطها وصورة تشعبها..

في دراسة اللحظة الزمنية القريبة من عام النكبة ١٩٤٨، للقبض على جمرة «شهوة المكان» شعريّاً هنا، لابدّ من الانتباه إلى أنّ النص الشعري الفلسطيني المقارب زمنيّاً للنكبة، ينتفض في سيرورة حديثه عن المكان تلوّعاً، لكن في وقت كهذا، وإن قارب اللحظة المنفعلة بكلّ حيثياتها،

واللحظة الرومانسية بكلّ ابعادها، فإنه يحافظ على فنية عالية. لا تجعله يهبط او يتراجع كما يطيب للبعض أن -يدّعي-. ولست هنا في صدد الدفـاع عن إنجاز شعري فلسطيني مقارب للحظة النكبة. لكن محاولة كيل الاتهامات أحياناً، ووصف هذا الشعر المرتبط بمرحلة معينة، بالبكائية والعويل وما شابه، يبتعد في الكثير منه عن الدقة.. إذ التعميم في النقد أحياناً قاتل، وصبغ النتاجات الإبداعية كلها بلون واحد مجانب للصواب..

ربما عليّ أنّ أقف هنا عند قصيدة الشاعر حسن البحيري «أنفاس الوطن»، هذه القصيدة التي كتبت صيف عام ١٩٥١، وما تجاوز عدد أبياتها عدد أصابع اليد، لكنها شكلت في المبنى والمعنى والسيرورة والمضمون إضافة تذكر. وإذا عدنا إلى تاريخ كتابة القصيدة، نعرف أنها تقدمت وأسست لمحور هام في الشعر، كان من الواجب الانتباه له، لمتابعة السير على هداه،يقول الشاعر البحيري:

سـألتْ ذات حنين أختـها
والدجى يعقد أجفان الوسنْ
وصدى النجوى على أفق الربى
يزفر اللهفة في ليل الشجنْ
اخت ماسر الشذا من زنبق
حسير الأدمع في خد الزمنْ؟
فأجابتها بلحن شارد
رنْ فاهتز له عطف الفنْ
يا ابنة الأيك ويا اخت الشجى
ارج الزنبق انفاس الوطن..

نلاحظ كيف يبني الشاعر قصة في خمسة أبيات، وفي الروي لا يلتفت إلى أي شيء غير الفعل الذي يؤسس لجملته الأخيرة، أو النهاية المشرقة، والتي تتبدى فيها شهوة المكان في أبهى صورة. وإذا كانت الأبيات في ظاهر الحال آنية تقارب الحاضر، فإنها في الواقع الأشد أثراً وبروزاً تميل إلى الماضي، ولنا أن نرى أنّ هناك في كل القصيدة سبعة أفعال «سألت، يعقد، يزفر، حير، فأجابتها، رنّ، اهتز» خمسة منها أتت في صيغة الماضي، والفعلان المضارعان كما يلحظ «يعقد، يزفر» جاءا في التعبير عن الحنين إلى الماضي. وإذا انتقلنا إلى امتداد هذا النص الشعري القصصي، لرأينا أن مؤداه الرائع، إنما يظهر في عجز البيت الأخير، ليكون المصبّ الذي يستطيع استيعاب كلّ السيرورة السابقة عليه «أرج الزنبق أنفاس الوطن» وهنا نستطيع القول إن شهوة المكان تغلي، ترتفع، تحلق، تتوتر. فالشهوة

أو اشتهاء المكان، لا يترك فاصلة واحدة لسواه..

في الانتقال إلى قصيدة «داري» لأبي سلمى، الشاعر عبد الكريم الكرمي، تقفز إلى الذهن الكثير من التداعيات المكانية، لأن الشاعر في صلب بناء القصيدة، يعتمد الاتكاء الكلي على الإحساس بالمكان. ومثل هذا الإحساس يولد عنده صوراً غنية بما تحمل من خصب، يقول:

هل تسألين النجم عن داري
وأين أحبابي وسماري
داري التي أغفت على ربوة
حالمة بالمجد والغار
تفتح الزهر على خدها
فعطرت أيام آذار
الشمس لا تضحك إلا لها
تهدي إليها وشي أستار
والتينة الخضراء في ظلها
تاريخ أشواقي وآثاري

نلاحظ أن «شهوة المكان» لا تأتي عند أبي سلمى كما عند البحيري. الفارق رغم جمال القصيدتين وروعتهما دون شك، أن البحيري يبني قصة من جهة، ويؤسس للنهاية الذروة من جهة ثانية، ولا يترك في أبياته الخمسة إمكانية لك أو لسواك، لرفع أي بيت أو تغيير موقعه.. بينما تستطيع عند أبي سلمى أن تفعل، وتستطيع أن تقول ما تقول.. وهذا كله لا يعني التقليل من قيمة شعر أبي سلمى، خاصة أن هذه القصيدة من أروع قصائده، وأكثرها انتشاراً وجمالاً. وفي الحديث عن «شهوة المكان» خاصة تشكل هذه القصيدة بصمة مكانية. والأغلب أن أبا سلمى مسكون بحب كلّ ذرة تراب، لذلك كان شريط الأمكنة يندلع إلى ما لا نهاية.. هنا لا تكتفي الذاكرة باستحضار المكان المعروف القريب فقط، بل تنقل معه الروح والأنفاس والعطر.. ولا نستغرب أن يغوص أبو سلمى في ذاتية المكان الفلسطيني، ليحاول في كلّ خطوة يخطوها أنسنة هذا المكان.فهو لا يريد مكاناً بارداً محايداً، لا يريد مكاناً لا روح فيه.. إنه بالمعنى الأعم، يريد التواصل مع مكانه المعيش بكلّ ما في المفردة من معنى. ولا نتصور في هذا الدفق الذي يشكله الشاعر أن هناك أي تراخ في برهة الاستحضار. وإذا أردنا الصحة، نقول إن الشاعر يصل إلى جعل الماضي، فعلاً حاضراً معاشاً..

قد يكون الشاعر محمود الحوت في قصيدته «حفنة تراب» أقرب إلى المعنى المراد كحنين وشوق اندفاع في بصمة «شهوة المكان» يقول:

هل اتاك الحديث عن جنة الله

وعن خلده الطليق الرحيب

تلك ارضي.. وما ترى في يميني

حفنة من تراب أرضي السليب

إيه يا حفنة التراب اعذري

الدمع إذا ما جرى كسيل اللهيب

إن في كلّ ذرة منك جيلاً

من شباب فدوك يوماً وشيب

فالاستحضار المكاني هنا لا يتم في شهوته من خلال القبض على جمرة التذكر فحسب، بل يعايش حفنة من تراب الوطن، لتتدفع الصور غزيرة في التشكل والانزياع في الحاضر المحاط بهذا الجو المشحون، شاء الشاعر أم أبى، بالتداعي، حفنة التراب، لا تترك مجالاً لأي نفس آخر، غير نفس معايشة رائحة المكان.. لاحظ هذا التركيب التساؤلي «هل أتاك الحديث عن جنة الله وعن خلده الطليق الرحيب» وعن تأثره بالنص القرآني. ثم لاحظ هذا الجواب المختصر «تلك أرضي».. فالشاعر قبل أن يرينا حفنة التراب في يمينه، يفرد أمامنا تقريراً يقول إن أرض فلسطين هي جنة الله وخلده الطليق الرحيب. وبعدها يمكن أن يفهم القارئ، أو السامع معنى أن تقبض اليد على حفنة من تراب هذه الجنة، وإذا كان للدمع أن ينسكب في فضاء «شهوة المكان» التي ذكرنا، فإن الشيء الأكثر إثارة من جهة، وإدهاشاً من جهة ثانية، يتعلق في تحويل كل ذرة من حفنة التراب إلى سجل كبير يضمّ جيلاً من الشباب والشيب الذين فدوا الوطن. وهذا يعني إعطاء خصوصية للمكان، تتمثل في كون كل ذرة من التراب معبرة عن هوية عربية لا يمكن طمس ملامحها..

في قصيدة الشاعرة دعد الكيالي «أيا ريح الشمال» نستطيع التواصل مع بصمة مكانية تفرض صورتها وصوتها على كلّ بيت، تقول:

أيا ريح الشمال صبا فؤادي

لموطن صبوتي وحنين قلبي

أيا ريح الشمال فبلغيه

تباريحي وأشواقي وحبي

وقولي إنني قد متّ وجداً

به وفقدت أحلامي ولبي

* * *

أيا ريح الشمال ونشقيني

إذا ما عدت زهر البرتقال

ايا ريح الشمال وأسمعيني

حنين الطير في تلك المجال

أيا ريح الشمال وخبريني

فإني قد ضعفت عن السؤال

فكأن قصيدة الشاعرة هنا تلتقي قصيدة الشاعر محمود الحوت.. فإذا كان الحوت يقبض على حفنة تراب، فإنّ الشاعرة تميل إلى مخاطبة ريح الشمال. كل واحد منهما يحتاج إلى صلة وصل محسوسة، لينقل من خلالها دفقته الشعورية المكانية. المكان ينفتح دون شك بعيداً عن أي صلة وصل، لكن للتقريب يضعنا الشاعر أمام هذه الصلة المحسوسة ليفرد في لحظة وجد كل اندفاعات الروح إلى الوطن، إلى المكان..

إن الشاعرة دعد الكيالي كما نلحظ تؤطر اللحظة الزمانية بريح الشمال، لتنقل لنا من بعد امتداد اللحظة المكانية. وإذا كان غيرها من الشعراء يذهب بعيداً ليعايش المكان، وليشدّ على كل حبة تراب فيه، فإن الشاعرة كما نلحظ، تريد أن تحمّل ريح الشمال رائحة المكان وصوته. هنا تريد الشاعرة أن تقول إن شهوتها إلى المكان لا تدع لها مجالاً للانتظار. لذلك تتحول العاطفة إلى عاطفة استحضارية وإن كان الاستحضار للرائحة والصوت، إنه استحضار على كلّ حال، وهذا يكفي بالنسبة لهذه الشعلة من الحنين والشوق والحب والتوهج.. إنّ قاموس شهوة المكان في لغة الوجد الفلسطيني، يحاول أن يجد أي متنفس للتواصل مع المكان، هذا المكان الذي تبقى صورته في الذاكرة لا تبرح..

كما نرى تتحرك الصور لتشكل حضورها الشديد البروز في التداخل مع «شهوة المكان» والفعل الشعري هنا، فعل استحضاري في أكثره. لأنّ الشاعر الذي عاش سنوات طويلة في وطنه، ثم أبعده الاحتلال عن هذا الوطن، لا يستطيع في أي لحظة من اللحظات أن ينسى مكانه الرائع الساكن في الذاكرة والقلب والروح. كلما نبض القلب يتذكر، كلما تحركت الأنفاس يتذكر، كلما دار الدم في العروق يتذكر، كلما تحركت الأنفاس يتذكر. إن النسيان هنا فعل مرفوض. بمعنى آخر يرفض الشاعر أن يقول إنني أتذكر، لأنه يفترض ويؤكد أنه لم يكن في يوم من الأيام قريباً من النسيان. إنه يعيش ديمومة تذكّر، هذه الديمومة تحمي الذائقة من أي تراخ..

وكما نلحظ في كلّ الأبيات السابقة، فإن الشاعر لا يقول: أتذكر، لا يقول: أريد أن أسترجع الذكرى.. بل ودون أي فاصل في تعابيره، يقول إنني أعيش المكان، أنبض في كلّ حبة تراب منه.. الاستحضار في هذه الحالة استحضار لما هو في البال دائماً. لذلك لا نجد اهتزازاً في الصورة، لا نجد شيئاً من غبش يبدل أو يغير.. إن الصورة تحاول قدر المستطاع أن تحضر بما هي عليه، لأنها في كل الأحوال صورة ذات أساس متين..

قبل الانتقال إلى نهاية هذه الفقرة، يمكن ان نسمع قول الشاعر علي هاشم رشيد في قصيدة «أمنياتي»:

يا فلسطين انت ملء فؤادي

يا فلسطين هل إليك اهتداء؟

اتراني نسيت فيك الروابي

في الربيع الجميل منها الرواء؟

يا بلادي وفيك يحلو نشيدي

إنما أنت للأماني اللواء

فالامتلاء بالمكان يشير دون شك إلى أنّ الشاعر يريد أن تكون فلسطين هي النفس والروح والقلب والجسد. الانتقال في «شهوة المكان» هنا يريد ان يوجد حالة من حالات التداخل مع الصورة الغائبة، صورة المكان الفلسطيني الحاضر في كل حركة من حركات المفردة الشعرية التي تقدمها الأبيات..

يمكن أن نلاحظ أنّ المكان رغم حالة الاستحضار التي أشرت إلى أنها لا تفصل بين الصورة والمتصور فإنّ المشتهى يبقى حالة وجدانية لا يمكن أن تتخلى عن تفاصيلها. إذ تطفو على السطح دائماً صورة المكان المشتهى في حالته البعيدة عن الصورة الحالية. الصورة الحالية للمكان، أو الصورة التي تحركت الأبيات في برهتها الزمنية، بعيدة بالتأكيد عن صورة المكان الذي كان من قبل، أي المكان البعيد عن الاحتلال. وفي حركة الشعر، سعي دائم إلى طلب المكان المشتهى.

فالحالة هنا حالة شعر يكتب في المنفى، حالة شعر يكتب في ابتعاد وبعد عن الوطن. وبالتأكيد فإن الشاعر يعيش حالة مركبة من الحرمان، كما يعيش حالة مركبة من الحزن والألم، وإلى جانب ذلك يعيش حالة مركبة من «شهوة المكان».. هنا شهوة المكان ترتكز على بعد عن الوطن، واحتلال قائم.. ولا يكون المكان المشتهى بالنسبة للفلسطيني، إلاّ في حالتي العودة، والخلاص من الاحتلال..

**رابعاً/ المكان والتفاؤل بالغد:**

في ميدان «شهوة المكان» يمكن أن نلحظ أن كثيراً من الشعر، وما زلت في صدد الحديث عن الشعر التريب من زمن اللجوء، حاول في سيرورته المتوقدة، أن يكون شعر أمل وتفاؤل ونظرة مشرقة. وهذا يعني فيما يعنيه، أنّ شهوة المكان، آخذت لبوساً جديداً ما كان لها من قبل. إذ انتقل الشعر الذي كان مشغولاً بالمكان من خلال تطلع مليء بالحزن والحنين والشوق والألم، إلى تطلع مليء بالتفاؤل والإشراق. وفي الحالتين، وبشكل طبيعي، يبقى المكان هو المكان، وتبقى المعالم هي المعالم.. لكن نظرة الشاعر تأخذ بعداً

جديداً لم يكن موجوداً من قبل. فالشاعر الذي كان يقف وقفة الحنين الجريح، يقف الآن وقفة الحنين المشرق. ويمكن أن ترتسم الصورة على الشكل التالي:

/ المكان: فلسطين-الشاعر يحنّ حنين أنين- النظرة تنعكس على الحاضر وعلى هذا المكان -ينتقل المكان ليكون ملوناً بمشاعر الشاعر- الألوان هنا ألوان نفسية، لأنها تعكس حالة وجدانية -كلما اقترب الشاعر من لحظة انفجار الحنين، كان المكان تابعاً للحالة النفسية المعيشة- يمكن القول أيضاً إن المكان هنا في حالة انتظار -انتظار يختزن حالة الشاعر- فكأن المكان يتأنسن..

/ المكان: فلسطين- الشاعر يحن حنين أمل -النظرة تنعكس على الحاضر وعلى هذا المكان- ينتقل المكان ليكون ملوناً حسب مشاعر الشاعر -الألوان هنا ألوان نفسية أيضاً لأنها تعكس حالة وجدانية - كلما ازداد تفاؤل الشاعر وأمله، كان المكان تابعاً وبشكل طبيعي للحالة النفسية المعيشة- يمكن القول أيضاً إن المكان وكما في الحالة الأولى في حالة انتظار -هذه الحالة، حالة الانتظار تختزن حالة الشاعر/الشاعر- أيضاً المكان يتأنسن.

نلاحظ شيئاً من التقارب الحركي في الحالتين. لكن الحقيقة تقول إن كل حالة تنفصل عن الحالة الأخرى، ويجب أن تنفصل لتشكل في المؤدى صورة توائم بين الإنسان والمكان. وطبيعي أن شهوة المكان، لا تكون في مستوى واحد في هذه الحالة وتلك.

في الحالة الأولى، يكون الشاعر متداخلاً مع ألوان ذاتية تعكس له صورة المكان من خلال هذه الألوان. بينما في الحالة الثانية، يكون الشاعر متداخلاً مع ألوان ذاتية مشرقة تعكس له صورة المكان وبالشكل المشرق المليء بنبض وحيوية الانتظار. وفي هذه الحالة وتلك، يبقى المكان شهوة تتأكد ملامحها في ذات الشاعر الذي يسعى بكلّ السبل للتواصل من جديد مع مكانه المشتهى..

قد يكون الشاعر الراحل عبد الكريم الكرمي «أبو سلمى» الأقرب إلى تكوين ملمح شهوة المكان في لون ينبض بالرجاء والأمل والتفاؤل في قصيدته «سنعود» هذه القصيدة التي ترفض بأي شكل من الأشكال كل لون قاتم. إنها بحق قصيدة الأمل والتفاؤل والرجاء والقوة. فالشاعر لا يشتهي المكان من موقف ضعف وتراجع واستكانة، بل يسجل صوته المرتفع المدوي ليقول إن مكانه المشتهى سيكون له بالتأكيد، نسمع:

فلسطين الحبيبة كيف أحيا
بعيداً عن سهولك والهضاب
تناديني السفوح مخضبات
وفي الآفاق آثار الخضاب
تناديني الشواطئ باكيات
وفي سمع الزمان صدى انتحاب
تناديني الجداول شاردات
تسير غريبة دون اغتراب
تناديني مدائنك اليتامى
تناديني قراك مع القباب
ويسألني الرفاق ألا لقاء
وهل من عودة بعد الغياب؟
أجل سنقبل الترب المندى
وفوق شفاهنا حمر الرغاب
غداً سنعود والأجيال تصغي
إلى وقع الخطى عند الإياب
مع الرايات دامية الحواشي
على وهج الأسنة والحراب
أجل ستعود آلاف الضحايا
ضحايا الظلم تفتح كلّ باب

فرغم الحزن الذي يلف المكان أحياناً عند عبد الكريم الكرمي، نلحظ أنه حزن يرتبط دائماً بالقوة، قوة الأمل، وقوة التفاؤل. وإذا كان فعل «العودة» هو المفتاح لكلّ هذا الأمل، وكلّ هذا التفاؤل، فإن فعل «العودة» يعطي المفردات قدرتها على أن تكون مفردات فرحة رغم لبوس الحزن والبؤس. وإذا كان فعل «سنقبل» يختزن كلّ هذا الحنين والشهوة إلى المكان،فإنه في الوقت ذاته، يعبر خير تعبير عن شاعر يغمس أصابعه حتى آخرها بحبر الشمس..

قلنا إنّ شهوة المكان تستدعي أحياناً أنسنة الطبيعة، وإذا كنا قد لاحظنا بعض ذلك عند عبد الكريم الكرمي، فإنّ قصيدة «سنعود» أيضاً لهارون هاشم رشيد، تقترب إلى أبعد حد من فعل الأنسنة هذا، فالطبيعة لا تكون كالإنسان، بل يمكن القول إنها إنسان كامل الإنسانية. لذلك فالطبيعة تشعر، تحس، تتنفس، تنتظر، تقول.. إنها بهذا المعنى أو ذاك تنضج وتكبر لتكون إنساناً ذا ملامح فاعلة بكلّ معنى الكلمة..

هارون هاشم رشيد يؤكد أيضاً على فعل «سنعود» الذي يتكرر كلازمة في كثير من الأحيان، والعودة هنا عودة لمكان مشتهى من جهة، ومليء بنبض الاشتهاء من جهة ثانية. وكل حركة في القصيدة تريد أن تقول إن الشاعر لا يترك مكانه بمعزل عن فعل «الاشتهاء» وفعل «الانتظار» وفعل «الحنين» لذلك كان المكان «مكاناً مؤنسناً

بشكل تام كــمــا أسلفت.. وكلّ خطوة نخطوها نحـو المكان، تقـابلهـا خطوة يخطوها المكان نحونا:

سنعـود يا أخـتـاه للوطن

رغم الشقاء وقسوة الزمن

رغم الليالي العابثات بنا

والجوع والتشريد والمحن

سنشق استار الظلام غداً

سنشقـهـا ونعـود للمـدن

سنسير بالفجر الجميل قوى

جبارة تقضي على الوهن

إن السهول الخضر تنتظر

وكرومنا والشط والشجر

والذكريات الهانيات بنا

والحب والأصـال والبكر

وملاعب الأحلام تائقة

تهفـو لنا والناي والوترُ

سنعود يا ليلى مع الفجر

والزهر والحسون والقمر

سنعود بالآمال باسمة

في موكب التحرير والنصر

سنعود أكباداً مؤججة

تواقة للموطن الحرّ

وهناك نرفع راية طويت

ونعيدها تزهو على الدهر

شهوة المكان هنا لها خصوصية يفرضها الشاعر..

وفي الانتقال إلى شاعر آخر هو يوسف الخطيب نلحظ تغيراً في الحس المكاني وتوافقه مع دفقة المشاعر، فشهوة المكان عند الشـاعـر يوسف الخطيب مسكونة بنوع من التمرد لا نلحظه عند شاعر آخر في هذه المدّة المبكرة. فالشاعر يشعل فتيل القصيدة غضباً وعنفواناً وثورة، ليقول إنه عائد إلى مكانه المشتهى بقوة لا تماثلها قوة. إن قصيدة «مشيئة الجبار» تعطي برهاناً أكيداً على أن يوسف الخطيب يضع قدمه بثقة عالية على الدرب دون أي تردد. لذلك فهو يرفض رفضاً قاطعاً الدموع والجراح، ويتماهى بكلّ ما لديه من شموخ مع ساح الوغى والثأر:

أنا مشعل أنا مارج جبار

لا الريح تخمدني ولا الإعصار

سأمدّ في الآفاق ألسنة اللظى

حمراً لها في الخافقين أوار

ولأحرقنّ الليل حتى تنجلي

أسدافه فتوقدي يا نار

للميتين دموعهم وجراحهم

ولجذوتي ساح الوغى والثار

ولسوف اغسل جبهتي حتى ترى

مثل الضحى ويذوب عنها العار

ويكون له في قصيدته «موعد مع الثأر» هذا التقدّم نحو الوطن، ليكون اللقاء بالأرض لقاء أكيداً:

أما ترانا في الـدجى نغتلي

ومـوعـد الثـار ينادينـا

نسعى إلى الفجر وما نأتلي

نمزق الـليل بـأيـدينـا

إن كنت لا تعرف من أمتي

فاسأل عن العرب البائدة؟

سنلتقي يوماً على موعد

للثـار في يافـا وفي الكرمـل

سيجمع التـاريخ أشتـاتنـا

واحـدة الرايـة والجحـفل

إن الشعر فـي مسار التماهي مع شهوة المكان، يسجل بصمة حضور الشاعر بكلّ قوة، ليقول شعره المعبر خير تعبير عن إيمانه الشديد بأن المكان البعيد عن العين الآن، سيكون قريباً ملموساً بعد حين. لذلك قلنا إن هذا النوع من الشعـر أقـرب إلى التفاؤل والأمل والقوة. فهو شعر لا يعرف التراخي أو التسليم أو الانكفاء. إنه يكتب الصورة بكلّ ألقها، لتكون صورة واقع يسعى إلى جعل الإنسان العربي الفلسطيني مع أرضه، وجعل الأرض العربية الفلسطينية مع إنسانها. وفي هذا وذاك، يرفض الشعر بأي شكل من الأشكال أن تكون القصيدة قصيدة حنين سلبي.. فالسلبية مرفوضة في شعر يحول شهوة المكان إلى شهوة فعل وقوة. لذلك نستطيع القول إن مسار الشعر هنا يختلف عن مسار الشعر في أي موضوعة أخرى، كونه يربط بين شهوة المكان والقوة..

فالشهوة هنا شهوة قوة، أي أنها شهوة ترفض فعل السكوت أو التراخي، وتسعى إلى فعل الحركة وقلب كل شيء، لتعود الأوضاع إلى طبيعتها. فالشاعر يعرف أن الوطن قد اغتصب، وضاعت كل أوجه الحقيقة والحق، ولا مكان لعودة الحق إلى نصابه، وإلى أصحابه الحقيقيين، إلا بالقوة.

اعتمد الشعر هنا في بنيته الحديثة، وفي نزوعه، على روح إيجابية لا تؤمن بغير العودة إلى الوطن. لذلك كانت كل الأبيات كما لاحظنا، ومن خلال تركيزها على الطبيعة، تحاول أن تعطي لكلّ شيء فيها، قوة إنسانية قادرة على التعاطف والتحرك

والنزوع نحو إنسانها.. فالطبيعة على هذا لم تعد طبيعة ذات فعل مشروخ أو سكوني، بل تحولت لتكون ذات فعل إيجابي قوي حاد، يرفض الاحتلال، وأي شكل من أشكاله، لأنه قائم على علاقته الوثيقة بإنسانه وصاحبه.. يمكن طبعاً أن نقف طويلاً عند ألوان المفردات في هذه القصائد. إذ يصعب أن نقول إنها ألوان قاتمة أو غائمة أو سلبية، لأن كلّ مشهد في الأبيات يضعنا أمام ألوان تغلي بوهج جميل أخاذ رائع يعبر عن التفاؤل والأمل. فالانتقال الذي حدث في لون المفردة، كان جراء ما حملته من شحنة نفسية تريد أن تزرع الدرب بالكثير من الوعد. وإذا عدنا إلى العلاقة القائمة بين الأرض وإنسانها في الأبيات، نلحظ أن الألوان ذات بعد تبادلي قادر على شحن المفردة بكل ما تستدعيه الصورة وذاكرتها وتاريخها وامتدادها أيضاً في رحم الزمن..

المفردات هنا، وعلى طول الصورة وعرضها مفردات تقول كلها بمستقبل مزهر جميل مشرق. لذلك يصعب أن نخرج أي مفردة خارج الإطار العام الحقيقي لها في نسقها الذي تشكل، وأهمية النسق في تركيب كهذا أو سواه، أنه يعطي المفردة روحها العام والخاص. وفي أكثر الأحيان، فإن المفردة تتأطر تماماً في تركيبها حين يكون هذا التركيب ذا مغزى ومؤدّى. ومع مقارنة الأبيات السابقة نلاحظ ببساطة أن التركيب أعطى كل مفردة محمولها، لتكون مفردة ذات قصد وغاية. نأخذ هنا أي تشكيل، لنجد أنه تشكيل مفردات، تشكيل صور قائمة على نسق من المفردات المركبة، وحين نبعد أي مفردة عن نسقها وتركيبها، تصبح مباشرة مفردات ذات معنى محايد مغاير. لأنها لم تعد مفردة محكومة بنسقها أو صورتها أو تركيبها أو دورها. فهي في خروجها عن الخط والتركيب، تصبح مفردة لها لونها وطعمها وشكلها وصوتها. وكثيراً ما يمكن أن تكون المفردة مفردة ذات وجهين، فهي في صورتها المحايدة، أي صورتها الخارجة عن التركيب ذات وجه ما، وهي في صورتها المركبة، أي الداخلة في نسق ونسيج القول ذات وجه مغاير تماماً.. وطبيعي أن المفردة تستطيع أن تكون خزان الحالة النفسية، فنلمح من خلال قراءة المفردة، ما تحمله من شحنة نفسية خاصة بالكاتب والحالة والزمن..

أظن أنني فصلت كثيراً في هذا المجال، رغم أنّ القول فيه يبقى مفتوحاً على الكثير من احتمال الشرح والتفصيل والحاجة إلى التطويل. لأننا نتحدث بشكل مباشر عن دخول المفردة في نسق، أو خروجها منه.. ولأننا من جهة أخرى

نتحدث عن شهوة المكان، ونرى إلى انعكاس صورة المفردة في شهوة المكان تلك.. وأحب أن أختم هنا بأبيات تصب في هذا الاتجاه للشاعر علي هاشم رشيد من قصيدة له بعنوان (وداع نازح) حيث يقول:

**أخي لا تلمني إن بكيت على عمري**

**ألست ترى ما يضمر الدهر من غدر**

**أكنت قبيل اليوم تحلم أننا**

**سيقذفنا قفر محيل إلى قفر**

**وهل خطرت يوماً بذهنك أننا**

**سنأكل من عدم ونشرب من فقر**

**نسيت فؤادي إن نسيتك موطني**

**فمالي لعمري حين أنساك من عذر**

**وإن أنا لم أذرف دموعاً فإنني**

**أحمل صبري ما ينوء به صبري**

**فإن نحن شتتنا سيجمعنا غداً**

**نداء مجيد حين نهتف للثأر**

**ومن يطلب الآمال بالجد والهدى**

**سيجني ثمار الجد بالفوز والنصر**

ما قدمت، وإن كان في أكثره ملاصقاً لعام النكبة ١٩٤٨، يشير إلى أن شهوة المكان تعني التزاماً لا يبرح بالعودة إلى فلسطين كاملة غير منقوصة.. وإذا كنت أثير في تقليب أبيات الشعر السابقة، أسئلة تتجه إلى استنباط الجواب القائل إنّ خمسين عاماً ويزيد لا تعني توجيه دفة الأدب وجهة أخرى، فإنني أيضاً أريد أن أضع جمرة السؤال أمام أدبائنا الذين تضيق المساحات أحياناً أمامهم، فيرون أنّ من واجب الأديب في المرحلة الآنية واللاحقة، أن يوسّع دائرة أدبه لتكون إنسانية شمولية، دون التوقف طويلاً أمام قضية الوطن التي وصلت إلى ما وصلت إليه.. إذ من غير الممكن النظر بهذه الطريقة التي تبتعد تماماً عن واقع الحال، فالوطن مازال، والاحتلال بقي مقيماً في أرض محتلة، وكلّ ما جرى لم يغير شيئاً، إذا لم نقل إنه صار أدعى وأكثر إلحاحاً من أجل الانغماس تماماً في الكتابة عن الوطن والحنين إليه.. ومعروف أنّ الأدب ضمير وليس سياسة، والضمير لا يهادن ولا يوقع صكّ اعتراف بالعدو مهما كانت الأسباب، خاصة حين تكون الأرض محتلة..

على الأدب أن يوسّع الدائرة المصرة على الوطن والحديث عنه بكلّ مناسبة، ومن يقرأ الأسئلة بشكل مقلوب، يسعى إلى إهالة التراب على الفكرة المشرقة المضيئة التي يهمها تحرير الوطن، ولا شيء آخر.. فما كان الزمن الذي مرّ، ولن يكون الزمن

الذي يأتي، بمعزل عن المعنى الكامن في أنّ العودة هي الأساس، وأن التحرير هو الغاية، وأنّ الخلاص من الاحتلال بشكل كامل هو المراد..

أما الإنسانية، والتوسع في التماهي مع الأمور الكونية، فلا يكونان بمعزل عن الوطن وشؤونه. إذ لا تكون الكتابة عن الوطن، وعن ناس الوطن، وأنفاس الوطن، حالة غير إنسانية.. ومهما كان الوطن صغيراً في مساحته بالنسبة للكرة الأرضية في مساحتها، فهذا لا يعني أنّ الإنسانية تنتفي حين نتحدث عن وطن يهمنا ويعنينا ويشكل ملامحنا، صغر أو كبر.. وعلى الأديب أن يعي أنه يحقق شرط إنسانيته، بالكتابة عن وطنه..



❖ - يشار إلى أن المصادر تتعلق بالدواوين الشعرية ليس إلا .. أما التحليل فيبقى مجرد اجتهاد..

# من أدبيات حوض العاصي



إبراهيم الفاضل ✧

ينبعُ نهرُ العاصي من روابي لبْنان. وقد صفّقتْ له مدينةُ بعلبك ليحمل رسائلها الدائمة إلى الأرض السّورية، حاملةً معها الحياة والخضرة؛ جمالاً وخيراً..!

تجودُ بمياه العاصي حوضةُ مساحتُها أكثر من ٢٥ ألف كم٢.. تموّلها ثلوجُ جبال لبنان، عدا عن تمويلاتٍ أبعدَ وأعمقَ غوراً من روافد، مازال علمُ الاستشعار عن بُعد يستعلم عنها. وما أن يشبَّ العاصي عن أطواقِ مرْبض اللّبوة ومغارة الراهب وبعض كرماء الطبيعة، حتى يتدفقَ بحيويّة قد تصلُ إلى ٣٥م٣/ثا وسطياً.

---

(✧) د. إبراهيم فاضل: باحث من سورية، يهتم بالدراسات الفكرية والفلسفية. من أعماله: «الفلسفة تبحث».

وبعد ٤٥كم من مسيرته ومنطلقه تحتضنُهُ بحيرةٌ اختلفَ الرواةُ بتسطير حَسَبها ونَسَبها.

- نَسَبَها التلمودُ لِـ ديو كليد بانس ليعظِّمَ مكانتَهُ بين مُريديه.

- نَسَبَها أبو الفداء لِـ الإسكندر المكدوني. على عهدة مَنْ نقلَ عنهم.

- نَسَبَها سترابون لِـ المصريين لتخليدِ انتصارِ رَعْمسيس الثاني على خاتوسيل عام ١٢٧٢ ق.م.

وتُعرَفُ هذه البحيرةُ باسْمِ بحيرة قادِش أو حمص أو قَطّينة. ومن قَطّينة يسير العاصي على أراضي مدينة حمص الغربية. وحمصُ هذه مجهولةُ الهويّة: ضمَّها الملكُ الكلدانيُّ لوكال زاغيزي لمُلكه في الألف الثالثة قبل الميلاد. وضمَّتْها بعدَهُ مملكةُ إيبلا تحت اسْمِ حيميصا. وحَرَقَها الملكُ الأكاديُّ نارام سن عام ٢٢٣٠ ق.م، ثم تناوبَ عليها من الحكام مالا مَجال لذكرهم في بحثِنا، إلا ما يتعلّقُ بموضوعنا «أدبيات حوض العاصي» ولذا نذكر ولادةَ اثنين مِنْ أشْهر قياصرةِ الرّومانِ في أحضانها.

١ - الإمبراطورة (يوليا دومنا Julia Domna). وُلِدت في حمص عام ١٥٨م لِكاهنٍ أكبر. وتزوّجتْ الإمبراطورَ الرومانيَّ (سبتِم ساوير Septime Swere). وماتتْ عام ٢١٧م. نَقَلَتْ يوليا فكرَها إلى روما أيّام (كاراكلاّ Caracalla) ابنِ زوجها. وفكرُها كنعانيٌّ يجعلُ من الأسطورةِ قصّةً مُعبِّرةً. ومن الحقوق الكنعانيّة عدالةٌ إنسانيّة.

٢ - الإمبراطور إيلا غابال أو مرقس انطونيوس. وهو من مواليد حمص. استلمَ الحكمَ بعد يوليا لمدةِ أربع سنوات من ٢١٨ - ٢٢٢م. سار على خطوات يوليا. وما أن قالَ بأنّ الكواكبَ والقمرَ والشمسَ ليستْ آلهة، وإنما حجارةٌ وترابٌ حتى اغتالَهُ الجهلُ الكهنوتيُّ.. وأهمُّ ما علّمهُ هذا الشابُّ الحمصيُّ: إنَ الإلهَ رمْزٌ لفعّاليّة - تتعلّقُ بالحياةِ، وليسَ هو الفعاليّةُ بالذّاتِ.

ومن مفكّري حمص الشاعرُ عبد السلام بن رغبان ٧٧٧ - ٨٤٩م الذي قضّى شبابَهُ الأوّلَ في حاضرةِ سَلَميّة. وقد زارَهُ فيها الحسنُ بن هانئ ليقولَ لهُ: أنتَ أشْعرُ الناسِ ومُتيِّمُ أهل بغداد بقولِك:

«تناولَها مِنْ خدِّهِ فأدارَها»

ويجيبُ عبدُ السّلام: وأنتَ أشْعرُ الأقدَمين والمُحدَثين بقولك:

يَزيدك وَجْهُهُ حُسْناً
إذا ما زدتَهُ نَظَرا

❖ ❖ ❖

يخرجُ العاصي من حمص ليمرَّ بأراضي قَطْنا المعروفة اليومَ باسمِ المشرفة. وقد كانتْ قطنا عاصمةً لدولة امتدّتْ من

الفرات إلى ليبيا. فوحّدت نهرُ النيل، بواديه الأبّ، مع حوضِ العاصي ووادي الفرات.وجمعت حضارةَ النّيلِ بحضارةِ الشام على أقصاها.

ظلّت قطنا عاصمةَ الحضارةِ ما بين ١٧٠٠ ـ ١٥٨٠ق.م.. وأسّستْ سلالتيْن حاكِمتيْن في مِصْر هما: السلالة الخامسة عشرة والسلالة السادسة عشرة.

❖ ❖ ❖

ويستمرُ العاصي بجريانِهِ شمالاً إلى أنْ ترفدهُ مرتفعاتٌ وسهولُ مدينةِ سَلَميْةَ بمئاتِ الينابيعِ العذْبة، وعشرات السّيولِ الكدِرَة. سَلَميْه، هذه العجوزُ المتصابيَةُ كانت في يومٍ منَ الأيّام مَحْيا المتنبي الذي أحبَّها وحدّدها جغرافياً.

منْ حمْص جنوباً إلى خُناصِرة شمالاً:

أحبُ حمْصاً إلى خُناصِرة

وكلُ نفْسٍ تُحبُ محْياها

حيثُ التقى خدُّها وتُفَّا

حُ لبنانَ وثغري على حُمَيّاها

ومِن وادي العذيبِ شرْقاً إلى جبال بارق المطلّة على مَجْرى العاصي غرباً:

تذكّرْتُ ما بيْنَ العذيب وبارق

مجرْ عوالينا ومَجْرى السّوابق

وصحبة قوم يذْبحون قنيصَهمْ

بفضْلة ما قد كسروا في المفارق

وفي جبال بارق قريةٌ تدعى كيْتلون، تجاوِرُ قلعةَ شماميس الشهيرة. شهدتْ هذه القرية المحصّنةُ بالجبال، المعركَةَ الفاصلةَ بيْن المتنبي ورِفاقِهِ من جهة، وبيْن أمير حمص العباسيْ ابن عليّ الهاشميّ من جهة مقابلة. وذاك عام ٩٣٢م.

وتمكّن الهاشميَ بعدّتهِ وعتاده منْ أسْرِ المتنبي. فأمر أتباعَهُ بأنْ يجْعَلَ في رِجْلِ المتنبي وعنقه خشبتيْن ثقيلتيْن منَ الصّفْصافِ ممّا دفعَ المتنبي أن يُنشِدَ ساخِراً:

زَعَمَ المقيمُ بكِيتْلونَ بأنّهُ

منْ آلِ هاشِم بن عبد مناف

فأجبته: مذْ صرْتُ منْ أبنائهم

صارتْ قيودُهم من الصفصاف

فنُقِل المتنبي إلى سجنِ حمص الحصين حيث ذاقَ أنواعَ العذابِ مدّةَ سنتيْن: أي لعام ٩٣٤م.

ولمّا أُطلِقَ سراحُهُ، جرى أحمدُ بن الحسيْن، المتنبيّ مع الأيّامِ جريان العاصي: تدفُّقاً وعُذوبَةً وتمرّداً..!

وفي عام ٩٤٨م التقى المتنبي وسيفُ الدوِلة الحمدانيّ والعاصي في مدينة إنطاكية؛ في مناسبةِ خالدة تاريخياً.

فقد وَرَدَ في ديوانه (مطبعة هندية بمصر طبعة ثانية ١٩٢٣م ـ صفحة ١٩٧) ما يلي:

«قدم المتنبيّ لأوّل مرّة على أبي الحسن عليّ بن عبد الله بن حمدان العدوي عند منصرفه من الظفر بحصن برزويه، وعودته إلى إنطاكية، وقد جلس في فازة (خيمة كبيرة) من الديباج عليها صورة ملك الروم، وصورة وحش وحيوان، وكان ذلك في شهر جمادى الأولى سنة ٣٢٧هـ الموافقة ٩٤٨م، وفي هذا اللقاء المشهود أنشد المتنبيّ قصيدته التي مطلعها:

وفاؤكما كالربْع أشجاهُ طاسمهْ

بأنْ تُسعدا والدمْعُ أشفاهُ ساجمهْ،

وهذه لوحة منها تصوّر الخيمة وسيف الدولة وحالهُ:

عليها رياضٌ لم تحكْها سحابةٌ

وأغصانُ دوحٍ لم تغنِّ حمائمهْ

ترى حَيَوانَ البرّ مُصْطلحاً به

يحاربُ ضدٌ ضدّهُ ويُسالمهْ

إذا ضَرَبتْهُ الريحُ ماجَ كأنّهُ

تجولُ مَذاكيه وتدْأى ضراغمهْ

وفي صورة الروميّ ذي التّاج ذلّةٌ

لأبْلجَ لا تيجانَ إلاّ عمائمهْ

* * *

غضبتُ لَهُ لَمّا رأيتُ صِفاتِه

بلا واصفٍ، والشّعرُ تَهْذي طَماطِمُهْ

وكنتُ إذا يمّمْتُ أرْضاً بعيدة

سريْتُ فكنْتُ السرّ، والليلُ كاتمهْ

ومنَ الاتّفــاقِ العـجـيب ولادةُ المتنبيّ وسيف الدولة عـام ٩١٥م، ورحيلهـما عـام ٩٦٥م ليَمسـيـلا، أبَداً، في الأذواق النّقيّة والسِّير البهيّة.

فإن جفَّ العاصي يوماً ما بفعل أخرق من أفعال الجَهْل الجماعيّ، ظلّ صدى صوت المتنبي مَسْموعاً:

أفاضلُ النّاسِ أغراضٌ لدى الزّمَنِ

يَخْلو منَ الهمِّ أخْلاهمْ منَ الفِطَنِ

* * *

ويدخلُ نهرُ العاصي مدينةَ حماة الموغلة في القِدم، يمرُّ في وادٍ سحيق تستحيل معه الاستفادة من مياهه للريّ.

ولكنّ الدماغَ البشريَّ لا يَعْصى عليه العاصي. فقد اخْترعَ أكبرَ وأنفعَ اختراع للرّي في حينه لرفع مياه نهر العاصي، بكلفة زهيدة جداً، بعيداً عن تلويث الجوّ (المخيف في أيامنا الراهنة) هذا الاختراع هو: النّاعورة.

وحماه معروفةٌ بنواعيرها، موسومةٌ بها. والنواعيرُ قادرةٌ على رفع مياه العاصي مَجّاناً وبحيلة فيزيائيّة ذكيّة إلى ارتفاع قد يتجاوزُ عشرةَ أمتار.

وهكذا تكون النواعيرُ أهمَّ أدبيات

حوضِ العاصي قيمةً هندسيّةً وثقافيّةً.. وقد نقلها الألمانُ إلى بلادهم في القرنِ الحادي عشر الميلادي. ولا تزالُ تستعملُ إلى عهدٍ قريبٍ في وادي فرانكونيا الصغير،، غير بعيدٍ عن بايرون في ألمانيا.

ومن أطرَفِ أدبيات النواعير ما قاله عبدُ الغني النّابلُسي الدِّمشقيّ المتوفي عام ١٧٣١م، في ترويضِ العاصي بعِلْمِ الحيَل. وعِلْمُ الحيَلِ هو ما يُدعى اليوم مَدْرسيّاً «ميكانيك» تجاوزاً يقول النابلسي:

عصَى فلمْ يسْقِ أرْضاً منْ حدائقهِم

إلاّ بحيلةِ وَسْواس النّواعير

وبكلمة (وسواس) أعطى النابلسيُّ بُعداً عبقريّاً. لأنّ عَبْقر في الأسطورة العربية هي منازِلُ الجنّ والشياطين. والوسواس من الجنّ والشياطين الذي يوسوس في أدمغة البَشَر. حسَبَ رموزِ إسقاطات مدارسِ التحليلِ النفسيّ هو ما يُسمّى التحريضِ بالضِّدّ والوجود بـ «الضّديد».. والبَنْدُ هامٌ في الفيزياء النوويّة.

❖ ❖ ❖

ويُغادرُ العاصي مدينةَ حماه على موسيقى حَنينِ النّواعير. ويتلوّى غَنَجاً. وهو يَخْطرُ قريباً منْ مَرابعِ مُحَرّدَة ومغاني سَقيلبيّة إلى أن يجدَ ضفّتيه بين جبل شحشبو غرْباً وجبل المضيق شرقاً حيث تتماسكُ قلعةُ المضيق من الترامي على سريرهِ الخصْب. وتتباهى إلى جانب القلعةِ

مدينةٌ عريقةٌ جداً. مدينةٌ سمّاها الإيبلويون أو الكنعانيون بِعَلا أو بيلا. وسمّاها البابليون فرناغة. ومدّ إليها بنوخذ نصر قناةً من مدينةِ سَلَمْيَة طولُها مئةٌ وخمسون كم، تُعرف عند العامة باسم قناة العاشق. وذلك حوالي عام ٦٠٠ ق.م . وحوالي عام ٣٢٠ق.م سمّاها الإسكندرُ المكدونيُّ،، أقصدُ سمّى المدينة باسم مَسْقط رأسه مدينة بِلاَّ. غير أنّ قائدَهُ سلوقس الأوّل،، نيكاتور، أطلقَ عليها اسْمَ زوجته الفارسيّة أبامي التي صُحّفَتْ، مع الأيام، إلى أفامي ثم أفاميا كما تُعرَفُ اليوم.

ومن أهمّ أدبيات أفاميا التي أثّرت في الفكر الأوروبيّ ما قدّمه للبشريّة حكيمُها بوزيدون Posidon ١٣٥ ـ ٥٠ق.م.

بوزيدون هذا فتحَ عدّةَ معاهد. منها معهداً في رودس استَقْطبَ طُلاّباً من أفريقيا وآسيا وأوروبا. ومنْ طلّاب بوزيدون الخطيب والمفكّر الرّومانيّ الشهير شيشرون أو قيقرون أو ماركس تلليوس ١٠٦ ـ ٤٣ق.م الذي تركَ بصماتهِ على الفكرِ الأوروبيّ. وعليها مرتسمات بصمات آراءِ أستاذهِ بوزيدون.

شيشرون في كتابه المقالات الأكاديميّة تعرّضَ لمُشكلَةِ المعرفة. فبيّن أخطاءَ الحواسِّ. قائلاً: يصْعبُ الوصول إلى اليقين. فعلينا الاكتفاء بالاحتمال.

شيشرون في كتابه غايات الخيرات والشرور ناصرَ أستاذَه بوزيدون ضدّ أبيقير

Epikour صارخاً في وجه الأبيقيريين: الفضيلة لا اللذّة غاية الحياة.

شيشرون في كتابه التوسكولاميّة عرض آراء أستاذه بوزيدون، متحدّثاً عن خلود النفس،، وتحدّي الموت، وتحمّل الآلام...!

وهكذا حُملتْ أفكارُ حَوْض العاصي المُسطّرةُ عَنْ فعّالية دماغٍ ينتمي صاحبه للحوض مَوْلداً وثقافةً، حُملَتْ إلى أوروبا مُتلألئةً بزبدَةِ الفكرِ السوريّ الرّواقيّ، والتلقيحُ الفكريُّ بين الحضاراتِ أمْرٌ مَشْروعٌ وواجبٌ.

❖ ❖ ❖

ويتدفّقُ العاصي شمالاً، وهو فرحٌ بما نالَ من شُهرة قاطنيْ ضفّتيه. وما أن يطلّ على بُحيرة العُمْق التي يتفانى بها نهرا عفرين والأسْود، حتى يغيّر مجراه من الشمال إلى الغرب فالجنوب الغربي لتحتضنُهُ مدينةُ إنْطاكية ويتعانقان، وهيهات أن يُخلَّدَ العناق.. فالعناق، حتماً،، إلى فراق. وينْفلتُ العاصي منْ أحْضانِ إنطاكيَة على نفسِ محْورِ دخوله إليْها.. مُسرِعاً إلى خليجِ السّويْديَّة ليفْنى فناءَ الصّوفيّين في معْرفتهم الذّوقيّة..

وتتابعُهُ إنطاكيةُ بنظرِها ثم بقلْبها، عادةَ العشّاقِ واقفةً موْقفَ المتنبّي في خيْمة سيف الدّولَة لتُعلنَ على عُشاقِ المعْرفة في اللا زمانَ واللا مكان منْ وجْدانِ الإنسانِ كمفهومٍ ريّان:

أنا إنطاكية،

لي فضلٌ على جميعِ نَصارى العالمِ،

بيْن أحْضاني، ولأوّل مرّةً، اتّخذوا اسْمَ «مَسيحيّين».

سَمَوْتَ لأكونَ حاميةَ أوّل كرسي رَسُوليّ،، هو كرسيّ بطرسَ الأوّل الذي نُقل قسْراً عني إلى روما ومعهُ عبيرُ برَكاتي.

أنا إنطاكية.

في معاهدي عَدّلَ الحكيمْ ساويرْ مَسارَ المونوفيزيّة تقرُّباً منْ فيثاغورس و أفلوطين. فَفجّرَ الفكرَ الكهنوتي في أوروبا بقوله: اللاهوتْ السلبيّ هو طريقُ التصوّف. والتصوّفُ هو مَعرفةُ الربّ. ومعرفةُ الربِّ هي معرفةٌ ذوقيّةٌ مباشرَةٌ.

أنا إنطاكيةُ حارسَةُ حُضورِ العاصي في مُفكّريه،

يا أوروبا،

أنا مُعلّمةُ برْنارد أوف كليرفو ١٠٩١ - ١١٥٣م.

أنا أستاذةُ ج. إيكهارت ١٢٦٠ - ١٣٢٧م.

أنا مدرسَةُ ج. تولرْ ١٣٠٠ - ١٣٦١م.

أنا مُبتَكِرةُ سويدَنبرْغ ١٦٨٨ - ١٧٧٢م.

أنا من صاغت الشخصانيّة الأمريكيّة Personalism بأحرف برونْسون آلكوت، والشخصانيَّةَ الألمانية بعلْمِ نفس شتيرنْ.

أنا التي حمَلت الفيلسوفَ الدّانماركي كير كيغارد ١٨١٣ - ١٨٥٥م صوفيّتَهُ الوجوديّةَ.

أنا إنطاكية. أيُّها العاصي، لقدْ تجاوزْتَ منْ حضن لبنان إلى الفناء في البحر الأبيض مسافةَ ترحالٍ تُناجزُ (٥٧١كم) ولكنّك تجاوزتَ بأفكارِ مُواطنيكَ الحضاريّين عبْرَ التاريخ مساحاتِ أدْمغةِ البشريّةِ قاطبةً.


مصور
نهر العاصي
سوريا
المستندات:
١- دائرة معارف البستاني ٢- الحوليات .
٣- الموسوعة الفلسفية [روزنتال] .
٤- المذاهب الفلسفية [د. عادل العوا] .
٥- الفلسفة بحث ج١ [ابراهيم فاضل]
٦- لقادات الفلاسفة [ابراهيم فاضل]
نهر عفرين
عفرين
نهر الأسود
اسكندرون
رأس الخنزير
انطاكية
خليج السويدية
البحر الأبيض المتوسط
رأس البسيط
اللاذقية
ادلب
اريحا
حماة
سلمية
حمص
الرستن
الهرمل
بعلبك
طرطوس
طرابلس
مصياف
محردة

# الطفل العربي وخطاب الصورة

عبد الرسول عداي ❖



لعله من الملاحظ أنّ مثل هكذا عنوان يقوم بعملية إنتاج متنامية للكثير من محاور الاستفهام، قد تبدأ ( وقد لا تنتهي عند حدٍ معيّن) بالسؤال حول طبيعة الرسالة المصورة التي يستقبلها الطفل العربي، ومدى تفاعله مع تلك الرسالة المصورة، وماهيّة الخطاب الذي تحويه، ولربما تقفز إلى كيفية إستجابة الطفل لمساحة الصورة الكبيرة التي تكتسح عقله الصغير، وبالطبع لن تتوقف أمام الطرق التي يمكن أن نساعد بها أطفالنا ليستجيبوا إلى خطابات تلك الصور بصورة صحيّة ومتوازنة ..

---

(❖) عبد الرسول عدّاي: باحث من القطر العراقي الشقيق، ينشر أعماله في الدوريات المحلية والعربية.

وحتى لا يصاب القارئ بخيبة أمل فإن هذه الدراسة لن تقدم أي جواب لتلك التساؤلات، بل ترى أنّ ليس من طبيعتها تقديم الحلول في وقت نحن أحوج مافيه إلي تحديد الإشكاليات التي تعيقنا عن إستكشاف الرؤية الثّقافية كوسيلة لتفحص المجتمع ومؤسساته في عملية النهوض الحضاري.

والهدف الأساسي لهذه الدراسة هو إثارة التساؤلات، وإثارة الغبار من رفوف الصمت النقدي حول برامج الأطفال المصوّرة ومحاولة رسم أكثر من علامة استفهام حول حالة الاستلاب التي يتعرض لها الطفل العربي أمام موجات الصور اللانهائية المختلفة المصادر المتنوعة الأشكال (تلفزيون، فيديو، كمبيوتر... الخ) وبالطبع سوف نتوقف أمام محوري الدراسة وهما: الطفل العربي وخطاب الصورة الموجه إليه. لنعيد صياغتها بصورة أكثّر قابلية على احتمال تلك التساؤلات. والكشف عن مواقعها على خريطة الحوار المعرفي.

❖ **خطاب الصورة:**

كل صورة تحاول أن تستدرجنا إلى حوار، وأقصر تلك الحوارات ذلك الحوار الذي تكشف فيه عن مكوناتها فقط، وليس من سبيل أمامنا للتخلص منها سوى قطع فعل الرؤية وهو في المجال المعرفي لا يقل أهميةً عن فعل التنفس في المجال البايولوجي.

ونعني بها تلك الصورة المتحركة التي تشوق فعل الرؤية من خلال تنوّع أنماط الحركة ومساقط زوايا النظر، وهي تتجسد أمام الطفل بألوانها الطبيعية وتلتزم الصوت كعنصر تعاضدي في عملية تجسيد الحركة. فالصورة التي تُبث من خلال الشاشة هي (أقوى تأثيراً من الكلمة المكتوبة أو المسموعة، نظراً لاستخدام السمع والبصر وهما عمدتا الحواس الإدراكية في تلقيها، وتزيد الألوان من فاعليتها، واستيعاب الطفل وفهمه لمعلوماتها) [١] وبذلك فإنها بما تملكه من ميزات تتفوق على النص وعلى المسموع. ويعبر الألسني بيار مارتينو عن هذا الواقع فيقول:

(للصورة ميزة بالنسبة للنص. فهي تنقل الرسالة فوراً في حين أن الكلمات تتابع وتتسلسل. ليس ممكناً أن تلفظ مجموعة من الكلمات في آن. الكلمات تتسلسل تبعاً لنظام محدد في حين أن رسالة الصورة تظهر منذ النظرة الأولى إليها) [٢].

فالصورة قادرة على نقل دلالاتها مباشرةً وبذلك فإنها تقفز إلى الوعي. وبعد عملية إستيعابها تماماً يتم الحكم عليها، وهو تقييم هامشي لأنّ الصورة تكون حين ذاك قد انتقلت إلى المخزون الذهني وأصبحت جزءاً من الصور الخاصة بالفرد.

بينما النص المقروء هو خطاب متتابع يمكن التفاعل مع أجزائه والوصول إلى تقييم كلي للخطاب بصورة موازية لعملية الانتهاء من القراءة مما يجعل عملية التقويم عملية فعّالة وحيوية أثناء فعل القراءة الذي يستدعي إدراكاً وفهماً للنص. وهذه العمليات المعقدة التي تتطلب جهداً ووقتاً يستعرضها لنا جان كازنوف في كتابه (سلطان التلفزيون) حيث يقول: (يتعين على القارئ أن يفك رموز الكلمات، أن يقرن الكلمات بأفكار،وأن يعيد في فكره تركيب الرسالة التي يتضمنها النص المطبوع. وبهذا المعنى بالذات، يشكّل النص وساطة. وعلى الضد من تلك، يرى المشاهد الصور مباشرةً على الشاشة الصغيرة كما لو كان موجوداً في المكان حيث تسجّل الكاميرا، ولا وجود هنا لعملية ذهنية بين التصوّر والتعبير، ثم بين الإدراك والفهم)[3].

إنّ القوة التأثيرية للصورة هي من حيث كونها ذات إدراك كلي، فما على الطفل سوى أن يسترخي أمام الشاشة الصغيرة حتى تغمره بتدفق لانهائي من الصور التي تتسلل إلى ذهنه ثم تعيد الذاكرة ترتيبها من جديد في الوعي واللاوعي.

وتحل هذه الصور التلفزيونية محل الصور الخيالية الخاصة التي يكون المشاهد/ الكبير عادةً، قد كوّنها عن الشخصيات والأحداث والجماعات والأماكن التي لم يرها من قبل، ويرافق ذلك صراع بين الصورة الخيالية الخاصة والصورة التلفزيونية قبل أن تنسحب الأولى أمام الثانية التي سرعان ما تثبت في الوعي حتى تستحيل مع مرور الوقت إلى حقيقة، وكثيراً ما نستحضر صورة لشخصية تاريخية بصورة الممثل الذي قام بأدائها..

ويتوصل جيري ماندر إلى (أن ما نخفق في إدراكه هو الفرق بين الحقيقة والصورة، وهذه الصور في مجال الصحيح وغير الصحيح، إنها موجودة حقاً، فليس ثمة ما نرفضه، وليس ثمة طريقة لمقاومتها، إنها تتدفق نحو الداخل..)[4].

أما عند الطفل فتجد الصورة مساحة أوسع، وتأثيراً أقوى، لضآلة عدد الصور الخيالية، وللمساحة الشاغرة التي لم يثرها الخيال بعد، بل نجد أن الكثير من الصور هي محفزات تثير خيال الطفل وتنميته مما يؤهلها لأن تلعب دوراً مهماً في مرحلة الطفولة من خلال التفاعل والإقناع والتأثير، وهي تتميز بخصوصية وفعالية مهمة في عملية الاتصال بتقديم خطاب مزدوج يجمع بين أجواء التسلية وموجهات الخطاب الأيديولوجي. على أن هذه التسلية ليست قشرة خارجية تحيط بالمحتوى الأيدلوجي بل إن قيمتها في نقل الرسالة المبطنة تزداد بصورة طردية مع

المستوى الفني الرفيع الذي تستطيع تحقيقه، مما يجعل هذه الأيدلوجية أو تلك قادرة على الانتشار ليست مجموعة القيم التي تتأسس عليها، بل الميزة الفنية التي تسمح لها بالإنتشار، وتجعلها قريبةً دوماً من مواطن التأثير والإقناع في الطفل.

هل نستطيع أن نراقب الأيديولوجية الكامنة في أفلام الأطفال، ماهي أنواع الخطابات التي توجهها، وقبل كل ذلك كيف نخترق القشرة المعرفية للطفل كي نحدد ولو بصورة تقريبية مراكز التأثير والإقناع؟

أما النظرة المتفائلة حول مبدأ التسلية للتسلية، ومحاولة حجب كل الحقائق التي يمكن التوصل إليها عند تحليل أي خطاب موجه للأطفال، وتغييب حقيقة أنّ صانعي الصورة الموجهة هم راشدون وبالتالي فإنّ ما يقومون به هو تمثيل لنظراتهم للطفل متناسباً مع مفهوم للطفولة موازياً للهدف الذي ينشدونه من تجسيد هذه الصورة. وتمييع مسؤولية النقد. فهي نظرة يعلق عليها شيللر في كتابه (المتلاعبون بالعقول) بقوله (أن الفكرة القائلة بأنّ الترفيه لا ينطوي على أي سمة تعليمية ينبغي أن ينظر إليها بوصفها أكبر الخدع في التأريخ. وهو ما يصوره أريك باوند، مؤرخ التلفاز الأمريكي، على النحو التالي» إنّ مفهوم الترفيه، في تصوري، هو مفهوم شديد الخطورة. إذ تتمثل الفكرة الأساسية للترفيه في أنه لا يتصل من بعيد أو قريب بالقضايا الجادة للعالم، وإنما هو مجرد شغل أو ملء ساعة من الفراغ. والحقيقة أنّ هناك أيدلوجية مضمرة بالفعل في كل أنواع القصص الخيالية. فعنصر الخيال يفوق في الأهمية العنصر الواقعي في تشكيل آراء الناس» وبطبيعة الحال فإنّ هذه الملاحظة لا تقتصر على التلفاز)[5].

وبالمقابل فإنّ هناك ثلاث حجابات تحول بين الناقد العربي والأيديولوجية الكامنة في خطاب الصورة في مرحلة الطفولة، وهي:

**الأولى**: وتنطلق من طبيعة الطفولة، وتتعلق بالنظر إلى الطفل لكونه غير مستقبل للأيديولوجية. وهي تحمل الكثير من المغالطات حول قابلية الطفل على التفاعل مع القيم الأيديولوجية. وكذلك فإنها لا ترى من الخطاب الأيديولوجي غير صورته كنظريات وجدليات فلسفية. وبذلك فإنها تقصي الطفولة من دائرة التفاعل الأيديولوجي، وتقصي الخطاب الأيديولوجي من التواصل من مرحلة الطفولة. لذا فإنّ ما ينتج من وهم داخل منطقة الحجاب الأولى ينتج وهماً أعم وأشمل وهو أنّ الآخرين يعيشون بنفس الوهم الذي تنتجه.

الثانية: وتتعلق بواقع الطفل العربي

بعدِّه مستهلكاً للخطاب الأجنبي بصورته الأصلية أو بنسخته العربية. كما يشير إلى ذلك د. هادي نعمان الهيتي في كتابه «ثقافة الأطفال» (إنّ أدب الأطفال - العربي - اعتمد على الاقتباس والترجمة من التراث الأجنبي)[6] وبحساب سريع على ما يقدم نجد أن أكثر من ٩٠٪ من برامج وأفلام الأطفال لم تخصص للطفل العربي أو أنها صنُعت خارج أجواء الثقافة العربية. وبذلك فإنّ ما يقدّم من منظومة ثقافية / معرفية للطفل العربي قائمة على عنصر المغايرة بين ما يدركه وبين ما يعيشه، وبذلك فإننا ننتجّ طفلاً غير قادر على التكيف مع محيطه (ناقماً على محيطه بسبب عدم تلاؤمه معه)، وغير فعّال في التجاوب مع مجتمعه إلا بالقدر الذي يوفره له من أنماط ثقافية اعتاد على إدراكها من خلال الثقافة المرئية/ خطاب الصورة.

**الثالثة:** وتنطلق من عصبية فنيّة لكون أنّ الأيديولوجية عنصر معوّق للتفوّق الفني وهي تستشهد بالكثير من النماذج العربية التي كان فيها الطرح الأيديولوجي عنصراً ناشزاً وغير متلائم مع طبيعة العمل الفني. وبالمقابل فإنّ ما يطرح كدليل في هذه المجادلة من الممكن استثماره كدليل مضاد حين نجد أنّ تحليل أفلام الأطفال يحتوي على أيدلوجية عميقة وثابتة كما توصل إلى ذلك رالف رزق الله[7] في تحليله لأفلام أطفال أمريكية (ميكي ماوس، سوبر مان، فلاش غوردن ) وقد حققت أرقى مستويات التميز الفني.

### ❖ الطفل العربي:

تبلغ نسبة أطفال العالم إلى إجمالي السكان ما يزيد على الثلث[8]. وتشغل البرامج الموجهة عبر التلفزيون (كجهاز جماهيري لبث الصور) إلى الأطفال ما يقارب من نسبة (٢٠٪) من ساعات الإرسال كما يحدث في محطات التلفزيون البريطاني بشبكتيه B.B.C و I.T.V [9]. وتتجاوز بعض دول الخليج العربي هذه النسبة من ساعات البث اليومي[10]. وتشير مجموعة من الدراسات إلى أنّ الطفل الذي تجاوز سن الثالثة يقضي سدس ساعات يقظته أمام الشاشة الصغيرة، وفي سن المدرسة تكون المدة التي يقضيها في متابعة تلك البرامج تعادل المدة التي يقضيها في المدرسة، وتفوقها في أيام العُطل. لذلك تعد ماري دي لوي في كتابها «أولاد الصورة» التلفزيون بأنه «مدرسة موازية» وعامل توحيد للأجيال الصاعدة. وهي تبرز الدور الذي تلعبه وسائل الاتصال الجماهيرية عامة والتلفزيون خصوصاً في تنشئة الطفل الاجتماعية، بقولها (يمكن عد وسائل الاتصال الجماهيري التي تتوجه إلى الناشئة كمجموعة مؤسسات تساهم في التنشئة الاجتماعية للجيل الجديد، إلى جانب المدرسة، العائلة، والجيران)[11].

وبالطبع فإنّ الأنموذج المصورّ هو لا يمتّ بصلة لأنموذج الطفل التقليدي (الأب) بل هو أنموذج مغاير تماماً، فقد يكون بطل من أبطال الرسوم المتحركة أو المسلسلات التلفزيونية أو الدعاية. هذا إذا كان الطفل ينتمي لنفس المجال الثقافي الذي ينتج خطاب الصورة. أمّا إذا تغاير المجال الثقافي أيضاً فإنّ الطفل سوف يتماهى مع أبطال خارج بيئته الثقافية، ويتخذ نماذجه من خارج محيطه الاجتماعي، وبذلك فإننا ننتج طفلاً معاقاً عن التفاعل الطبيعي مع موروثه الحضاري ومجتمعه المحلي. وبالتالي فإنه سيفتقر إلى الاستجابة الصحيحة (والصحيّة) لمثيرات المحيط. ومع إستمرار سلطة خطاب الصورة عليه فإنه سيتجه أكثر وأكثر إلى الإنفصال عن واقعه.

هل من الممكن القول بأن هذا الانفصام في الشخصيّة الثقافية لدى الطفل يمكن أن ينسحب إلى حب الوطن والقطيعة مع التراث، واللا أبالية للواقع؟

وكي يكون لدى طفلنا العربي أدنى درجات المناعة فلا بد وأن نوفر له إطاراً مرجعيّاً نستمده من ثقافة الطفل. فهل توفر لنا ثقافة الطفل العربي ذلك، وهي ما تزال رهينة المبادرات الشخصيّة، وحبيسة الملفات المؤسساتية؟

وكي نضع حدوداً لدورة التساؤلات فلا بد وأن نقيم حواراً معرفيّاً لاستكشاف طفلنا من حيث كونه طفلاً ومن حيث كونه عربيّاً دون الإغفال لكل خصوصية تتميزّ بها هاتان الهويتان.



## الهوامش

١- د. محمد معوض. تنمية الطفل إعلامياً. مجلة النيل. السنة الخامسة. نوفمبر ١٩٨٤م ص ٥٦.

٢- د. مصطفى حجازي وآخرون. ثقافة الطفل العربي بين التغريب والأصالة. منشورات المجلس القومي للثقافة العربية. الرباط. ط/ ١. ١٩٩٠م. ص ٢٥٩.

٣- المرجع السابق. ص٢٦٠.

٤- جيري ماندر - استبدال الصور البشرية بوساطة التلفزيون. ترجمة كاظم سعد الدين. مجلة الثقافة الأجنبية. بغداد. ع ٤. ١٩٩٢م ص ١٤٩.

٥- شيللر ( هربرت أ ). المتلاعبون بالعقول. ترجمة عبد السلام رضوان. الكويت. سلسلة عالم المعرفة. ع ١٠٦ سنة ١٩٨٦ م. ص ١٠٤.

٦- الهيتي (هادي نعمان). ثقافة الطفل. الكويت. سلسلة عالم المعرفة . ع ١٢٣ . ص ٢٢٣.

٧- ثقافة الطفل العربي بين الأصالة والتغريب. الفصل الثامن . ص ٢٦١ وما بعدها.

٨ - د. محمد معوض إبراهيم: التلفزيون والطفل. مجلة الفيصل . ع ١٢٢ سنة ١٩٨٧ م . ص ٣٠.

٩ - المرجع السابق نفس الصفحة.

١٠ - المرجع السابق نفس الصفحة.

١١- ثقافة الطفل العربي بين التغريب والأصالة . ص ٢٥٨.

197

# ندوة المرأة وتحولات عصر جديد (متابعات ثقافية)



محمد سليمان حسن *

تحت رعاية الأستاذ «عدنان عمران» وزير الإعلام، وبمناسبة اليوم العالمي للكتاب، وحقوق المؤلف، أقامت «دار الفكر» في سورية، أسبوعها الثقافي بعنوان: «المرأة وتحولات عصر جديد»، تحت شعار «النساء شقائق الرجال»، في المدّمن (٢٠ - ٢٥/٤/٢٠٠٢) في العاصمة دمشق.

حضر حفل الافتتاح، كل من: الاستاذ عدنان عمران وزير الإعلام - والدكتورة نجوة قصاب حسن وزيرة الثقافة - والاستاذ عدنان سالم مدير دار الفكر ورئيس اتحاد الناشرين العرب في سورية، وكوكبة من الباحثين والمفكرين العرب، وجمهور غفير من المواطنين والمهتمين بالحقل الثقافي.

(*) محمد سليمان حسن: باحث من سورية. عضو اتحاد الكتاب العرب. عضو جمعية البحوث والدراسات. من مؤلفاته: «دراسات في الفلسفة الأوروبية».

أما السادة المشاركون في الفعاليات الثقافية لهذا الأسبوع، فهم على التوالي: (منير شفيق: فلسطين)، (بثينة شعبان، حنان اللحام،رغداء الأحمد،سوسن العمادي، عزة عمر الرباط، فريال مهنا، محمد عزيز شكري، محمدسعيد رمضان البوطي: سوريا)، (حسين عز الدين، عفاف الحكيم، فهمية شرف الدين: لبنان)، (أحمد عبد الله، أماني أبو الفضل،أميمة أبو بكر، طارق البشري، عفاف شعيب، عليه الجعار، فريدة النقاش، محسنة توفيق، ناديا مصطفى، هبة رؤوف عزت، عبد الوهاب المسيري: مصر)، (عبد الله الغذامي: السعودية)، (عاليه شعيب: الكويت)، (عبد المالك منصور: اليمن) ، (أبو يعرب المرزوقي، أحميدة النيفر: تونس)، (جميلة كديور: ايران)، (العربي كشاط: فرنسا)، (بسام الساعي: انكلترا)، (نعمة حافظ برزنجي: اميركا).

الغاية والهدف: إن مادعى دار الفكر لإقامة هذا الاسبوع، دخولنا في عصر جديد، منفتح على العولمة، التي نرجو أن ندخلها، محتفظين بقيمنا الانسانية، وهويتنا، وخصوصيتنا، وهذا ما نعتز به أشد الاعتزاز.

وإن مادفع دار الفكر كذلك، لإقامة هذا الاسبوع، ماتجده من الحاجة إلى التحاور الهادئ وسماع الرأي الآخر، بهدف الوصول إلى حلول مشتركة من جميع الأطراف، التي نجد أنفسنا بأمس الحاجة إليها، في عصر متغير، راجين أن تتسع صدورنا كلنا لها. وتهدف هذه الندوة فيما تهدف إليه: تمهيد الطريق لإخراج المرأة من عزلتها الاجتماعية، وإدماجها في العمل المجتمعي، والإسهام الفعال في خطط التنمية الشاملة.

❖ ❖ ❖

**السبت ٢٠/٤/٢٠٠٢**

وقائع حفل الافتتاح

جرى حفل الافتتاح، في مكتبة الأسد بدمشق. ألقيت فيه مجموعة من الكلمات هي على التوالي:

**١ - كلمة السيد «عدنان عمران» وزير الإعلام:**

عبر في مستهلها، عن سعادته بلقاء هذه النخبة المميزة من أهل الفكر والثقافة من عدة دول عربية شقيقة. مؤكداً أن هذا الأسبوع الثقافي يستمد أهميته خاصة، من تزامنه مع اليوم العالمي للكتاب، ومن كونه ينعقد في مدينة دمشق العريقة، مدينة الحضارة والتاريخ، ومن تزامنه أيضاً، مع الظروف الخطيرة الراهنة التي تمر بها أمتنا العربية.

وتحدث السيد الوزير « عن أحداث الحادي عشر من أيلول الماضي وتداعياتها

الخطيرة على الساحة الدولية، وإفرازاتها السياسية، التي عكست حقد الصهيونية العالمية ومنطقها العنصري الأعمى، والانحياز الأمريكي لاسرائيل والقائم على ازدواج المعايير والمقاييس» مشيراً إلى «ماتشهده الأراضي الفلسطينية المحتلة في هذه الآونة من صور مأساوية وما يرافقها من قتل وتدمير وحشي وإبادة جماعية تتواصل يومياً أمام سمع العالم وبصره، ضد الأطفال والنساء والشيوخ من أبناء الشعب الفلسطيني، وضد المقدسات الإسلامية والمسيحية معاً.

وأكد السيد وزير الإعلام: «أن سورية كانت ولاتزال تدرك حجم المخاطر المحدقة بالأمة العربية، وقد تعاملت معها من وحي المسؤولية القومية، التي لا تجامل ولا تساوم على الحقوق. وأن موقف سورية المبدئي والثابت إزاء جميع القضايا القومية، يحتم الوقوف ضد أي عدوان يحضر ضد العراق وشعبه، لأن مثل هذا العدوان يرمي إلى تمزيق أمتنا وتدمير طاقاتها وإمكاناتها.

وتحدث السيد الوزير «عن دور المرأة العربية، موضوع الندوة، وما حققته من تطور على مدى القرون، وما تتحمله من مسؤوليات إلى جانب الرجل، موجهاً التحية إلى المرأة العربية الفلسطينية التي تتفجر بركاناً في وجه آلة الحرب الصهيونية، وتقدم كل يوم، أروع التضحيات من أجل حرية وكرامة وطنها واستقلاله، وإلى شهداء الانتفاضة الباسلة الذين مضوا دفاعاً عن حقوقهم ومقدساتهم وأرضهم.

**٢ - كلمة السيدة الدكتورة نجوة قصاب حسن، وزيرة الثقافة:**

استهلت كلمتها بالحديث عن «أهمية الكتاب وقيمته المعرفية في اختزان الفكر والإبداع. مشيرة إلى أن الأمة العربية هي التي أبدعت الأبجدية، وأول من أسس مكتبة في العالم تضم الألواح والرقم التي سجلت عليها الأساطير والملاحم، وتعكس حضارتها وإبداعها على مر العصور».

وأكدت السيدة الوزيرة: «أن وزارة الثقافة دأبت خلال العقود الثلاثة الماضية على توفير الكتاب الجاد والعالمي المضمون». وشددت «على ضرورة نشر العلوم والمعارف لتعزيز الدور الحضاري لسورية»، معربة «عن الأمل في أن يحقق هذا الأسبوع الثقافي الهام، النجاح والتوفيق في كل ما يرمي إليه».

وأكدت: «أن الكتاب، سيبقى المنبع الأساس للمعرفة، على الرغم مما يحيط به من منافسات وتحديات متمثلة في مصادر المعرفة والتقنيات الحديثة، التي توفر المعلومات عبر أجهزة التلفاز والحاسوب، وسبل التخاطب والتقنيات الحديثة، التي تصب في النهاية في خدمة المعرفة والثقافة».

٣ - كلمة المنظمين للأستاذ عدنان سالم: جاء فيها: «تأكيده على أهمية الكتاب، الذي يشكل الأداة الأهم الأساسية، لتحصيل المعرفة، وتنوير المجتمعات البشرية، وإغناء مخزونها الثقافي. وتحدث عن» دور المرأة الهام في ظل التحولات المعاصرة التي يشهدها العالم، وما حققته من إنجازات على جميع الصعد الثقافية والاجتماعية والنضالية إلى جانب الرجل، على الرغم من كل التحديات الداخلية والخارجية التي تواجهها، وبشكل خاص التحدي الصهيوني الحالي لأمتنا العربية، والذي يرمي إلى طمس هويتها الثقافية والحضارية».

٤ - كلمة المشاركين للدكتورة نادية مصطفى: أكدت في كلمتها «على المآسي التي يعيشها الشعب العربي الفلسطيني، في مواجهة الآلة الحربية الصهيونية، ودور المرأة النضالي في هذه المعركة المصيرية الخطيرة، وما سجلته من بطولات وتضحيات في سبيل حرية واستقلال بلدها، واسترجاع حقوق شعبها المغتصبة».

❖ ❖ ❖

الأحد ٢٠٠٢/٤/٢١

أقيمت في هذا اليوم، ندوتان، هما: «البعد الثقافي للمسألة النسوية» و«المرأة والمشاركة السياسية».

١ - الندوة الأولى: «البعد الثقافي للمسألة النسوية»، عقدت برئاسة الدكتورة اميمة ابو بكر، وقدمت فيها ثلاث أوراق عمل، هي على التوالي:

١ - د. فهمية شرف الدين: قدمت ورقة عمل تحت عنوان: «البعد الفكري للعنف ضد المرأة». حددت الباحثة موضوعها في إطار لبنان نموذجاً. مؤكدة أن المرأة فيها لا تختلف كثيراً عن مثيلاتها في الدول العربية. فالصور الكثيرة لأشكال العنف، هي الصور التي ترسمها شهادات النساء عن أنفسهن، وصعوبة الحديث عن مشاكلهن الخاصة، ولا يجوز كشف أسرار الحياة الخاصة في مجتمعاتنا العربية. وبالتالي «مهما تعرضت المرأة إلى مصاعب داخل البيت، فالتقاليد تمنع الناس من الحديث. ولذلك «فالصمت يلف حياتهن»، و«عندما تحاول الجمعيات المناهضة للعنف ضد النساء، أن تتحقق من وجود عنف، فليس أمامها سوى مجالين اثنين هما: الأول، أرشيف المحاكم الشرعية التي تتقدم إليها النسوة لطلب الطلاق. ثانياً، تقارير قوى الأمن، وهذا هو المتاح لدينا عندما نحاول استقاء تقارير حول العنف المرتكب ضد المرأة، مهما كان نوع هذا العنف وشكله. وطبعاً (هذا لا يكفي ولا يعطي صورة صحيحة للعنف المرتكب ضد النساء. فكان لابد من الذهاب إلى جلسات استماع

لفئات عمرية مختلفة، يمتلكن ثقافات متباينة وأعمالاً مختلفة، من الطبيبة والمهندسة والمزارعة وربة الأسرة». وقد فصلت «بين نوعين من العنف، وهما العنف كالضرب أو السب أو الشتم. والعنف غير الظاهر، فمجرد أن يكون جنس الجنين أنثى، فهذا أمر يدعو إلى التمييز وعدم الرضا. ونستطيع القول «إن التعرف على الوقائع الفعلية، والعناصر المؤثرة في المشكلة هي نقطة البدء لإجابة علمية تأخذ في الحسبان الحاجات الأساسية للمرأة ككائن نوعي، دون إهمال الظروف النوعية التي تحددها العوامل المادية والروحية على السواء».

٢ - د. فريال مهنا، قدمت ورقة عمل تحت عنوان: «المرأة الأنثى والمرأة الإنسان»:

قالت الدكتورة فريال مهنا: «لم يسبق لحضارة إنسانية، أن تعرضت لهذا القدر من التشويه والظلم والجحود، كما تعرضت له اليوم الحضارة العربية الاسلامية، متمثلة بتلك المنظومات الفكرية والعلمية، وبتلك المبادئ والقيم والمثل العليا، التي جعلت منها إحدى أهم وأعظم الحضارات على مر العصور». وبالتالي، فالخطر الحقيقي على الاسلام» يكمن في أولئك الذين يعتنقون الإسلام، الذين يعتقدون أنهم هم وحدهم حماة الإسلام، يجهدون في اجتزاء فكر الإسلام، وتطويع تعاليم الاسلام، وتسخير قيمه، والعبث بمناهجه، لصالح اجراءات فرائضية تتعلق بالسلوك اليومي للمسلمين». متغافلين عن «أن الإسلام، إنما لا يتجلى بأركانه العبادية فحسب، بل بأساسياته الوجودية والفكرية». والأخطر من ذلك «وضع المرأة ضمن هذا الفهم الشوفيني، بحجة حماية تلك الأنثى، فارضين عليها عدم اكتشاف وتمثل منطلقات الإسلام الأولية، التي تحتل فيها المرأة والأنثى مكانة بارزة في الشريعة الإلهية أو الوضعية». وأضافت «إن السنة النبوية أيضاً، جزء لا يتجزأ من المنطلقات الأساسية للإسلام مدللة على ذلك بأحاديث نبوية. وخلصت الباحثة إلى القول: ماذا يفعل بعض علماء الإسلام وفقهائه ودعاته اليوم بهذا التراث الحضاري؟

إنهم يهمشون كليات الإسلام، ويتجاهلون منطلقاته ويطمسون رسالته الحضارية ويتشبسون بجزئيات وقصص وروايات تراثية مبتسرة، ترمي إلى قولبة حياة المرأة اليومية الدينية والدنيوية، ولاهم لهم سوى طاعتها العمياء للزوج».

٣ - الأستاذة حنان اللحام، قدمت ورقة عمل تحت عنوان: «المطلوب من المرأة»:

تحدثت في بدايتها «عن مأساة فلسطين، وما تعانيه تحت الاحتلال والقهر والقتل والتدمير ومحو الهوية». ثم تحدثت

«عن تجربتها في تحفيظ وتفسير القرآن، ومحاولة مد يد العون للنساء. فالعلم واجب وحق... وتساءلت «كيف يمكن للمرأة أن تأخذ حقها في مجتمع يعد صوتها عورة؟». وأجابت «إنه بالعمل يمكن اثبات الذات». ويتم ذلك عبر حالتين: «الأولى، تحديد الأهداف. والثانية، وضع خطة للوصول إلى هذه الأهداف». وقد طرحت العلاج من خلال ثلاثة محاور هي: «محور تأصيل الذات، ومحور ترقية الذات والأسرة، ومحور تطوير المدارس والتعليم».

❖ ❖ ❖

**٢ - الندوة الثانية" «المرأة والمشاركة السياسية». عقدت هذه الندوة برئاسة الدكتور أبو يعرب المرزوقي، وقدمت فيها أربع أوراق عمل، هي على التوالي:**

**١ - د. بثينة شعبان. قدمت ورقة عمل تحت عنوان «المرأة والمشاركة السياسية»:**

تقول الباحثة الدكتورة بثينة شعبان: «إن المرأة العربية قطعت شوطاً كبيراً في مسألة التقدم. ولكن هناك مفاصل محددة لم تتخذ فيها المرأة موقعها». وأحد أسباب ذلك «أن لدينا إرثاً مشوشاً، إذ يحاول المغرضون استخدام السلبي من الموروث السلبي من الوافد الغربي، لوضع العقبات أمام تقدم المرأة». ورأت «أن مشاركة المرأة في موقع القرار، هي ميزة للوطن وليس للمرأة وحدها. إن مفكري عصر النهضة العرب، طالبوا بأن تتخذ المرأة مكانها لتؤدي ما عليها من واجب، وتأخذ مالها من حقوق. إن الواقع الذي تتبوؤه المرأة لا يتناسب مع العمل الذي تؤديه، والأمثلة على ذلك كثيرة». «إن فكرة المرأة والقيادة ليست جديدة لقد تجاوزنا مسألة المساواة بين الرجل والمرأة. المهم هو تكافؤ الفرص. وأن يستثمر الوطن كل جهود أبنائه وبناته. فصعود المرأة إلى مواقع اتخاذ القرار، ليس على حساب الرجل». وما نحتاجه «هو أن تصبح مساهمة المرأة مثالاً، ومن منظور وطني، ولذلك فلن نختلف على شيء، ومساهمة المرأة تضيف أشياء لا يستطيع الرجل القيام بها».

**- د. هبه رؤوف عزت. قدمت ورقة عمل عن «المرأة والسياسة وتكنولوجيا المعلومات»:**

عندما نتحدث عن السياسة نتحدث عن الاسئلة الوجودية كلها. «فالسياسة ليست السلطة أو الدولة. السياسة هي إدارة المجتمع، تلعب فيه الدولة دوراً محدداً. ونحن نبحث عن دور الدولة فقط كما هو معتاد. لكن السياسة تعني أيضاً البحث في الذات والعلاقة بالآخر، وعلى أي أساس تؤسس للخيارات الاجتماعية». ولقد وجدت «أن العمل السياسي بالنسبة للمرأة من خلال بحثي، وجدت أن مشاركة المرأة واجب وطني وواجب مباشر وشرعي في

الوقت نفسه». كانت نتائج بحثي «أنه يمكن للمرأة أن تتولى الخلافة. لكن الخلافة ليست مهمة. المهم هو الإدارة السياسية». نحن بحاجة إلى تعريف السياسة «لوضعها في إطار العمران في الزمان والمكان. وعندما نقرأ الواقع الفلسطيني، فإننا نرى في وظيفة الانجاب، في سياق ما يتعرض له الشعب الفلسطيني ضرورة». وتطرقت إلى الوضع في بيت لحم، فقالت «نحن أولى بكنيسة المهد». «إن تكنولوجيا المعلومات، سهلت الكثير من الخيارات، فالحواسيب تقدم خياراً للمرأة، بأن تعمل، في كل مكان أو من منزلها. فالأنترنيت عالم واسع. لقد وفرت التكنولوجيا تحرراً حقيقياً، فكرياً وعلمياً واقتصادياً. فالمعرفة أصبحت قوة حقيقية، تتيح نصرة قضايانا والدفاع عن أمتنا. علينا أن نقرأ تاريخنا بشكل مختلف، وأن ننظر للمستقبل أيضاً بشكل مختلف.

٣ - د. جميلة كديور. قدمت ورقة عمل عن «المرأة الإيرانية والمشاركة السياسية».

إن مشاركة المرأة السياسية في المجتمعات الإسلامية، ينظر إليه عادة بصورة سلبية، جراء التخلف بالدرجة الأولى، وليس بسبب الشريعة الإسلامية». «إن نسبة اهتمام المرأة بالسياسة في إيران، هي أقل من الرجل، لوجود أسباب نفسية وثقافية». إنّ الدراسات الميدانية في إيران أكدت على عدم رغبة المرأة بالنشاط السياسي، ليس بسبب طبيعة المرأة، بل جراء عوامل خارج إرادتها». «إن الشريعة الإسلامية تتيح عمل ونشاط المرأة في كافة المجالات، ولكن هناك خلافات حول أحقية دور المرأة في تبوء المواقع السياسية، وقيامها بتحمل المسؤوليات». «إن دور المرأة في النشاط السياسي في صدر الإسلام كان بارزاً، ولم يصدر عن الرسول مايعارض ذلك». وقد أكد الإمام الخميني على ذلك بقوله: «إن مشاركة المرأة في السياسة تكليف وطني وشرعي». وقد نشطت النساء الإيرانيات في كل المجالات.

٤ - الفنانة محسنة توفيق. قدمت ورقة عمل حول «الفعل الشعبي وأثره في المقاومة».

قالت: «إنها تتعرض في ورقة عملها لأصعب المجالات، ذاك هو المجال الشعبي. ولذلك اتحدث عن المرأة، بل عن الشعب. والشعب ليس كلمة عامة. فقد اخترت أن أكون في الشارع مع الناس، بشكل غريزي، كنت أسمع الأسئلة عن الشعب، من هو؟ ماذا يعني؟ فوجدت، أن الشعب هو الذي يحيي الأوطان، وتعلمت في هذا الخضم. ولم انزلق إلى النخبوية، رغم نجوميتي. فكنت مع الناس خلال عدوان (١٩٦٧)، مع الشعب الذي خرج ليحمي مصر، حين طالب ببقاء

عبد الناصر. فبعد النكسة أحس بسطاء الناس، بالدونية والضآلة». وكنت أقول «إن على الناس عدم تحميل أنفسهم مسؤولية ماحدث، لأنهم أبعدوا عن أدوارهم». فعندما نقول «نحن» لاتعني هذه الكلمة أننا واحد، بل العكس، «نحن» تعني الطبقة الحاكمة من جهة، والشعب من جهة أخرى. وقد أخفى الحكام الحقائق عن الشعب، بما في ذلك إخفاء حقيقة العدد الذي نجابه».

❖ ❖ ❖

**الاثنين ٢٠٠٢/٤/٢٢**

**أقيمت في هذا اليوم ندوتان هما: «حوارات حول المرأة» و «دور الفن في المقاومة».**

**أ - الندوة الأولى: «حوارات حول المرأة». عقد الندوة برئاسة الدكتورة نادية مصطفى. قدمت فيها ثلاث أوراق عمل هي على التوالي:**

**١ - د. عزة الرباط. قدمت ورقة عمل تحت عنوان «جذور العمل الإعلامي النسوي الاسلامي»:**

بدأت الاستاذة عزة الرباط محاضرتها بالتساؤل، هل هناك جذور، وهل هناك عمل إعلامي نسوي يحتذى، وهل يوجد اليوم هذا النموذج؟ وقد أعطت «لمحة تاريخية عن جذور العمل الاعلامي في الإسلام منذ عهد الرسول. فالنهي عن المنكر والأمر بالمعروف إعلام». ومع بزوغ فجر الإسلام نجد «أن الرسول استخدم معظم الوسائل الإعلامية من الشعر إلى الخطابة والمناداة والأذان». ثم انتقلت الباحثة إلى العمل الإعلامي «الذي مارسته المرأة المسلمة قديماً، كمحدثة وفقيهة وتربوية، مما يثبت أن الاسلام لم يكن عدواً للمرأة». ثم انتقلت إلى الواقع الراهن، متحدثة «عن فترة الظلام التي سادت الاسلام في العهد العثماني، حيث حبست فيه المرأة في (الحرملك)» ووصلت إلى تساؤل، أين هي هذه المرأة الآن من المرأة النموذج، وأين دورها في وسائل الإعلام؟ وبماذا نفسر تميز الإعلام النسوي الغربي وتهميش النموذج النسوي العربي؟. هذه الأسئلة «تحريض للاقتداء بالنموذج السلفه». وأضافت «أن ما سبق لاينفي وجود إعلاميات مميزات في الوقت الراهن، ولكن على نطاق ضيق... إذ نجد إعلامنا خالياً من المرأة النموذج المتعلم والفاعل، نتيجة للعسف الذي يمارس عليها باسم الدين والجل به». وختمت بالقول «إن الإعلام العربي ضعيف في توجهه إلى الآخر، وتغيير هذه الصورة يحتاج إلى عمل مدروس، وعلينا ابراز دور المراسلات العربيات، فهو إعلام وجهاد».

**٢ - د. عبد الملك منصور. قدم ورقة تحت عنوان «واقع المرأة تحدده التقاليد أم الشرائع»:**

فقال: ما المشاركة السياسية؟ في الاطار العام تتمحور المشاركة السياسية حول التعامل الإيجابي مع الشأن السياسي وتمثل المشاركة السياسية، بنية الازمة لممارسة بعض الحقوق الجماعية، كحق الشعوب في تقرير المصير، والمشاركة السياسية تستوجب دعم المبادئ والأحكام الشرعية». وبالإضافة لذلك «فإن للمشاركة السياسة فوائد لا يمكن تحصيلها في حال غيابها. والمشاركة السياسية تؤدي لاستنهاض مجموع قوى الأمة بمواردها العقلية التامة، وتتيح المجال للتحاور بين مختلف الفئات والآراء والأفكار، ويكشف الصواب عن وجهه، ثم إنّ المشاركة السياسية تغني التضامن وتعزز ظاهرة الوحدة الوطنية وتمنع حالة الحرمان التي تدفع للعنف والتطرف». وقال: «يمكننا أخذ نطاقها على ثلاثة أبعاد: الأفقي والرأسي والزمني، مما يوفر المشاركة لكافة فئات الشعب، ومدى المسموح به للتدرج السياسي، كما يقيس مدى استمرارية التواصل والمشاركة». ثم تحدث عن المشاركة السياسية في الوطن العربي، مؤكداً «صعوبة استجلاء صورة صحيحة عن وضعها في التاريخ القديم. وفي الإسلام شهدت تحسناً ملحوظاً، مما أدى إلى عدم مشاركة أغلب أفراد الشعب في السلطة وفيهم المرأة».

٣ - د. أحميدة النيفر. قدم ورقة عمل تحت عنوان: «المشاركة النسوية والمركزية الثقافية والعولمة»:

عرض فيها بداية، رؤية للمسألة النسوية. كيف طرحت في فضاء عربي خاص، هو الفضاء المغاربي، حيث طرحت المسألة النسوية منذ فترة زمنية بعيدة. وقد حاول من خلال استقراء ثلاثة نصوص لتونسيين وجزائري، قدور غالبيها حول المرأة، وكيف كان هؤلاء ينظرون للمرأة. كما أن تحليل هذه النصوص يفيدنا أكثر، حين نريد أن نطرح المسألة اليوم في بعدها المزدوج: البعد الثقافي، وبعد الصدام مع ما يسمى العولمة. وأضاف: إن معضلات المجتمعات الأبوية شرقية أم غربية لا تكمن في التناقض التفضيلي للرجل على المرأة وحسب، بل استمداد هذه التراتبية من أيديولوجية المركزية الثقافية التي تقوم على الفعل ورد الفعل، وسيطرة المركز على الأطراف.

❖ ❖ ❖

٢ - الندوة الثانية: «دور الفن في المقاومة». عقدت الجلسة برئاسة الفنان السوري بسام كوسا. قدمت فيها ورقة عمل واحدة هي:

١ - الفنانة عفاف شعيب. قدمت ورقة عمل تحت عنوان: «المرأة وتحولات عصر جديد»:

تحدثت عفاف شعيب باسهاب تاريخي عن مكانة المرأة لدى أقوام الشعوب قبل الإسلام. وبينت: أن المرأة في الحضارات التي سبقت الاسلام كانت من متاع الرجل تباع وتشرى وليس لديها إية حقوق. أما الرسالة المحمدية، فقد جاءت لأول مرة في التاريخ بالتشريعات التي حفظت كرامة وآدمية المرأة كإنسان وفرد في المجتمع وأم ومجاهدة. «وركزت» على دور النساء في الجهاد منذ صدر الاسلام حتى الوقت الراهن، حيث قدمت فتيات القدس النموذج الأسطع في الاستعداد للشهادة في مواجهة عدو غاصب، يقتل النساء والأطفال والرجال دون تمييز، تأخذه شهوة القتل والوحشية دون سواها. فأنا أقف مع المرأة الفلسطينية في صمودها وكفاحها ضد المغتصب الصهيوني الغاشم». ثم تحدثت ثالثة: «المعادلة الصعبة التي تواجه المرأة دائماً هي في الموازنة ما بين قيم مجتمعنا وتعاليم ديننا من ناحية، والتقدم العلمي والعصري من ناحية أخرى. فأين هو السبيل؟. والجواب: على المرأة العربية أن تساير ركب الحضارة الحديثة، لكن في تحشم ووقار، دون ابتذال لأنوثتها أو تفريط في كرامتها» وهذا يتأتى من محورين اثنين هما: مراعاة التقاليد وتعاليم الدين، والثاني، السير مع السائرين في ركب الحضارة، ومتابعة التقدم العلمي الهائل الذي لف كرتنا الأرضية». وبالتالي أنا أوصيكم بالمحبة في الله والابتعاد عن الأنانية وحب الذات، وأن يحب كل منكم لأخيه ما يحب لنفسه». ثم ختمت قائلة: «وعلى المرأة أن تتسلح باليقظة والشجاعة في مواجهة التحديات. إذ لن يجد بها تخلفها ولن يعصمها احتجابها عن المجتمع، متسلحة بتفتح عقلها لمتطلبات الحضارة وضرورات عصر العولمة».

❖ ❖ ❖

الثلاثاء ٢٠٠٢/٤/٢٣

أقيمت ندوة مسائية تحت عنوان «المرأة وتحولات العولمة»، ترأس الجلسة الدكتور أحميدة النيفر. وقد قدمت فيها ورقتا عمل هما على التوالي:

١ - الدكتورة نعمت حافظ برزنجي، تقدمت بورقة عمل تحت عنوان: «الهوية الذاتية للمرأة المسلمة»:

قالت الدكتور نعمة «إن عنوان الندوة مهم جداً، مشيرة إلى أنها بحثت مدة عشر سنين موضوع المرأة المسلمة فدرست كيف تم استبعاد المرأة عن تفسير النصوص الشرعية، إذ لانجد تفسيراً مثلاً، لأسباب تغييب السيدة عائشة والسيدة حفصة، عن الأمور الشرعية، رغم أنهما كانتا موضع ثقة، الأمر الذي يؤكده وقوع المسلمين الأوائل تحت السطوة الذكورية». وأضافت «إن غايتي هي تقديم أفكار حول المساواة

بين الجنسين، ضمن المنظور الاسلامي، الذي يؤكد حق المرأة في قراءة وتفسير القرآن. لقد اعتدنا على سرد المثاليات عن المرأة، وذلك بنسبتها إلى الرجل، فلا يتم النظر إليها ككائن إنساني مستقل قادر على التفاعل مع الشريعة، ومع التطورات الاجتماعية».

«إن حصول المرأة المسلمة على حقوقها يحتاج إلى معرفة عميقة بالقرآن الكريم ففي عام /١٩٩٥/ سألت بعض النساء الدمشقيات عن أهم تجربة في الاستجابة مع موضوع التقوى. قالت إحداهن: «إنها تستطيع الإجابة، بعد معرفة جميع وجوه ومعاني التقوى، وقدمت نماذج حول مفاهيم لدى المرأة المسلمة، خاصة بين صفوف الشابات». وأضافت « إنها درست أسباب تغييب النساء عن صلاة الجمعة واستبعادهن عن الخلافة». ولذلك «فإن النساء يلجأن لدراسة القرآن من أجل التوصل إلى إجابات حول حقوقهن وواجباتهن ومقاصد الشريعة». وأشارت إلى «أن وعي النساء المسلمات يتعمق وفقاً للشروط القرآنية. إن الإسلام لايدعو إلى الفصل بين الجنسين». ولذلك شهدت حلقات فكرية «تجمع نساء ورجالاً مسلمين يتحاورون في شؤون دينهم وفي دراسة القرآن الكريم. كما أن تحقيق المرأة لذاتها يتطلب من النساء التعمق في دراسة القرآن ومختلف الدراسات الاسلامية، وكذلك الأفكار العصرية». ويتطلب ذلك « الموازنة بين مقاصد الشريعة وبين حقوق الإنسان».

**٢ - الدكتورة ناديا مصطفى. تقدمت بورقة عمل عن «المرأة والعولمة».**

تحدثت في ورقة عملها، عن الأمة المسلمة في عصر العولمة. قائلة «أن الأمة المسلمة تواجه تحديات خطيرة لا تقتصر على الجوانب الاقتصادية والسياسية والعسكرية، بل تمتد إلى حقل الثقافة. وإن استحضار قضية المرأة على نحو غير مسبوق، يمثل نقلة نوعية في هذا الإطار. لذلك فإن التغيرات الاجتماعية التي شهدتها الدول الإسلامية، دفعت قضية المرأة إلى الواجهة. وقد أثرت أفكار الحركة النسائية العالمية، في المجتمع المسلم، بإثارة جدالات كثيرة، لصعود التحديات الثقافية والحضارية بسبب العولمة، ترك بصمات جديدة على كافة المفاهيم والتحولات. فما هي تأثيرات عصر العولمة على المرأة العربية والاسلامية؟.

لمعرفة ذلك، «لابد من دراسة تاريخ نشوء قضية المرأة ثم معرفة ماهي العولمة». وبصدد تطور قضية المرأة «يوجد ثلاث مراحل: طبيعة الإطار المحلي، والاطار الدولي، والمعالجات التي قدمت لقضية المرأة». لقد قسمت الباحثة مراحل تطور قضية المرأة العربية زمنياً، إلى مرحلة ما قبل الإسلام، ثم ما بعد الاستقلال، ثم

مرحلة العولمة». وفي ظل العولمة « انتقلت قضية المرأة من صراع أيديولوجي إلى صراع حضاري، ودخلت الحركة النسوية مرحلة جديدة».

«إن عصر العولمة هو عصر الاختراق الخارجي الكثيف للعوامل المحلية، وبشمول الثقافي والاجتماعي بطرق غير مسبوقة». ورغم هذا ظهر الخطاب الإسلامي حول المرأة، بعد تراجع الخطاب العلماني عن المرأة وأدى ذلك إلى تعدد الأدبيات التي تتحدث عن المرأة في الاسلام. إن أيّ إصلاح لوضع المرأة العربية المسلمة في مشروع حضاري أوسع لايرى غضاضة في مشاركة المرأة في كل المجالات بما في ذلك المشاركة السياسية».

❖ ❖ ❖

**الأربعاء ٢٠٠٢/٤/٢٤**

**اقيمت في هذا اليوم ندوتان هما: «المرأة الأنثى والمرأة الإنسان، و«المرأة بين الفكرين الديني والفلسفي».**

**أ - الندوة الأولى: «المرأة الأنثى والمرأة الإنسان». عقدت الجلسة برئاسة الدكتور عبد الله الغذامي، وقدمت فيها ورقتا عمل هما:**

**١ - د. أميمة أبو بكر. شاركت بورقة عمل تحت عنوان: «المرأة العربية والوعي الديني التحرري»:**

بدأت الباحثة مداخلتها بالقول: «إن ورقة عملها هي محاولة لوصف هذا الوعي الديني التحرري من خلال نقيضه الفكر الديني المحافظ في القرن العشرين».

وتتلخص منطلقات ورقتها في الأمور التالية: ١) التمكين، وهو إطار فكري تحليلي في مجال دراسات المرأة، كإطار تحليلي في مجال تنمية المرأة، والتمكين الديني هو بعد جديد. ٢) تطرقت إلى فكرة هيمنة الأطر الفكرية الغربية في تحليل دور الدين وتبني نظريات التحليل والعلمنة. ٣) فكرة الخطاب، أي ما يقدمه الكتاب والدارسون والباحثون على أنه خطاب اسلامي، حول الدين وحول المرأة.

وأشارت إلى أن الفكر المحافظ فيما يخص المرأة هو كل رؤية تكرس بشدة وحسم التراتبية بين النساء والرجال في الأسرة والمجتمع، بناء على محاولات تتمسك بموقع كل منهما على السلم الاجتماعي والحياتي في كافة الظروف والأوساط والأماكن. وقد استخدمت وثيقة هي عبارة عن كتاب للمفكر «محمد طلعت حرب» بعنوان «تربية المرأة والحجاب» الذي كتبه كرد على كتاب المفكر المصري «قاسم أمين» بعنوان «تحرير المرأة». وأكدت، أن خطاب المفكرين يؤكد على سلطة الرجل على المرأة كقانون طبيعي. وهو نفسه الخطاب في الحداثي عبر التاريخ عن

المرأة وسيطرة الرجل ونظرته إليها على أنها قاصرة وغير قادرة على مجاراة الرجل.

**٢ - د. سوسن العمادي. شاركت بمحاضرة تحت عنوان: «دعوة إلى نبذ أساليب بالية التربية».**

فقالت: يقال إن وراء كل عظيم امرأة. وأنا أقول: إن كان هذا صحيحاً، فهي أمه. وأضافت: الأساليب البالية في التربية هي الأساليب القديمة الرثة التي ثبت عدم جدواها، ويمكن تفنيدها إلى نوعين هما: الأساليب الراكدة والأساليب الوافدة. الأولى، مبنية على الإهانة والإذلال، وهي نتيجة ظروف صعبة مرت على الوطن العربي والاسلامي. والثانية هي التي تبنتها الشريحة المثقفة كحرق المراحل.

وقد اقترحت الباحثة عدة أساليب في التربية، وخاصة تربية الفتاة هي: ١) امتلاك الشخصية القويمة من حيث شخصيتها وقدرتها على اتخاذ القرار والتعاون والقدرة على استحضار التعاطف والشعور بشعور الآخرين. ٢) إعادة النظر في كيفية تعليم أطفالنا وتسليحهم بمهارات التعليم. ٣) تعليم الأطفال التواصل، من حيث الألفاظ واللهجة والتعابير والإيحاءات.

كما اقترحت خطة عمل، كإقامة دورات وورشات عمل للآباء، وتعديل المناهج وتدريب المدرسين على استخدامها، وكذلك، تأليف لجان للكراقبة والإنشاء.

❖ ❖ ❖

**ب - الندوة الثانية: «المرأة بين الفكرين الديني والفلسفي».**

**عقدت الندوة برئاسة الاستاذ منير شفيق. وقدمت فيها ثلاث أوراق عمل هي على التوالي:**

**١ - د. فريدة النقاش، قدمت مداخلة عمل تحت عنوان: «منزلة المرأة بين الفكرين الديني والفلسفي»:** وقد قسمت المداخلة لعدة أقسام، منها، إنشغال الفلسفة بقضية المرأة، وكذلك الفكر الديني، رغم الفروق القائمة بين الفكرين ثم سردت الباحثة مكانة المرأة في الحضارات القديمة، ثم في الأديان السماوية. ويهتم البحث بالمدرستين المعاصرتين الماركسية والليبرالية...في القضية الفلسفية، للفرد أولوية، تليها علاقة الفرد بالآخرين. والليبرالية من حيث المبدأ لاتميز بين الرجل والمرأة. لكن هذه المدرسة اصطدمت بواقع أن المجتمع القائم على الملكية الفردية، لايتيح لجميع الناس الحصول على حقوقهم، فكيف الأمر بالنسبة للمرأة المهمشة؟. على الصعيد العربي، واجهت المدرسة الليبرالية العربية، عوائق كثيرة، منها الاتهام بأنها مدرسة ذكورية. وكان هناك مدرسة نسوية عربية ليبرالية مثلتها رائدات، وهي مدرسة ركزت على فكرة، أن الفروق بين الرجل والمرأة هي فروق اجتماعية، أي أنها فروق محتولة. وتطرقت الباحثة إلى الليبرالية المتوحشة،

التي ظهرت بعد انهيار الشيوعية، والتي أباحت التوحش في كسب الثروة، بغض النظر عن أيّ اعتبار، وفي نطاق هذه المدرسة، نشأت مدرسة نسوية متوحشة أيضاً، متمثلة بالنخب، التي تزعم، أن الهوة بين المرأة والرجل لايمكن أن تدوم. وتطرقت الباحثة إلى موقف الماركسية من المرأة، التي ترى أن اضطهاد النساء، ظهر مع ظهور الملكية الفردية، وانقسام المجتمع إلى طبقات. وترى الماركسية، أن الفرد هو مجموع علاقاته الاجتماعية، ولذلك، فإن المرأة كفرد، يتحدد مكانها على ضوء علاقاتها، وهي علاقات متغيرة ومتحولة. إن إسقاط الحق الأمومي حسب الماركسية، كان هزيمة تاريخية للنساء، حيث بعدها تم استبعادها من قبل الرجل. والماركسية ترى، أن الاتحاد الاختياري للرجل والمرأة هو الأساس، وهو يحرر المرأة من النواحي الشخصية، إلا أن العمل هو السبيل إلى تحرر المرأة اجتماعياً. وهناك دراسات ماركسية جديدة تقول، إن الفروق بين الجنسين نشأت في المجتمع، وتم انتقاد عدم حساب فائض القيمة للعمل المنزلي الذي تقوم به النساء. إن كل الأصوليات الدينية لم تساو بين الرجال والنساء، فلا يوجد نص ديني يثبت المساواة. القرآن لم يساو بين الرجل والمرأة وكذلك الانجيل. والفكر الديني انقسم إلى تيارين: محافظ ومستنير. والأخير لم يدخل بعد في الذهنية العربية بشكل فاعل. إن الجوهري في الأديان هو أن الله واحد، وأن الإنسان واحد ذكراً أم أنثى.

**٢ - د. أبو يعرب المرزوقي. قدم ورقة عمل تحت عنوان: «منزلة المرأة بين الفكرين الديني والفلسفي»:**

تحدث الدكتور أبو يعرب المرزوقي فقال: إن ما سأقدمه ليس ماورد في مذاهب الفلاسفة، أو ماجاء في الأديان، بل أريد الحديث عن شروط الكائن، باعتباره كائناً معرفياً، سواء كان رجلاً أم امرأة. إن الصدام بين الأصوليين والعلمانيين نقل الصراع إلى قلب الأمة. وقد خفت صوت العلمانيين خوفاً من موالاتهم بموالاة التيارات الأجنبية. والسؤال عن تحديد منزلة المرأة دينياً وفلسفياً، قد انتهى إلى ترجمة تقليدية، جعلت الفلسفي محصوراً بالقانون، والديني محصوراً بالفقه. ماهي العقبات التي تحول دون العلاج الفلسفي والديني لمسألة المرأة؟. إن مقومات الذات الإنسانية تطرح السؤال حول وجود فروق بين الرجل والمرأة، وماهية هذه الفروق؟ عَرّفَتْ الفلسفة الإنسان بوصفه حيوناً ناطقاً، ولم تميز بين الرجل والمرأة، فمن حيث الجوهر، الرجل والمرأة هما من مادة وادحة. وقد عرّف ديكارت الإنسان بأنه ذات مفكرة، ولم يميز بين الرجل والمرأة، وكذلك فعل نيتشه وهيدجر. إن الفلسفة

ترى، أن الفروق بين الرجل والمرأة هامشية في المادة وليس في الجوهر ويرى الباحث أن المرأة في الاسلام تميّز عن الرجل، بكونها صورة، ولايميز الاسلام من حيث الجوهر الكائن الإنساني. من أين تأتي الفروق بين الرجل والمرأة في الفكرين الديني والفلسفي؟ إذا اعتبرنا أن جميع الأحكام في الدين، تساوي بين الذكر والأنثى في النفس والعقل. والفكر الديني يرى أن العَرَضْ يرتبط بصحة الإيمان. إن الشرع يساوي بين الرجل والمرأة في الملكية، ولكن بشكل أقل للمرأة، وذلك لأن المرأة حملت مسؤوليات أخرى، وفي الفكر الفلسفي، يتمايز الرجل عن المرأة في المادة، والمساواة سوف تتدخل في آليات انتاج الرزق الاجتماعي، وكذلك ماينتج عن وسائل الإنتاج من قيم الخلقية. إن الدين الإسلامي يرى في القيم الخلقية ناظماً للتصرف في انتاج واستهلاك وسائل العيش والرزق.

**٣ - د. محمد سعيد رمضان البوطي. قدم ورقة عمل تحت عنوان: «مكانة المرأة في الإسلام»:**

قال الدكتور البوطي: إن بحثه هو محاولة لمشروع حول حقوق المرأة، وإن الحديث عن مكانة المرأة في الإسلام يدور في مكانين: الأول يدافع عن حقوق المرأة في الإسلام، والآخر يقول، إن الإسلام لم يستكمل حقوق. ولذلك سوف اختصر في الحديث فأشير إلى عدة نقاط: ١) التركيز على أخطاء يتورط بها المدافعون عن حقوق النساء. ٢) أن الثوب التكريمي الذي أسبغه الإسلام على المرأة، هل هو كاف أم لا؟.

بالنسبة للأخطاء، فلفت الانتباه، فالآية التي تقول (للذكر مثل حظ الأنثيين) فتفسير هذه الآية، لاينطبق إلا على حالة واحدة، هي عندما يعصب الأخ أخته. وفي كل ماعدا ذلك، فإن المرأة والرجل متساويان في الإرث. الغلطة الثانية، هو خطأ يتورط بعض الباحثين الاسلاميين في الحديث عن شهادة المرأة، فيقال. أن شهادة المرأة تساوي نصف شهادة الرجل، وهذا غير صحيح. فالشريعة الاسلامية لاتفرق بين رجل وامرأة في شهادة في مجرى سير التحقيق، إن الإسلام يميز من حيث الآلية، أي صلة الشاهد بالقضية.

ثم سأل البوطي: هل الثوب الفكري الاسلامي الذي اسبغ على المرأة لايكفي؟. الإجابة مشترطة بعدم استثمار أنوثة المرأة. والشرط الثاني، أن لا نأتي بما لدى الغرب، مستسلمين لكل ما يأتي منه. لننقد الشريعة وننقد الغرب، فما المزيد الذي ننتظر استكماله من المذاهب الأخرى؟. أنا أبحث عن مشروع لاستكمال الحقوق التي تحتاجها المرأة، لكنني انتظر الجواب. فهل من مزيد؟.

❖ ❖ ❖

الخميس ٢٠٠٢/٤/٢٥

اقيمت في هذا اليوم ندوتان هما: «دور المرأة في الانتفاضة والمقاومة» و «الحركة النسائية ومفهوم الجندر».

أ - الندوة الأولى: «دور المرأة في الانتفاضة والمقاومة». عقدت الجلسة برئاسة الدكتورة سلوى بكر. وقدمت فيها ثلاث أوراق عمل هي على التوالي:

١ - الباحث منير شفيق. قدم ورقة عمل تحت عنوان: «دور المقاومة في الانتفاضة»:

تحدث الباحث عن دور المقاومة في الإنتفاضة متناولا المرأة الفلسطينية كنموذج فقد اظهرت المرأة الفلسطينية من خلال دورها في الكفاح صورة جديدة تحتاج ال اعادة قراءة في وضع المرأة عموماً. ففي الماضي كانت صورة المرأة مترافقة دوما مع صورة الجهل و عدم القدرة على الفعل، و نقلت هذه الصورة الى الغرب ليرانا من خلالها و اعتقد ان هذه الصورة قد تغيرت الآن، فقد اثبت المرأة الفلسطينية انها في غاية الفعالية و بالتالي تقدمت على الرجل، فهي ليست أماً وأختاً فقط بل مقاومة و مقاتلة و استشهادية ايضا و هذا يدل على وجود وعي عميق لدى النساء العربيات.

٢ الاستاذ حسن عز الدين قدم ورقة عمل تحت عنوان «دور المرأة في المقاومة الوطنية»:

تحدث فيه عن دور المرأة في الانتفاضة الفلسطينية المباركة منطلقا من الاسلام كمنهجية في العمل المقاوم. فالمقاومة الاسلامية في لبنان ولدت عام ١٩٨٢ عند اجتياح الكيان الصهيوني للبنان و قد صاغت المقاومة الوطنية و الاسلامية رؤيتها تلك للكيان الصهيوني على انه وكالة عنصرية معتبرة أن القدس هي أس الصراع العربي الصهيوني، و المرأة المقاومة الاسلامية انخرطت منذ البدء في هذا الصراع إلى جانب الرجل المسلم. فقد ساهمت المرأة المقاومة المسلمة في سياق مرحلتين جهاديتين هما: الاجتياح الاسرائيلي للبنان، و الجهاد الاسلامي والعمليات العسكرية.

٣ - د. رفعت السيد أحمد. قدم ورقة عمل تحت عنوان: «المرأة العربية والمقاومة»:

اتخذ الباحث رفعت السيد أحمد «نموذج الاستشهاديات الفلسطينيات». مؤكداً على أن أبرز صورة لنضال المرأة الفلسطينية ظهر في هذا النموذج الاستشهادي. محللاً الأسباب والظواهر التي وقفت خلف هذا العمل البطولي، والتي حددها في: القصيدة والأسرة والتنظيم السياسي والفكري الفاعل. كما حاول الباحث تحليل بعض الصور المشوهة لهذه الظاهرة في الصحافتين الغربية والعربية. الذي بررت فيه - الصحافتان - العمل الاستشهادي بأنه ظاهرة ناتجة عن اليأس، كما ورد في جريدة الأهرام المصرية.

❖ ❖ ❖

٢ الندوة الثانية: «الحركة ومفهوم الجندر».

عقدت الندوة برئاسة الدكتورة عالية شعيب. وقدمت فيها ورقة عمل هي:

١ - د. أماني أبو الفضل. قدمت ورقة عمل تحت عنوان «الحركة النسوية والجندر»:

حاولت الباحثة الدكتور أماني أبو الفضل تحديد مفهوم «الجندر» وهو مصطلح جديد ودخيل على ساحة الفكر العربي المعاصر. قائلة: ظهر مصطلح (الجندر Gender) لأول مرة في مؤتمر السكان عام /١٩٩٤/. وهو مفهوم يعني فيما يعنيه التمييز بين الجنسين (Gender) بدلاً من (Sex). وهو إضافة إلى ذلك مصطلح فلسفي يعني سياسة حياتية تخص الرجل والمرأة. وليس فقط تحديد بيولوجي، ولكنه يقوم على أساس هذا التحديد البيولوجي. وهو نظام يقوم على مفهوم (الحصص). أي نسبة حصة كل من المرأة والرجل في العمل والمساواة. إنه نظام أوروبي غربي، لا يتفق مع النظام العربي لمفهوم المرأة ولا الأنوثة ولا الأمومة.

❖ ❖ ❖

في ختام هذه الندوة. نستطيع القول. إننا بذلنا جهداً نأمل أن نكون قد وفقنا من خلاله في تقديم، عرض مبسط لهذه الندوة الهامة. لنقول إن أهمية هذه الندوة تكمن في نقاط عدة: تناولها لموضوع المرأة. هذا النصف المجتمعي الفاعل والمنفعل، أحياناً بصمت وأحياناً أخرى بصراخ. كما أن تنوع الاتجاهات الفكرية والمدارس المعرفية التي قدمت أوراق عملها في هذه الندوة، جعلنا نقف على وجهات نظر متعددة متفقة أحياناً ومختلفة أحياناً أخرى، مما أغنى البحث والندوة والموضوع في آن معاً، على الرغم من سيطرة الخطاب الإسلامي في هذا الموضوع. متمنين أن يكون عنوان الندوة القادمة لدار الفكر تحت عنوان: «الرجل وتحولات عصر جديد». لتكتمل الدائرة ليس إلا.

❖ ❖ ❖

## نافذة على الوطن العربي



عبد الرحمن الحلبي *

## أفكار علمية

### في المعرفة العلميّة وطرائقها الفكريّة

الإبستيمولوجيا كلمة مشتقة من الجذر اليوناني epistime وفقاً لما يراها أصحاب الاختصاص، وقد شاعت هذه الكلمة، أو هذا الاصطلاح، في كتاباتنا البحثية، عربياً، منذ برهة ليست بالبعيدة؛ وهذا الاصطلاح يمكن استعماله للدّلالة على التفكير حول المعرفة العلمية وطرائقها الفكرية وكيفية تدرجها، مثلما على جذرها اللغوي على العلم أو المعرفة.

(*) عبد الرحمن الحلبي: أديب وناقد من سورية، مدير ندوة «كاتب وموقف».

وقد حاولت الإبستيمولوجيا منذ القرن التاسع عشر أن ترتقي في شكل فرع علمي مستقل بل متاخم للفلسفة وللتاريخ، كما تكرّس عدد كبير من المفكرين للبحث فيها.

وفي القرن العشرين تشكّلت الأنساق الإبستيمولوجية الكبرى؛ هذه الأنساق تألّفت من حلقات عدّة، تزعّم كلَّ واحدة منها عالمٌ مرموق وانضوى في كل منها عدد من العلماء والفلاسفة، فكانت حلقة (فيينّا) 1924 أبرزها، وكان بيانها الصادر سنة 1929 يحمل عنواناً طموحاً، هو «التمثّل العلمي للعالم»، وينحصر العلم، بالنسبة لها، في ملاحظة الظواهر وصياغتها في شكل قوانين يتمّ التوصل إليها من خلال الاستقراء.

انتقد آخرون من العلماء ما تمخضت عنه الحلقة، فنشر أحدهم كتاباً بعنوان «بنية الثورات العلمية» عارضاً فيه خطة لتدرج العلوم وتقدّمها، وهي في أساسها منقطعة، حسب المؤلف، وغير متّصلة، تقوم على مفهوم «الثورة العلمية» الذي يشمل الانتقال من نموذج تفكيري إلى آخر.

وفي العام 1975 ابرز عالم آخر، يمتاز بتكوين مزدوج، فهو فيزيائي ومسرحي ومن المهتمين بالتاريخ وفلسفة العلوم، كما قدّمه لنا الباحث والمترجم العربي الجزائري عبد الكريم بزاز [1]، ليعلن هذا العالم انتقاده بصورة جذرية لكل الاجراءات المنهجيّة التي سبقت إلى هذا الموضوع، مستقياً أفكاره من تاريخ العلوم الذي جعل منه أساس كل إبستيمولوجيا وقاعدتها، ومعلناً رأيه في أن إحدى مهام الإبستيمولوجيا تكمن في توضيح الطريقة التي يتقدمها بها العلم (هكذا يلتقي العلم والتاريخ)، كما يرفض التمييز المُقام عادة بين «فلسفة العلوم وتاريخ العلوم»، وعدّ أن «فلسفة العلوم بدون تاريخ العلوم فارغة»، كما أنّ «تاريخ العلوم بدون فلسفة العلوم أعمى».

هذه المهمة صعبة للغاية، حسب الباحث، لأنها تجبر المؤرخ على التنقّل داخل فكر الباحث ليستبطن دوافعه ومساره. وقد استعمل ذلك العالم، ككثير من الباحثين، منهج دراسة الحالة على الرغم من التحفظات الموجّهة تجاهه.

تاريخ العلوم، وفقاً لقراءة الباحث، لاعلاقة له بالتطوّر الخطيّ أو التراكمي، فهو بعيد عن السير الهادئ نحو الحقيقة، لأن تطوّره يحمل أشياء غير متوقّعة. فلا توجد نظرية ولا نموذج قادر أن يخبرنا حول التطور العلمي للعلوم، ونحن أمام فوضى منهجيّة كبيرة. ثم إنه ليس من منهج علميّ كونيّ «يجب أن تنطبق عليه كل أشكال المعرفة. والفكرة القائلة بأن العلم

يمكن وينبغي أن ينظم وفق قواعد ثابتة وكونية هي في حد ذاتها طوباويّة ومضرّة».

إنها مضرة ومجحفة خاصة بالنسبة للعلوم الاجتماعية التي غالباً ما تأتي لمحاكاة العلوم الفيزيائية بتفصيلها المظاهر الكمية وتوضيحها المنهج الاستقرائي، كما يخدش الفيزياء عندما تدّعي بأنها النموذج الذي لا يمكن الاستغناء عنه في المنهجيّة العلمية، ويرى أنها لا تفلت من الحركية الفوضوية.

وقد حاول الإبستيمولوجيون اختراع القواعد المنهجيّة، بينما نلاحظ أنه «لا توجد قاعدة واحدة، حتى وإن كانت معقولة ومستساغة ومؤسسة في الميدان الإبستيمولوجي، لم يتم خرقها أو مخالفتها في وقت أو آخر». وهذه المخالفات أو الاختراقات، وإن لم تكن عرضية وطارئة، هي في النهاية ضرورية للتقدم: «الأفكار يمكن أن تساهم في تقدّم معرفتنا، حتى وإن كانت قديمة وغير معقولة».

ولا يعتقد الباحث أن العقلانية وحدها هي التي تدفع العلماء وتحركهم. هناك عوامل خارجية تلعب، أحياناً، دوراً حاسماً: «المصالح والقوى وتقنيات الدعاية وغسل المخ تلعب دوراً أكبر مما نعتقد عموماً في تقدم وترقية معرفتنا وتطوير العلم».

ويتشاطر بعض العلماء الرأي من حيث أن اتّجاه العلم يحدده، قبل كل شيء، الخيالُ المبدع للإنسان وليس عالَم الظواهر. ولكي تنتصر فكرة ما، فلا ضرورة لرفض اللجوء إلى «وسائل غير عقلانية، كالدعاية والإحساس والفرضيات المضاعفة عند الحاجة والأحكام المسبقة مهما كانت صفتها». وباختصار يرى الباحث أن مقولة أحد العلماء التي تقرر أن «المبدأ الوحيد الذي لا يعيق التقدم هو: كل شيء مقبول». وعلى العلميّين ألا يحبسوا أنفسهم في قواعد تفرضها عليهم المنهجيّة، كما يجب الاحتراز من تأويل «كل شيء مقبول» في معناه الواسع، وبهذا يتم التمييز بين العلمي العاقل عن العلمي الذي يهذي؛ فالذي يريد أن يدلو بدلوه في الفيزياء لا بدّ أن يدرسها.

ويشير الباحث إلى أن الاختيار بين النظريات هو، في نهاية التحليل، ذاتي، لأنه يدخل الأحكام الجمالية والأحكام الميتافيزيقية المسبقة والانتماءات الدينية والرغبات الذاتية. ويرى أن هذا النوع من الصعوبة يعيد النظر في المقياس الدقيق بين العلم و اللاعلم. وهذا المقياس يمكن صياغته على هذا النحو «هو علمي كل ما يمكن أن نخضعه للتكذيب عن طريق الاختبارات».

وفي مجال (نقد العلم والعقلانية) يخبرنا الباحث بموقف أحد العلماء من

هذه المسألة، من حيث رأيه في أن «العلم هو سيرورة تاريخية معقّدة وغير متجانسة تحتوي على توقيعات غامضة وغير متّسقة لأيديولوجيات تتعايش مع أنساق فكريّة متقدمة جداً ومع أشكال من التفكير القديم والمتحجّر».

إلى جانب العلم ثمة مكان للأساطير والميتافيزيقيا والكثير من الوسائل الأخرى لبناء تصوّر حول العالم. فعندما نشاهد العالَم «لا يمكن سوى الانبهار أمام التنوع الثقافي الرائع». فالثقافة، حسب الباحث، تشمل «كل ما هو في حياة الأفراد ضمن شبكة من العلاقات»؛ وفي هذه الحال يستحيل إعطاؤها تعريفاً مجرّداً. ذلك أن بعضاً من التقاليد الثقافية ما زال باقياً منذ آلاف السنين، والتجزئة الثقافية يمكن أن تعطي شعوراً وإحساساً بوجود خليط يُؤسف له ويُحلَم بإزالته.

وثمة من يضع العلم بين التقاليد، فليس للعلم احتكار المعرفة، ولايمكن أن يتشدّق بأنه الوديع والحافظ الوحيد للمعلومات الصحيحة.ليس ثمة ما يجعل منه معياراً على كل ما يمكن وما لايمكن قبوله.

والتقاليد، كما هو حال الأفراد، لها حقوق بمعزل عن منفعتها وفائدتها. وإذا ما توجّب حماية العلم ووقايته من تجاوزات واختراقات تقاليد أخرى (دينية مثلاً)، فالتقاليد غير العلمية في حاجة كذلك إلى حماية من العلم الذي لا يعرف سوى إهانة الذين لا ينتمون إليه وإلى حاشيته.

إن الدور للخبراء من كل نوع هو كذلك تهديد للديمقراطية، وفقاً للباحث، وعلى العلم أن يكون متواضعاً، لا سيما أنه عنصر من عناصر الثقافة لا غير، خاصة عندما نتكلم عن العلم (في صيغة المفرد)، فهذا لا معنى له لأننا نجعل منه «وحشاً أحاديّاً». هذا يفترض كذلك أنه يمكن إقامة حدود واضحة بين العلم واللاّ علم، وهي مشكلة لا حلّ لها في الحقيقة حسبما يراها الباحث. وفي الواقع، فإن ميدان الطبيعة جزيء في عدد من المجموعات الفرعية، وهي مجموع لعلوم خصوصيّة كل منها له قواعده ونظرياته.العلميون أنفسهم هم الذين يحدّدون بصفة قسريّة الحدود لميادين بحثهم. فلا غرابة إذن أنّ سجلّ العلوم يعدّل منذ العهد اليوناني باستمرار لإنقاذ مفهوم العلوم الموحد، وقد لجأ بعض المفكرين إلى إعطائه تعريفاً موسّعاً، من حيث أن أحد العلماء يعرّف العلم بأنه «تكييف الأفكار مع الظواهر والأفكار فيما بينها».

ومن المعروف أن العقل الفلسفي عمل على تطوير التقديس المفرد لعامل التوحيد وكراهية عوامل التعدد، وكان

يسخر من تعدد الآلهة. وكان (هيراقليطس) قد ذكر أن ما هو «حكيم ومعقول هو واحد». والكثير من رجال العلم احتذوا بالفلاسفة في بحثهم عن الوحدة، إلا أن عدداً آخر منهم رفض أسطورة «الواحد» مثلما رفضوا فكرة «الموضوعية»؛ فهم يعلنون: إن القول بأنّ وجهة نظر «موضوعية» يعني أنّها مقبولة بمعزل عن الذات التي عبّرت عنها. ووجهة النظر هذه مستقلة عن انتظاراته وطموحاته وآماله. فكرة «الموضوعية» هي في الحقيقة سابقة؛ لظهور العلم، فالكثير من القبائل القديمة كانت تعتمد قوانين ثابتة وعليها الالتزام بها، وكل انحراف عنها يستوجب العقاب؛ والنزعة الموضوعية تعني أن كل الناس يعيشون في العالم نفسه. فإن كانت العقلانية تعني اتباع منهج معين نمنحه سلطة كونية فإننا، حسب الباحث، نرفع العقل إلى مستوى سلطة عليا في مستوى الإله نفسه.

يثور أحد العلماء على ما يسمّى بـ «إمبريالية العقل» التي مضمولها الوحيد هو المساهمة في الاتحاد العام المؤدي إلى الرتابة، كما يحتج على التجريد غير الموافق الذي يميز العالم الحديث، ويهدف إلى محو تعقيد الواقع المعقّد، أساساً، لصالح خطابات مجرّدة.

مهمة التفكير هي، في الحقيقة، فهم الحياة اليومية، وليس التيه في شكل «أرض بلا سيّد». ثم يرى الباحث أن العقل في النهاية يلتحق بكل هذه الوحوش المجرّدة: (الالتزام، الواجب، الأخلاق، الحقيقة، الآلهة) التي كانت توظف في السابق لإهانة الناس وتحديد نموهم السعيد والحر: «العقل ينقرض ويفلس.. وداعاً للعقل». فالإبستيمولوجيا المعاصرة، على الرغم من مأزقها وتناقضاتها، تصبّ في مسألة فلسفية قصوى، هي: ماذا يعني الفهم؟ ما هي مهام الفهم التي تواجهنا اليوم، وكيف يمكن أن يتم فصل هذه المهام المتنوعة فيما بينها بعيداً عن إمبرياليات الأمس؟.

❖ ❖ ❖

أفكار فنيّة

## مكانة الموسيقا وفلسفتها

تحتلّ الموسيقا مكانة رفيعة بين الفنون، بل تحتلّ الصدارة منها، بدليل هذا الكم الهائل من الأساطير والحكايات التي أنشئت لها، وبدليل تماهي الأزمنة بها من (سومر) في المشرق العربي القديم حتى يوم الناس هذا، وربما حتى مآلا نهاية من الأزمنة الآتية. ويبدو أنها ستظل متبوّئة هذه المكانة على الرغم مما قيل، ويقال، في تشابك الفنون وتعانقها حتى درجة التوحد. فقد كانت الأسطورة قد أضفت على

موسيقا (اورفيوس) - مثلاً- سحراً جعل الحيوانات وحتى الأشجار والصخور تتبعه حين يعزف (وهي فكرة يبدو أنها مستعارة من سومر حسب رأي الباحث العربي العراقي علي الشوك [2])، وجعلت بحّارة (أوديسيوس) يفقدون رشدهم أمام غناء السيرنيات Sirensكما جعلت الأطفال يتركون منازلهم ويتبعون عازف المزمار في (هاملن)، ودفعت الملك ريتشارد إلى الجنون في مسرحية شكسبير. وهي التي جعلت مؤرخاً موسوعيّاً مثل أبي الفرج الأصبهاني يحدّثنا عن كثير من المستمعين إلى الموسيقا والغناء يفقدون صوابهم على غرار ما جاء في الرسالة البغدادية لأبي حيان التوحيدي، من حيث قوله:«ثم ترى أبا عبيد المرزباني (كان مؤرخاً وأديباً)، وقد سمع هذا الغناء، فتمرَّغ في التراب، وهاج، وأزبد، ونَعَر، واستعر، وعضّ بنانه، وركل برجليه، ولطم وجهه ألف لطمة في ساعة، وخرج... كأنه عبد الرزاق المجنون بباب الطاق». وعلى ما في هذا الكلام من إفراط في المبالغة إلاّ أن ما يجري في الاستماع من نشوة تقود إلى الخروج عن حدود الوقار أحياناً صحيحة، ولطالما يشاهد عصرنا الراهن أمثالها.

ثم إن الموسيقا جعلت كاتباً كبيراً مثل (بلزاك) يعترف بأنها فن استثنائي:«الموسيقا وحدها لها القدرة على أن تتغلغل في أعماقنا، أمّا بقية الفنون فلا تقدم لنا سوى مسرّات عابرة». وإذن فما الذي يجعل الموسيقا دون غيرها من الفنون تحرّك هذه المشاعر عند البشر؟

سؤال يطرحه الباحث، وغداة إجابته عنه يرى أن الموسيقا، في دلاليّتها، وفي تعبيريّتها العجماء، تتفوّق على اللغة فيما توصله إلى المتلقي. وعلى ذلك تتسامى أكثر من اللغة. فمنذ القرن التاسع عشر نظر إلى الفرق بين الموسيقا واللغة كمؤشّر على أن ممارسة الموسيقا، أو بكلمة أدق، إبداع «المؤلفات الموسيقية المتميّزة» هو وسيلة للتسامي. ويرى الباحث أن هذا الرأي كان في البدء صادراً عن النزعة إلى الاستعاضة الحرفيّة عن الدين بالموسيقا. ويذكر الباحث أن الناقد الألماني «اللامع كارل دالهاوز» أشار إلى هذه المسألة بقوله: «لئن كانت الموسيقا، في إطارها الكنسي، قد شاركت الدين في إيمانه بـ «الكلمة»، فهي الآن، كموسيقا مستقلة بذاتها قادرة على التعبير عمّا «لا يعبَّر عنه». أصبحت ديناً بحدّ ذاتها». ومع ذلك فإن الباحث يعلق على مقولة هذا الناقد بقوله: «لا شك أن هذه تبقى نظرة تبسيطيّة، أو في إطار نخبوي محدود، لأن الدين لا يمكن أن تعوّض عنه الموسيقا». إلاّ أن الباحث يقول أيضاً بلا نسيان دور الموسيقا في عبادات البشر، منذ معابد سومر وبابل ومصر وحتى الكنائس، مما دعا باحثاً أنثروبولوجيّاً مرموقاً مثل جيمس فريزر إلى القول: «إن تأثير الموسيقا على تطور

المعتقدات الدينية موضوع جدير بأن يخضع إلى دراسة جادة». وذهب سيريل سكوت إلى أبعد من ذلك، حيث اعتقد بأن للموسيقا تأثيراً على البشر أقوى من تأثير الدين؛ ولعله يبالغ هنا، حسب رأي الباحث، بحكم كونه موسيقياً. وهذا أبو حامد الغزالي المعروف بزهده وتصوفه وبأنه حجة الإسلام يذكر، دون حساسية أو وجل، مدى تأثير الغناء والموسيقا على البشر، لأنهما: «أشدّ تهييجاً للوجد» من أي شيء آخر، بما في ذلك الكلام الديني، ويذكر الغزالي سبعة أوجه لهذا التأثير يبثها في صلب كتابه الشهير «إحياء علوم الدين». ويرى الباحث أن أحاديث فقهاء الإسلام حول تحريم الغناء وإباحته ليس سوى اعتراف ضمني بقوّة تأثيره على البشر.

ثم إن الطريقة «الطقوسيّة» التي تُؤَدّى فيها الموسيقا في الغرب تؤكد، كما يراها الباحث، على ما لها من مكانة في النفوس. فدخول صالة (الكونسرت) أو دار (الأوبرا) هو أشبه بدخول كاتدرائية أو محراب؛ حيث يدخل المرء، هنا، عالماً آخر يختلف في كل شيء عن الخارج، أو الحياة في الخارج. وفي هذا المكان سيجد المرء نفسه في حرم، أو معتزل، أو معتكف، يخضع إلى آداب خاصة: الالتزام بالصمت، والسكون عندما يبدأ الأداء الموسيقي، ومراعاة الكف عن التصفيق بين الحركات، كما أن العازفين أو المغنين لهم طقوسهم أيضاً.

وهذا يقود إلى طريقة التعامل مع الموسيقا والاستماع إليها، فحين يُعزف (موتسارت) في المصانع، أو أسواق البيع، أو قاعات الانتظار في المطارات، فنادراً ما تُسمع كموسيقا؛ ذلك أن الموسيقا الكلاسيكية تفتقد سحرها، حسب بعض النقاد، حين تسمع خلفيّة. وبالفعل يظهر عدم الارتياح لدى المتلقي حين يسمع موتسارت في السوبر ماركت مثلاً، لأن في هذا إهانة أو خيانة لهذا الموسيقي بالذات، الذي يتوجب على المتلقي عنه الانتباه والتفرّغ لموسيقاه وليس مجرّد السماع، وهذا يعني أن المحيط يقلّل من قيمة الموسيقا حين يكون غير مناسب لها.

لكن هذا يخضع، كما يراه الباحث، إلى عوامل شتى: «إثنيّة، واجتماعية، وثقافية، وشخصية». فالمستمع في الغرب قد يفضّل موسيقا «الرّوك» – أو مابعدها – أو قد يكون مولعاً بفاغنر، أو قد يفضل الجاز، أو الكلاسيكية الخفيفة وأمّا عربياً، على مدى الوطن العربي، فلا يزال معظم المستمعين يستخفهم الطرب بأغاني المدينة، وبعضهم بأغاني الريف، أو بأغاني «المقام العراقي» -مثلاً- وهذا كلّه يخضع إلى التنشئة الحضارية والاجتماعية، وتعوّد الأذن على سلالم موسيقيّة معيّنة. ويذكر الباحث أنه حاول حث شاعرة عراقية على أن تجرّب الإصغاء إلى الموسيقا الكلاسيكية الغربية، فاعتذرت بإصرار،

بدعــوى أنهــا لا تجــدهـا ســائـغـة، ولا تستطيع احتمالها.

والموسيقا في كافة الأحوال تظلّ شيئاً لا يُستغنى عنه تقريباً، عند البشر. ولعلّ هذا يذكّر بما كان قد قاله من حيث أن الحياة بلا موسيقا غلطة. وفي كتابه «لغة الموسيقا» الذي اعترف الباحث بأنه شـعـر أنّ هذا الكتاب من أهم مصـادره البحثية، نقول: في هذا الكتاب يؤكد مؤلفه ديريل كوك أن إنكار المحتوى في الموسيقا والإقرار بالجانب الشكلي فقط يُعدّ إفقاراً لهذا الفن الغني في قدراته التعبيرية، ويحرمنا من إمكانية فهم تجربتنا الإنسانية من خلال الموسيقا. وإذا تعيّن على الإنسان أن يحقّق الرسالة التي أخذ على عاتقه القيام بها مُذ بدأ يتفلسف- على نحو ما أكّد عليه الشعار الإغريقي «اعرف نفسك» - فقد تأتّى عليه أن يسبر غور نفسه اللاّواعية؛ والموسيقا هي أفصح لغة للتعبير عن اللاوعي.

وينهي كوك كتابه المذكور - أي لغة الموسيقا - بهذه الكلمات«قد يتأتى على علم النفس أن يتعــاون مع الفلسـفـة والميتافيزيقا قبل أن تميط اللغة الموسيقية اللثام عن أعماق أسرارها».

بيد أن مفهوم الموسيقا الرفيعة، حسب الباحث، لا ينفصل عن فلسفة الموسيقا. بمعنى أنه مرتبط بفهمنا لجوهر الموسيقا: هل هي فنّ مجرّد أم ينطوي على أبعاد تعبيريّة؟ ثم أية موسيقا نقصد؟ فإذا كـان لكـل إنســان موســيقاه الخاصّة، أو المفضّلة، فلكلٍّ موسيقاهُ «الرفيعة» أيضاً. بمعنى أنّ مفهوم الموسيقا الرفيعة ليس ثابتاً أو «فرمان» من باب علل. فقد يُفترض وجود بُعد ميتافيزيقي فيها، أو تقني رفيع، أو كليهما، أو تعبيري.

وإذا كان مفهوم الموسيقا الرفيعة، أو العميقة Profound music ينطوي على بعد ميتافيزيقي لدى (شو بنهاور) في قوله: «لدى فهم الموسيقا نفهم أعمق أعماق العالم؛ أي أن الموسيقا يمكن أن تكون مصدراً للمعرفة الميتافيزيقية»، فإن هذا المفهوم يأتي من منطلق تقني عند معظم الباحثين الموسيقيين.

وفي توصيفه للآلات الموسيقية ومعطياتها التعبيرية يذكر أحد الاختصاصيين أن الوتريات تورث تعبيراً عاطفياً حاراً، والفلوت (الناي) و (الأوبو) يوصفان بأنهما رعويان، والباسون بأنه يتّسم بالتشكي والهزل، والترومبيت بأنه بطولي، أي يعطي انطبــاعــاً بالبطولة، والتــروبون بأنه وقــور ويصلح الأورغن بأنغامه المعزّزة الجليلة وبتماوج أصواته آلة لأماكن العبادة. أمّا الهاريسيكورد (آلة أقدم من البيانو)، بأصواته المعدنية، فعلى العكس من الأورغن، يوحي بالخــفّــة والمرح

والدعابة. وتنسجم سايكولوجية القرن الثامن عشر المتّسمة بروح الدعابة والسخرية الحادّة التي كان (فولتير) خير معبّر عنها، مع موسيقا الهاريسيكورد تماماً. وإذا كانت الموسيقا البوليفونية (أي متعددة الأصوات) تحاور الذهن وتحرّكه، فإن غمز أوتار الهاريسيكورد – وأمثاله من الآلات المفاتيحية ذات الأوتار المعدنية – يخلق، إلى جانب ذلك، جوّاً انفعالياً، وواضحاً، وواخزاً.

ثم يذكر الباحث إعجابه بالموسيقا العربية في إطار الموسيقا الشرقية ولا سيّما «المقام العراقي» حيث لفت انتباهه وجود بوليفونية في غناء الذكر الديني- بمعنى تعدد الخطوط اللحنية في آن واحد- وفي موسيقا الموالد النبويّة. إلا أن الباحث يؤكد عدم خبرته بتقنيات المقام، وعدم متابعته فنون الغناء العربي الجاد.

ثم يذكر الباحث أن ثمة سبع نوطات أساسية في السلّم الموسيقي الغربي، هي: (دو، ري، مي، فا، صول، لا، سي). ويشير إلى أن علماء الموسيقى في الغرب يؤكدون على أنّ إرثهم الموسيقي، بما في ذلك عدد النوطات في السلّم، انحدر إليهم من اليونان. لكن القبائل اليونانية شبه الرعويّة التي جاءت الى اليونان من موطن الأقوام الهندية الأوربيّة، ربما طريق شمال اليونان أو الأناضول، لم تكن لديها حضارة تُذكر في بادئ أمرها. فاستعارت الكثير من حضارات شرقي البحر المتوسط، أي منطقة الهلال الخصيب ووادي النيل، بما في ذلك بعض الآلات الموسيقية، كالقيثارة والآلات الهوائية، والنظرية الموسيقية. فقد كان السلم الموسيقي البابلي معروفاً في المنطقة، وكذلك العلاقات الهارمونية بين الأصوات، لا سيما العلاقات المتآلفة بين النوطة الأولى، والخامسة، والرابعة، والثامنة – أي الجواب octave ولعلّ جذور السلّم السباعي البابلي تعود إلى أصول فلكية، وإلى الأسبوع البابلي، وهو نصف عدة أيام القمر عند اكتماله بدراً؛ فضلاً عن أنّ هذا العدد يساوي مجموع عدد الكواكب الخمسة المعروفة في أيام البابليين، وهي: عطارد، والزهرة، والمريخ، والمشتري، وزحل، إلى جانب الشمس والقمر. أما الأرض فكانت المركز.

وإذا كان الشرق فضل تجزئة المسافات بين النوطات، وجعلها أصغر مما هي في الغرب (عندنا، مثلاً، /17/ نوطة في السلم الشرقي، في حين هناك /12/نوطة في السلم الغربي)؛ بمعنى أن موسيقانا، حسب الباحث، نحت منحى لحنيّاً أفقيّاً أكثر منه هارمونياً- عمودياً- كما في الموسيقا الغربية، فقد عرفنا التأليف، أو الهارموني أيضاً، في وقت كان أسبق من الغرب، لكن دون أن نطوّره. ففي رسالة للفيلسوف العربي (الكندي) الذي

توفي حوالي سنة 847، لهذا الفيلسوف رسالة بعنوان: «رسالة في النغم على طبائع الأشخاص» - طبعاً اختصرنا العنوان لطوله- يصف في هذه الرسالة نوعين من حركات الريشة والأصابع لدى العازف: أحدهما يتم بضرب نوطتين في وقت معاً «بحركة واحدة» والآخر بضرب ثلاث نوطات بصورة متعاقبة بـ «ثلاث حركات».

وفي الغرب ترجع أهمّية المركب الصوتي الثلاثي الكبير إلى أنه مركّب موسيقي طبيعي. ذلك أن فوق أية نوطة أساسية، أو نغمة أساسيّة، بتعبير مرادف، هناك نغمات أخرى، تدعى- حسب الباحث- أنغاماً توافقية. أي أن أية نغمة عند ذبذبتها، بالعزف عليها، نحس أجزاء معينة من هذه النغمة تتذبذب معها في الآن ذاته. والأنغام التوافقية، الثلاثة أو الأربعة الأولى يمكن أن تسمعها الأذن الحسّاسة؛ وهذه هي نغمة الجواب، والخامسة، والجواب التالي، والثالثة التالية له. وهذه كلها تتردّد عمودياً فوق النغمة الأساسية. وتقدم لنا هذه الظاهرة أول دليل على وجود الهارموني (التآلف) في الطبيعة؛ وفقاً لما يقرره أحد العلماء في هذا الفن.

ثم يخلص الباحث إلى أن السلّمين «الكبير/الصغير» في الموسيقا الغربية يعادلان، في الإطار العريض «المسرّة/الألم» وأنّ درجة السرعة في الأداء (tempo) تعبّر عن درجة الحيوية، وأنّ حجم الصوت يعبّر عن درجة التشديد العاطفي، وأن إعادة ترتيب «السلّم الكبير/السلّم الصغير»، و«الأعلى/الأسفل»، و «السريع/البطيء»، والعالي/المنخفض» يعطينا ستة عشر ضرباً من المضامين الأساسية، ويمكن التوسّع أكثر في ذلك إذا ما أخذنا بعين النظر المشاعر الغامضة الناجمة عن التلاعب بالسلّمين الكبير والصغير، والتفنّن بالإيقاع وطريقة أداء العبارات الموسيقية.

❖ ❖ ❖

**دراسة**

## الهويّة القوميّة تتشكل تاريخيّاً

الباحث والمفكر العربي اللبناني د. نديم البيطار قدّم الكثير من المؤلفات في موضوعات شديدة الإلحاح لدى الإنسان العربي: وقد كان من هذه المؤلفات: من الحقيقة الانسانية إلى الحقيقة الانقلابية، نحو الإرتباط بمصير الناصرية أو طريق الوحدة العربيّة، النظرية الاقتصادية والطريق إلى الوحدة العربية، من التجزئة إلى الوحدة، هل يمكن الاحتكام إلى الولايات المتحدة الأمريكية في النزاع العربي الإسرائيلي... وغيرها وغيرها. وها هو يضع بين أيدينا الآن الطبعة الجديدة من كتابه الموسوم بـ «حدود الهوية القومية» نقد عام (3)، حيث يبدأ أولى

خطوات الدراسة التي احتواها هذا المؤلف باسئلة كثيرة، منها: هل هناك هوية قومية؟.. أين نجدها؟.. كيف يمكن تحديدها وإدراكها؟.. ما علاقة التحديدات بالمنهج العلمي؟.. هل يمكن لها أن تكون علمية؟.. هل هناك حقّاً هوية نفسية/ عقلية جماعية ذات تركيب ثابت يفرض ذاته على شتى جوانبه الثقافية القومية ويكوّنها في صورته.. هل تمكن الملاحظة الموضوعية لأية هوية قوميّة جماعية، أم هي فقط صورة ذهنية في عقل الباحث فقط؟.. هل تتشكل هوية أي شعب أو أمّة كلاً منسجماً أم هي تنطوي على تناقضات لا يمكن لأي مركّب أعلى أن يقدّم حلاً لها أو يتجاوزها؟.. ثم ما هي علاقة ذلك بالمستقبل العربي كمستقبل وحدوي يجد ضرورته الأولى في دولة الوحدة؟.

هذه الأسئلة، على كثرتها، تظلّ غيضاً من فيض في بحوث د. البيطار المسكون بالهم القومي، والباحث بدأب عن خلاص لما آل إليه الشأن العربي؛ هذا الخلاص يتمثل في النضال العنيد على الصعد كافة بغية تحقيق الوحدة العربية. وإذا كنا في العدد السابق من «المعرفة»، وفي هذه النافذة منها تحديداً قد ألمحنا إلى إصداره الجديد الموسوم بـ «المثقفون والثورة/ ظاهرة الأنتليجنسيا»، فإن وقوفنا الآن مع عطائه هذا «حدود الهوية القومية» قد يفيد في لفت الانتباه إلى ضرورة الإلحاح على الهوية القومية، والموضات الغازية التي تنهال علينا تباعاً من العولمة إلى الشرق أوسطية إلى الإقرار بالوجود الاستيطاني القهري أمريكيّاً ويهودانياً!! والسعي إلى الاعتراف به، والتطبيع معه من ثم !!!

فقد حاول البيطار في دراسته هذه أو بحثه هذا التوكيد على أهمية النضال نحو تجديد جذري للحياة العربية وبناء إنسان عربيّ جديد، ذلك أن الكيفيّة التي نحدّد بها هويتنا تمارس دوراً أساسيّاً في هذا النضال، كما يراها الباحث، وفي الاتجاه الذي يتبلور فيه. لهذا رأى أنه من الضروري تحقيق وعي علمي في دراسة هذا الموضوع كي نتجنّب الانحرافات والمآسي التي تترتب على تحديد غير علمي. فهذه المسألة تقلق الباحث من حيث انها تمثّل مرتبة أساسية في نضالنا هذا، لأن جميع جوانبه تتأثر، كما يراها الباحث، بالكيفية التي نحدّد بها شخصيتنا القومية. يقول: «إننا نستطيع، في الواقع، أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول: إن هيمنة تحديد اعتباطي قد يدمّر المستقبل العربي ذاته من حيث التجديد الجذري الواعي الذي نرغب فيه».

ويرى الباحث أن مفهوم الهوية القومية منتشر جداً في كثير من أعمال المؤرخين والأدباء وعلماء الاجتماع،

والأنتروبولوجيا والسيكولوجيا و.. أي الذين ينشغلون بدراسة السلوك الإنساني في أي شكل من أشكاله". مثلما يرى، قلباً وبصراً، أن الأمة العربية تمرّ بما يمكن تسميته بـ «أزمة الهوية» نظراً لأنها تمرّ الآن بمرحلة انتقالية بين التقليد والتجديد. والإدراك الموضوعي العلمي لأية ظاهرة تقع بأي شكل في نطاق السيطرة الإنسانية يعني إمكان توسيع هذه السيطرة وتحسينها.

وإذ يناقش الباحث موضوعة الهوية القومية بين المفهوم الميتافيزيقي والمفهوم السوسيولوجي، ويبحث في نقد مفهوم الهوية القومية عبر التجربة الأوروبية، ويتوقف مع الاستشراق وموقفه من الهوية القومية، ويسهب في ملاحقة المستشرق (جيب) في ميزان العقل العربي، ويبحث في معطيات التفاسير التي يراها غير علمية لمفهوم الهوية القومية، ويتوقف عند التفسير العلمي لهذا المفهوم. يتوصل إلى أن المفهوم الميتافيزيقي للهوية القومية كان يهيمن على الفكر العربي، وقد كان هذا الفكر لا يعرف، في معظمه، سوى الأشكال والمنطلقات الميتافيزيقية والأخلاقية. وبعض هذه الأشكال حاولت تحديد الهوية العربية الميتافيزيقية، وقد لمس الباحث هذا الأمر لدى عبد اللطيف شرارة في كتابه الموسوم بـ «روح العروبة»، ولدى سنية حمادة في كتابها الصادر بالإنكليزية بما ترجمته «هوية ومزاج العرب». ثم يذكر بعض من حاول تكريس الإقليمية من الكتاب والمفكرين العرب. وهو يرى عدم المبالغة في القول «إنّ شيوع هذا الفكر كان ولا يزال من أهم الأسباب التي تعثر النضال العربي الثوري، وتؤدي إلى هزيمته أمام التحدّيات الكبرى التي تواجهنا».

ثم إن أشكال الضعف التي لازمت العمل الوحدوي كانت كثيرة، وكان المفهوم الذي يلازم هذا العمل حول الانتقال من دولة الوحدة، أي الانتقال من حالة تجزئة إلى حالة وحدة كان من أهم هذه الأشكال، كما يقرر الباحث، من حيث أنه كان مفهوماً ميتافيزيقياً يرى في الوحدة نتيجة حتمية لوجودنا كأمة.

ويرى الباحث أن جميع المفكرين الوحدويين -باستثناء عصمت سيف الدولة- كانوا يتكلمون صراحة عن هذه الحتميّة؛ وقد ضرب الباحث أمثلة من كتابات خيري حماد وزكي الأرسوزي من حيث أنها ترى في «اللغة» تعبيراً عن «الروح» القومي الذي يميّزها. ثم بين ما يسميه بـ «المغالطة العلمية» التي ينطوي عليها مثل هذا المفهوم، مستنداً بذلك على ما كان لدى الإيطاليين من منطلق يشير إلى أن اللغة الإيطالية هي «البلوطة أو البذرة» التي نمت منها القومية الإيطالية، مستغرباً هذا المنطلق الذي أوحى به كثير من المفكرين الإيطاليين،

بدليل أن هذه اللغة كانت من «خلق رجل واحد، دانته اليغياري، الذي لم يستخدمها في الواقع، في كتابه (الكوميديا الإلهية)، بل استخدم اللسان العام، لغة الشعب». وذكر الباحث أيضاً أن المفكر الإيطالي (بارزيني) كتب مرة بأنه لوحدث أقتراع عام في القرن التاسع عشر حول توحيد إيطاليا، لما كان بإمكان الوحدويين الإيطاليين نيل أكثر من خمسة بالمائة، فمنذ مئة عام فقط كانت اللغة الإيطالية (التي نسمعها في كل مكان من إيطاليا حالياً) لغة مصطنعة، مثل لغة الأرس، اللغة الغالية الإرلندية. وقال: بعض مؤسسي وحدة إيطاليا لا يعرفون اللغة الإيطالية ولا يستطيعون التحدث فيها. ورأى أن اللغات لا تصنع التاريخ القومي، بل التاريخ «القومي» هو الذي صنع هذه اللغات؛ فالمجتمعات التي كانت تشعر بهوية واحدة كانت في الواقع تخلق لغة خاصة بها إن لم تجد لغة متوفّرة لها، وذلك كي تعبّر عن «هويتها»...

وذكر الباحث أن احتلال فلسطين يعود، طبعاً، لأسباب كثيرة. إلا أن الباحث لا يرى نفسه مبالغاً عندما قرّر أن أحد هذه الأسباب كان انطلاق النضال العربي من هذا المفهوم الميتافيزيقي الأسطوري الذي أعطى لليهودي آنذاك «ماهية» الجبانة وبالتالي العجز عن القتال، بينما أعطى العرب «ماهية» البطولة، فكان أن استهتر به وبخطره. إنه رأى الصراع بين هاتين الماهيتين، بصرف النظر عن الأوضاع التاريخية والحضارية التي تحيط بهما.

هذا كان أحد الأسباب التي أدّت، حسب الباحث، إلى العجز عن تعبئة ما يتوفّر من طاقات وموارد تعبئة جديّة في درء هذا الخطر قبل أن يستفحل أمره. فاليهودي خضع، تاريخيّاً، للذل، وقد سيق جماعيّاً إلى القتل من دون تمرّد أو عصيان، فأعطاه المفهوم العربي الصراعي، آنذاك وبشكل عضوي، مفهوم «الجبانة» كخاصة متأصّلة فيه، ورأى بالتالي أنه لا يستطيع مقاومة العرب ذوي «الماهية» البطولية التي دلّت على ذاتها في الفتوحات العربية.. هذا الفكر، حسب الباحث، لم ير أن البسالة والجبانة تنتجان عن علاقة الإنسان بأوضاع التاريخ المتحوّل، وتتغيران معها سلباً أو إيجاباً، أن ليس هناك من شعوب ذات ماهية جبانة أو شجاعة.

وفي توصيفه لمعركة تحرير فلسطين يؤكد على المنطلق الوحدوي في إطار المقاومة المسلحة، والإصرار على تعثير الاحتلال، والإبقاء على فكرة التحرير حيّة مشتعلة مهما طالت المعركة.

❖ ❖ ❖

## إصدارات جديدة

### عشيات الحمى

ليـس مـن شـك فـي أن الإبـداع لا يموت، بل إنه ليظل ماثلاً عبر العصور، تتناقله الأجيال كابراً عن كابر، وسيظل يراه غيرنا كذلك على شكل متوالية لا نهاية لها.

هذا مـا نراه متحـقـقـاً على أرض الواقع، إمـا عـن طريق الاستلهـام، وإمّـا بواسطة المحاكاة. ولقد كان من هذا الإبداع المحرّض على الإستلهام تلك النفثة الحرّى التي سفحها (دريد بن الصّمّة القشيري) في عـينيـته الخـالدة، فتـغنّى بهـا المغنون وردّدها المحبون واقتبس عنها اللاحقون من الشـعـراء، بهـذا القـدر أو ذاك، ولم يكن آخرها، ولن يكون، ما اقتبسه الشاعر العربي السعودي خالد الخنين من تلك العينيّة القشيرية ليجعل من مقبوسه عنها عنواناً لديوانه الأحدث (٤).

الشـاعـر الخنين باحث أيضاً؛ فقـد لاحق (نجد) في الشعر مبيّناً مفاتن هذا المكان وفقـاً للصور التي انحدرت عنه من قـرائح الشـعـراء. ثم إننا كنّا قـد قـرأنا لشـاعـرنا هذا ديواناً أسبق حـمل عنوان «الرياض» وأردفه بصفة «العشق الأول». وإذا كان هذا المكان «الرياض» يمثّل العشق الأول لدى شاعرنا الخنين، فما من شك أن أمكنة أخرى ستقدّم له عشقها، ربما الثاني أو الثالث. وهذا يعني أن «الرياض» -مكاناً ورمـزاً- سـيظل الأول الذي لاحبّ إلاّ له، حسب تعبير جدّه الشاعر العربي الأقدم!

بيد أن العشق في فقه اللغة اسم لما فصل عن المقدار الذي اسمه الحب. لهذا سيتوزّع هذا المقدار على مساحة كل أنملة من بقـاع الوطن العـربي الكبـيـر. وهاهي «عـشـيـات الحـمى» تصـيـر مكاناً وزمـاناً وإنساناً معاً في عطائه الشعري الجديد.

«وليست عشيات الحمى برواجع
إليك، ولكن خلّ عينيك تدمعا»

بهـذا خاطب القـشـيـري نفسـه، وبه جعلنا نخاطب أنفسنا لكن الخنين يخاطبنا في عـشـيـاته بصورة مغـايرة، يعـرض لنا إيمانه بالحصول الحتمي على الحق العربي المغـتـصب، ويوصّف عن دراية كـيف يكون ذلك؛ والخنين شـاعـر وليس باسـتـراتيـجي ولهـذا كـان يتكلم كـلام المواطن العـربي، العفوي، الصادق؛ مثلما وجدناه يتكلم بكلام الابن البـار بوالديه، ولاسـيـمـا الأم حين فاجأته برحيلها.

واللافت بحق أنّ شـاعـرنا، رغم لاقطريته، بل رغم وحدويته يرى في أمه كلّ خصوصيات المكان، ولعل من أبرزها الخبـز الخـاص جداً بمدينة (الدلم) مسقط رأس الشاعر، هذا الخبز الذي قد لا يختلف عن غيره من حيث مواده كافة، لكنه يكتسب

خصوصيّته النوعيّة لدى الشاعر لأنه خرج من بين يـــدي الأم، طــحناً، وعــجناً، وخبزاً. يقول:

يا خبز أمي..

أيها الأشهى على الفوائد من العسل
/ص73

واللافت أكثر أنّ الشاعر يستغيث بهذا الخبز، يخاطبه، يناجيه، ويجعل أرغفته مفردة حارة أمامنا، فتسكب رائحته الشهّاء في عُصيْباتنا، موكدة محليّة هذا الخبز وتفرّده، دونما حاجة إلى كثير، أو قليل، من الشرح والتفصيل.

يا خبز أمي ما أشهاك من عبق
تكادُ نكهته في الحيّ تنتشر /ص111

ثم إنّك لتقرأ القصيدة، فترى أنّك تقرأ غزالاً مصفّىً كالعسل، بفتاة لها خصوصية خبز الأم، إلاّ أنّك ستدرك مع آخر بيت فيها أنّك مغمورٌ في نفحة وجد بإحدى مدن الوطن العربي، لا بفتاة، وستجد ارتباط تلك المدينة بشغاف قلب الشاعر، بقوة لا تقلّ وجداً عمّا كتبه شاعرنا ذاته بمدينته الأثيرة الرياض.

دليلنا على حكمنا هذا ماثل في هذه القصيدة التي نستأذن في نشرها هنا عن ديوان (عشيات الحمى) بعنوان:

أغنّي لعصفورة الدار

أأنت أم حلمٌ للشوق يحملني
إليك، أم ألقٌ زاهٍ يؤرّقني

مَدَدْتِ صوتَكِ في الأعماقِ أغنيةً
وطافَ ظلّك بين الروح والبدنِ

أنتِ البحارُ بحارٌ لا حدود لها
فللضفافِ أغانٍ والهوى سُفُني

عُصفورةَ الدارِ؟.. إنّ الدارَ تسألني
والآهُ تجرَحُ، والأشواقُ تغمُرُني

أنتِ البلادُ، وأنتِ الذّكرياتُ فما
طاقَ الفؤادُ بعاداً عن ثرى وطني

ضُمّي جدائلكِ السمراءَ إنّ بها
من روعة الحسن ما قد كاد يقتُلُني

لُمّي عن الشفتين الهمسَ إنّ به
ناراً تؤجّجني عشقاً وتحرقني

أطوف أسألُ عنكِ الأرضَ في وَلَهٍ
علّي أريحُ خُطاً ضاقَتْ على وَهَنٍ

تَعِبْتُ، أتعبَني التّرحالُ ياقمري
أطوفُ، أرحَلُ من بيدٍ إلى مُدُنٍ

عصفورةَ الدارِ يا أنفاسَ زَنْبقةٍ

يا وردةً في رحاب البيت تنفحني
ميّادةَ الحسن يا نبعاً ألوذ به
لوذ الحمائم بين الغصن والفنن

إنّي لأعشق في عينيكِ دفأهما
وما نسيتُ هواكِ الحلوَ في زمني
انت الحياةُ جمالٌ رائعٌ دَنِفٌ
والشّعر انتِ، وطيبُ العيش في سكَني
عيناكِ جنّةُ ايّامي وبهجتُها
فيها الحياةُ ومنها لذّةُ الوسَنِ

هي السعادةُ أن نمضي الزّمان معاً
وذا خيالكِ سِحْرٌ لا يفارقني

تمرُّ نظرتُك الولهى على عجلٍ
كما يمرُّ نسيمُ الفجرِ يوقظني
اقولُ ايُّ جمالٍ في العيون بدا
كالطيف يعبُرُ في قلبي فيأسِرُني
إنيْ عشقتك عبر الدهرِ فاتنتي
ومن شفاهكِ خمرُ الراحِ يُسْكرني
يا شامُ ما خفقَتْ في القلب خافقةٌ
إلاّ وكنتِ بها من رقّةٍ شجني



إحالات

1- كتابات معاصرة / ع 45/ 2001 بيروت /لبنان
2- مجلة الكرمل /ع 67/ رام الله/ فلسطين .
3- بيسان للنشر والتوزيع /ط2 / 2002 بيروت. لبنان.
4- النداء للنشر والتوزيع / ط1/1422هـ - 2002 م.
بيروت. لبنان.

# آفاق المعرفة

230

## نافذة على الثقافة العالمية

وفيـق يوسـف ❖



### دون كيشوت يتربع على عرش الرواية العالمية

في استطلاع للراي أجراه نادي الكتاب النروجي، تم خلاله استبيان آراء مئة كاتب عالمي شهير ينتمون لأربع وخمسين دولة، لاختيارأهم الكتّاب وأهم الكتب في تاريخ الثقافة العالمية، حصل إجماع على عدّ رواية (دون كيشوت) للكاتب الإسباني الكبير (ميغيل دي سيرفانتس)، أعظم رواية في العالم. و هي الروايةالتي عدّها النقاد بداية للرواية الأوروبية الحديثة، متقدمة بذلك على إنجازات عمالقة الأدب الأوروبي، أمثال شكسبير وهوميروس

(❖) وفيق يوسف: أديب وروائي من سورية. صدر له مؤخراً رواية تحت عنوان «المطعون بشرفهم». حائز على جائزة الابداع الأدبي في الشارقة.

ومن الكتّاب الذين شاركوا في الاستطلاع كارلوس فونيتيس، ميلان كونديرا، نورمان ميللر، نادين غورديمير، جون إيرفنج، سلمان رشدي... وغيرهم.

وكانت لفتة طيبة من أولئك الكتاب الكبار، أن أدرجوا في قائمتهم «الذهبية» عملين روائيين عربيين معاصرين هما (أولاد حارتنا) لنجيب محفوظ، و(موسم الهجرة إلى الشمال) للطيب صالح. كما تمّ إدراج العمل التراثي الخالد (ألف ليلة وليلة) ضمن القائمة.

وكان للأدب المكتوب بالإنكليزية النصيب الأوفر في القائمة إياها، إذ حصل على (٢٥) مركزًا. وحصلت انكلترا على المركز الأول بإدراج (١٢) من كتابها ضمن القائمة، تلتها الولايات المتحدة بثمانية مراكز.

وجاء الأدب الفرنسي في المركز الثاني بعشرة أدباء. وحصلت إسبانيا وإيطاليا على ست مراكز لكل منهما، تلتهما روسيا وألمانيا بخمسة كتب. ثم الأدب اليوناني والبرتغالي بثلاثة كتب، واليابان باثنين[1].

هذا عن الجانب المشرق، أو نصف الكأس الملآن. أما على المقلب الآخر، فثمة ملاحظات تحضر بقوة على تلك القائمة، أبرزها غياب التراث العربي. وكما يقول الكاتب الإيراني أمير طاهري:

(يبدو أن اللجنة كانت أكثر جهلاً بكلاسيكيات الشعر العربي العظيمة، تمامًا كما لم تعلم شيئًا عن نثر «النفّري» الذي يعدّ أنموذجًا لأرقى ما يمكن أن يقدمه أي أدب في العالم)[2].

وبالمناسبة، فإن الأدب الكلاسيكي الفارسي نجح في اختراق هذه القائمة بعملين اثنين هما: (مثنوي) لجلال الدين الرومي (وهي الملحمة الشهيرة ذات الـ ٣٣ ألف بيت)، و(البستان) لسعدي الشيرازي. فيما غاب الأدب الفارسي المعاصر عن القائمة.

ومن الملاحظات الأخرى أيضًا اختيار اللجنة لـ (سفر أيوب) من التوراة وعدّه من التراث الأدبي العبري؟! كما اختيرت الملحمة الآشورية (جلجامش) دون ذكر للعراق(؟!) الذي استبدل بتعبير (بلاد ما بين النهرين)!!

أما عن أبرز الأعمال المختارة من الأدب الأوروبي، فهناك (جاك المشؤوم وسيده) لدنيس ديدرو، و(ديكاميرون) لبوكاتشيو، و(كتاب القلق) لفرناندو بسوا، و(زوربا) لكازنتزاكيس، وروايات (الحرب والسلام) و(آنا كارنينا) و(موت إيفان إيليش) لتولستوي، و(الصخب والعنف) و(ابسالوم ابسالوم) لفوكنر، (الأب غوريو) لبلزاك، و(محبوبة) لتوني موريسون، و(١٩٨٤) لجورج أورويل..

## خوسيه ساراماغو: الشجاعة في رجل

لا زالت أصداء زيارة وفد (البرلمان العالمي للكتّاب) إلى فلسطين المحتلّة تتفاعل

في الصحافة العالمية. وكان الوفد المؤلف من الكاتب البرتغالي خوسيه ساراماغو، والنيجري وول سوينكا، والإسباني خوسيه غوتيسولو، والأميركي راسل بانكس (رئيس البرلمان الدولي) قد قام بزيارة تضامنية إلى رام الله في أواخر شهر آذار الفائت. حيث اطلع على مظاهر التدمير الصهيوني المنظم لمعالم الحياة الفلسطينية. وعاد أولئك الكتّاب إلى بلادهم، حيث قدموا شهاداتهم الحية التي نشرت في أهم الصحف العالمية. وأثارت ضجة كبيرة.

وانفرد الكاتب البرتغالي خوسيه ساراماغو، حامل جائزة نوبل للآداب، بالوصول إلى الحد الكافي من الشجاعة الأخلاقية والأدبية، بحيث شبه الصهيونية بالنازية، وصرّح- من قلب رام الله- بأنه يشمّ رائحة أفران الغاز! وبالطبع قامت الدنيا ولم تقعد، واستنفرت الأقلام والمنابر الصهيونية والمتواطئة معها، لكي تشن هجومًا شرسًا على الكاتب البرتغالي العجوز والنبيل.

وبعد مغادرة الوفد لفلسطين بأيام معدودة، اندلعت حرب الإبادة الجديدة التي شنها (شارون) على فلسطين بأسرها: بشرًا وشجرًا وحجرًا.... فسارع ساراماغو إلى تسجيل شهادته الأدبية مجددًا، بالشجاعة العالية الصوت ذاتها، حيث كتب في أشهر صحيفة إسبانية (الباييس) مقالة جريئة بعنوان (من حجارة داوود إلى دبابات جوليات) تحدث فيها عن شارون كونه مجرم حرب وصاحب (رسالة) تقوم على ضرورة (القضاء على الفلسطينيين ثم بعد ذلك التفاوض مع ما يتبقى منهم. باختصار، هكذا تكون، مع بعض الاختلافات الطفيفة من حيث التكتيك، الخطة السياسية الإسرائيلية منذ عام ١٩٤٨). ويصف الصهاينة بكونهم (تسمّمت عقولهم بفكرة الخلاص بدولة اسرائيل الكبرى، والتي تحقق أخيرًا الأحلام التوسعية للصهيونية الأكثر أصولية، وهم ملوّثون باليقين الوحشي والمتجذر بأن في هذا العالم الكوارثي والعبثي يوجد شعب مختار من الرب والذي، نتيجة لهذا، تصبح تلقائيًا أفعاله المتولدة من عنصرية مهووسة، والتي من الناحية النفسية أو المرضية أفعال متعصبة، مبررة ومشروعة، باسم فظاعة الماضي والرعب من اليوم. هم تربّوا وتعلّموا على فكرة أن أية معاناة سبّبوها، أو يسبّبونها، أو سوف يسبّبونها للآخرين، وخاصة للفلسطينيين، تكون دائمًا أقل من الذي عانوه في الهولوكوست).

ويضيف ساراماغو بجرأة مدهشة: (يخدش اليهود جرحهم الخاص بلا هوادة حتى لا يتوقف عن النزف، ليجعلوه غير قابل للشفاء، ويظهرونه للعالم أجمع كما لو كان راية... من وجهة نظر اليهود، لاينبغي أن تخضع إسرائيل لحكم العقل، لأنها تعرضت للعذاب، والغاز، والحرق في أوشفيتز)[٣].

وبعد، مقالة ساراماغو عميقة ومدهشة، قوية وجريئة، وهي تمثل خير تمثيل صوت الضمير الحي للأديب العالمي الذي يحمل أوجاع الإنسان المضطهَد، في كل زمان ومكان. وتمثل بشارة طيبة

بانضمام صوت هام إلى أصوات نبيلة أخرى، تقف إلى جانب قضيتنا العادلة.

## عام ناظم حكمت

بمناسبة ذكرى مرور مئة عام على ولادته، قررت (اليونسكو) اعتبار العام الجاري (٢٠٠٢) عام ناظم حكمت. الشاعر التركي الكبير الذي كرّس شعره للحب والحرية، للثورة وتحرر الشعوب، للمرأة والسنبلة والوردة. الشاعر الذي قرأ شعره الملايين على امتداد القارات وتعاقب الأجيال ،و ألهبت قصائده مخيلة الباحثين عن الحرية، ونزلت الناس إلى الشوارع تردد أبياتًا من شعره.

وإذا كان زمن شعر الثورة والتحرر قد ولى كما يزعم البعض، فإن أحداً لن يستطيع إغفال تلك الحقبة النادرة التي كرّس فيها المبدعون أقلامهم للدفاع عن قضايا الإنسان الكبرى، وحقوقه في الخبز والشمس والحرية، ودفعوا- في أحيان كثيرة-ثمنًا باهظًا لموقفهم ذاك، وذاقوا طعم السجن والمنفى والتشرد، من جرّاء قصيدة أو رواية.

لقد أثر ناظم حكمت تأثيرًا بالغًا في الشعر العربي الحديث، وساهم في توجه شعراء كبار نحو تلك الغنائية المدهشة في بساطتها وعمقها معًا. والتي تخاطب الفقراء لتعبّر خير تعبير عن آلامهم وهمومهم وأشواقهم، وجميعنا نذكر لناظم حكمت مقاتاه الخالدة:

**أجمل أنهار العالم لم نرها بعد**

**أجمل أطفال العالم لم تكبر بعد**

**أجمل أيام العمر لم تشرق بعد**

**وأنا لم أهمس في أذنك**

**أجمل ما أتمنى أن أهمس لك به**

ويلخّص الشاعر والناقد المصري (حلمي سالم) تأثير ناظم حكمت على الشعر العربي في ثلاثة ملامح:

الأول: البساطة في الأداء الشعري، بعيدًا عن الاغتراب والتصنع، من دون فقدان جوهر المستوى الفني الرفيع.

الثاني: عدم إهمال التراث السابق، ما دفع الشعراء العرب إلى الإقبال على تراثهم الشعري العربي والنهل منه.

الثالث: التعبير عن هموم البسطاء وأشواق الفقراء وآلام المقهورين في الوطن وفي شتى بقاع الأرض[4].

وبعد، فقد شاركت مصر في الاحتفال العالمي بذكرى الشاعر التركي الكبير، فأقام المجلس الأعلى للثقافة في مصر ندوة بعنوان (الشاعر العالمي ناظم حكمت) شارك فيها نخبة من الشعراء والنقاد والمثقفين البارزين، منهم: جابر عصفور، عبد القادر القط، فاطمة موسى، إدوارد الخراط،أحمد عبد المعطي حجازي... وغيرهم. كما تم إعادة طبع ديوانه الشهير (أغنيات المنفى) الذي يقول فيه:

**أنا لا أملك ما أعطيه لشعبي المسكين**

سوى تفاحة هي قلبي

والذبحة لا تفتك بي لتصلب شريان او قسوة سجن

فأنا انظر عبر القضبان إلى الليل

ورغم الجدران القائمة على صدري

يخفق قلبي مع ابعد نجم

ناظم حكمت،الذي سجن واعتقل طويلاً، وأفرج عنه إثر موجة احتجاج عارمة، وحملة دولية نظمتها لجنة باريسيّة ضمّت بين أعضائها سارتر وبيكاسو وروبسون... ناظم حكمت الذي تحتفظ قصائده بحرارتها وطزاجتها رغم تعاقب الزمن، لا يزال حيًا ومعاصراً. ومن المدهش ألا يبادر المثقفون والمبدعون والشعراء السوريون لإقامة احتفاليّة خاصّة به في دمشق، أسوة بزملائهم في القاهرة.

في قصيدته (مراسيم جنازتي) يرثي ناظم حكمت نفسه قائلاً:

نافذة مطبخنا

ستودعني بنظراتها

وشرفتنا سترفع الغسيل المنشور قليلاً

حتى أمر

لقد عشت سعيداً في هذه الدار

## اليوم العالمي للقراءة

(لقد كرّست جزءًا من حياتي للأدب، وأعتقد أن القراءة هي شكل من أشكال السعادة).

هذا ما قاله الشاعر والكاتب الأرجنتيني الكبير (بورخيس).

وكانت اليونسكو قد أقرّت عيدًا للقراءة، أو يومًا عالميًا للقراءة، في الثالث والعشرين من نيسان من كل عام. وبهذه المناسبة كتب الشاعر اللبناني عقل العويط، مستنكرًا تلك الكتابات الكثيرة التي ترثي القراءة، فيقول: (لا ضرورة بعد اليوم إلى قرع الأجراس والطبول وإعلان أحوال الطوارئ بسبب انهيار زمن القراءة. فهذه مشاعر وانفعالات ساذجة لن تنفع في شيء. ثمة، الأحرى، ضرورة مطلقة لتجريب زمن اللاقراءة وصولاً حتى نفسه الأخير ليكتشف العالم بنفسه ضحالة العيش وهول هذا التجريب. وللذين يتعبون من القراءة ويملّونها، وللّذين ضاقوا ذرعًا بالكتب والكتّاب، فإننا سنسمح لهم بأن يضحكوا علينا ويعيّرونا بالرجعيّة وبعدم مواكبة روح العصر وفنونه وأدواته. من جهة أخرى، سنسمح لأنفسنا بأن نندب حظوظهم ونأسى لأحوالهم. سنقول لهم فقط إننا نعيش لا في العصر فحسب، بل في المستقبل، وإن القراءة لا تزال الفن الأعلى للحياة والسعادة واللذّة)(٥).

## جائزة السلام الألمانية لتشينوا اتشيبي

أعلن في فرانكفورت أن الكاتب النيجيري تشنيوا اتشيبي، أحد أشهر الكتّاب في أفريقيا، فاز بجائزة السلام السنوية التي تمنحها رابطة بائعي الكتب الألمانية.

وسيمنح اتشيبي (٧١ عامًا) الذي يقيم في الولايات المتحدة، الجائزة وقيمتها

١٥٠٠٠ يورو (١٣٥٠٠ دولار) في احتفال يقام في ١٣ تشرين الأول/أوكتوبر المقبل خلال المعرض السنوي للكتاب في مدينة فرانكفورت. وقال الإعلان الصادر عن الرابطة أن اهتمام اتشيبي انصبّ على (استعادة السلام في المناطق المعرضة لصراع ثقافي دائم).

يذكر أن اتشيبي الشهير بلقب (أبو الأدب الأفريقي في حقبة ما بعد الاستعمار) كتب ٢١ رواية، فضلاً عن قصص قصيرة ومجموعات من القصائد. وقد نشر أول وأشهر رواياته (انهيار الأشياء) في العام ١٩٥٨ عندما كان عمره لا يتجاوز ٢٨ عاماً فقط.

وكان قد تم منح جائزة السلام الألمانية المرموقة في العام الماضي للكاتبة والمخرجة السينمائية الجزائرية آسيا جبار، ومن الذين حازوا الجائزة سابقًا رئيس جمهورية التشيك فاتسلاف هافل (وهو كاتب مسرحي أساسًا) والكاتب الإسباني خورخي سيمبرون.

وقالت الرابطة في بيانها أنها (تكرّم أحد أقوى الأصوات وأبرعها في أفريقيا في أدب القرن العشرين، ولأنه معلم ومدافع عن الأخلاق لا يكل ولا يمل ولكن في المقام الأول لأنه روائي عظيم).

وأضافت الرابطة في بيانها قائلة (إنه مؤسس لا يبارى لتقليد روائي ناطق باللغة الإنكليزية في غرب أفريقيا. موضوعه الأثير هو إشاعة السلام في منطقة يعصف بها نزاع ثقافي دائم).

واتشيبي وهو ابن لرجل دين مسيحي ولد في مدينة أوجيدو بشرق نيجيريا وينتمي لقبيلة ايجبو إحدى اكبر ثلاث جماعات عرقية بالبلاد.

ويعيش اتشيبي بالولايات المتحدة، وهو متزوج وله أربعة أولاد ويعتمد على كرسي متحرك منذ تعرضه لحادث سير عام ١٩٩٠.

## ماركيز في وصية جديدة، لومنحني الرب حياة أخرى سأنام مكشوف الروح

في العام الفائت ٢٠٠١ قامت بعض مواقع شبكة (الإنترنيت) ببث ما أسمته (رسالة وداع) من الكاتب الكولومبي الكبير، غابرييل غارسيا ماركيز، إلى أصدقائه وعشاق قلمه، ثم اتضح أن الوصية مزيفة وعارية عن الصحة تماماً. وقبل أشهر قليلة تداولت وسائل الإعلام العربية والعالمية بيانًا شديد اللهجة لماركيز، يندد فيه بمجرم الحرب شارون، ويطالب بدولة فلسطينية مستقلة، ثم اتضح أن البيان صحيح، لكنه يعود للعام ١٩٨٢ وفيه يندد بهجوم شارون على بيروت آنذاك.

وهكذا فإن الشائعات استمرت تلاحق الكاتب الشهير صاحب جائزة نوبل. ومؤخرًا قامت المجلة الأدبية (ليتيراتورا) بنشر نص وصية أدبية لماركيز، وأكّد مقربون من الكاتب الكبير أنها تعود له بالفعل. وبغض النظر عن ذلك فإن نص الوصيّة يمثّل قطعة أدبيّة ثمينة، تستحق أن نتمعن فيها مليًا. تقول الوصيّة:

(لو نسي الرب لثانية واحدة أني مجرّد دمية من أسمال، وأهداني من الحياة قطعة، ربما لن أبوح بكلّ ما أفكّر فيه، ولكنّي حتمًا سأفكّر في كل ما أتفوّه به.

وقتها سأمنح القيمة للأشياء، ليس لقيمتها، وإنما لما تحمله من معان. سأنام أقل، وأحلم أكثر، واعيًا أننا في كل دقيقة نغلق أعيننا، نفقد ستين ثانية من النور.

إن وهبني الرب من الحياة قطعة، سأرتدي ملابس بسيطة، وأستلقي على بطني تحت الشمس، تاركًا ليس فقط جسدي مكشوفًا وإنما روحي أيضًا.

ربي، إذا حزت من الحياة على قطعة.. لن أدع يومًا ينقضي بدون أن أخبر من أهواهم، بأني أهواهم. وسأقنع كل رجل وامرأة بأنهم المقربون إلى قلبي وسأحيا عاشقًا للحب.

وسأثبت للرجال مدى خطئهم حين يفكرون بأنهم سيكفون عن الحب عندما يشيخون، دون أن ينتبهوا إلى أنهم يشيخون حين يتوقفون عن الحب.

وسوف أعطي للطفل جناحين، وأتركه يتعلم الطيران بمفرده. وسوف أعلم العجائز أن الموت لا يأتي مع كبر السن وإنما مع النسيان[٦])

❖❖❖

## جائزة (أمير أستورياس) الإسبانية للكاتب الأميركي آرثر ميللر

«أستاذ الدراما المعاصرة الذي لا يمكن منافسته» كان هذا هو المعيار الذي أعلنته لجنة التحكيم لجائزة أمير أستورياس- إحدى أرفع الجوائز الأدبية في إسبانيا- لمنح جائزة ٢٠٠٢ للأدب غير المكتوب بالإسبانية، للكاتب المسرحي الأميركي الشهير آرثر ميللر. وقال البيان الذي أصدرته اللجنة إن ميللر نجح، بروح حرة وحس نقدي متميز، في نقل مخاوف وصراعات وآمال وتطلعات إنسان هذا العصر إلى خشبة المسرح.

ميللر يعيش في أميركا ويحاول منذ توفيت زوجته ورفيقة عمره (آنجي) أن يبقي نفسه منشغلاً قدر الإمكان. وفي حوار مع صحيفة (الموندو) الإسبانية أجاب عن سؤال حول المراحل التي يمر بها العمل حتى يخرج إلى النور فقال: (أولاً أعثر على الفكرة التي تجذب انتباهي. وكل فكرة من أفكار أعمالي تولدت لدي بعد موقف معين. وأبدأ في الكتابة وأرى إلى أين يمكن أن أصل بها. إذا وجدت أن الفكرة لديها قوة درامية كافية فإني أكتب فيها كثيرًا، وأظلّ أكتب مئات ومئات الصفحات. بعد ذلك تبدأ مرحلة الانتقاء التي أختار فيها أفضل المواقف والأحداث التي تتماشى مع الموضوع وتخدم توجهه، وأحذف الزوائد..).

وعن النزعتين الواقعية والنفسية في كتاباته يقول ميللر (ما أحب أن أقدّمه في أعمالي هي مواقف تحدث في الحياة اليومية عندما نقع في مفترق طرق ويصبح علينا أن نختار بين الصواب والخطأ ويهمني لحد كبير البعد الأخلاقي لما أكتب، أريد أن أجسد واقع الحياة. أما

بالنسبة للنزعة النفسيّة فهي أيضًا أساسيّة ولا تقلّ أهميّة لأنّه بدونها يضعف العمل ويفقد الكثير من قوّة تأثيره).

وعن الوضعية البائسة للإنسان المعاصر يقول ميللر (أعتقد أن أحدًا لم يفكّر في تأثير تاريخ البشريّة خلال السّنوات الثّلاثين أو الأربعين أو الخمسين الأخيرة على ضمير البشر. بمعنى أنّ الإنسان لم تعد له قيمة في الوقت الحالي وأصبح من السّهل كثيرًا أن نتخلّص منه وننساه بسهولة).

❖❖❖

## بول أوستر يرفض الكتابة للمستقبل

الروائي الأميركي الشهير (بول أوستر) صاحب (ثلاثية نيويورك) أصدر في أيار (مايو) الفائت رواية جديدة حملت عنوان (كتاب الأوهام). وهي عبارة عن تأمّلات في الفن والقلق الخاص بالهويّة.

ولد بول أوستر في نيوجيرسي عام ١٩٤٧، وعاش في فرنسا في بداية السبعينات، حيث كتب سيرته الذاتيّة (اختراع الوحدة) وهو في الثّانية والثلاثين من عمره. أمّا أوّل أعماله الرّوائيّة (مدينة من الزجاج) فقد رفضها ١٧ ناشرًا في أمريكا. واليوم فإن ثلاثية نيويورك تقرأ في جميع أنحاء العالم.

وبمناسبة صدور روايته الجديدة، أجرت معه مجلة (الإكسبرس) الفرنسية حوارًا أجاب فيه عن سؤال الحاضر والمستقبل وهل يؤرقه ككاتب: (لا أحد يستطيع العيش سوى في زمنه وحاضره. نحن لا نسكن المستقبل ولا أحاول قط تخيله. فالتفكير في هذا لن يسفر عن أي شيء سوى خلق نوع من القلق لا أكثر).

وحول الحضور الطاغي لعنصر الوحدة في أعماله يقول (لا أعرف بالضبط ولكن كل ما أدركه أننا دائمًا في حالة وحدة،حتى عندما نكون محاطين بالآخرين. المفارقة المدهشة هي أنه لا أحد يكون وحيدًا تمامًا، وأن في كل دقيقة كل الناس يعانون الوحدة).

ولماذا يجيب دائمًا بـ «لا أعرف»، يقول أوستر (لا أملك أي نظريات جاهزة محفوظة لا في مجال الأدب ولا في مجال الحياة. وأعتقد أنّي لا أستطيع الكتابة عن الأشياء التي أعرفها جيدًا فهذا لا يثير اهتمامي، إنّني أكتب عن الأشياء التي تحيرني وتجعلني مضطربًا وأرغب في إدراكها. عندما نكتب لا نعلم حقيقة من أين تأتي الأفكارولا لماذا نكتب).

وعن أهمية الأدب في عالم اليوم يجيب (من النادر في الحياة الولوج إلى عقل الآخر، فقط الأدب يستطيع أن يمنح هذه الفرحة، أن نسكن مخيلة الآخرين، ومن أجل هذا نحن نحب القراءة فهي جميلة ومثيرة وشديدة الإنسانية. لأنها تسمح لنا أن نشارك ونتقاسم مع الآخرين أشياء حميمة. الكتاب هو المكان الوحيد في العالم الذي يتيح لاثنين من الغرباء أن يتقابلا وبشكل شديد الحميمية).

## فرنسا تحتفل بشاعرها الأثير فكتور هوغو في عيد ميلاده المئتين

بدأت فرنسا احتفالاتها لمناسبة مرور مئتي عام على ولادة شاعرها وأديبها الأثير فيكتور هوغو. وذلك منذ نهاية شهر شباط (فبراير) الفائت .فقد شهدت باريس وسائر المدن الفرنسية تظاهرات أدبية وأمسيات ثقافية، كما استذكرت وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية أعماله، وعرضت دور السينما والمسرح أشهر كتاباته.

وقام الملايين بزيارة بيته الباريسي الذي تحول إلى متحف، وزيارة قبره في البانثيون (مقر عظماء فرنسا) ووضعوا أكاليل الزهور على ضريحه، يتقدمهم الرئيس الفرنسي جاك شيراك ورئيس الوزراء السابق ليونيل جوسبان.

ولد فيكتور هوغو في بيزانسون بفرنسا في ٢٧ شباط (فبراير) ١٨٠٢ وكان والده ضابطًا في جيش نابليون الثالث. ما جعله يتنقل مع والده في كثير من البلدان الأوروبية.

وقبل بلوغه الخامسة عشرة كان قد نال الكثير من الجوائز الشعرية. وفي سنة ١٨١٩ فازت قصيدته (موسى على النيل) بالجائزة الأولى.

وفي عام ١٨٢٢ نشر مجموعته الأولى (قصائد وأشعار جديدة) التي نال عليها ثناء من الملك لويس الثامن عشر، وراتبًا سنويًا قدره ألف فرنك، وكان ذلك دافعًا لتقدمه الأدبي من جهة، وإتمام زواجه من حبيبته (أديل) من جهة أخرى، تلك التي ساندته طوال مشوار حياته وأنجبت له الأبناء. وكان ذلك في ٢٤ تشرين الأول (أوكتوبر) ١٨٢٢.

وشيئًا فشيئًا راح يبرز اسم هوغو كرمز من رموز المدرسة الرومانتيكية الصاعدة، في مواجهة المدرسة الكلاسيكية القائمة. وما إن جاء العام ١٨٣٠ حتى بات هوغو زعيم الأدب الحديث وأمير التجديد في القرن التاسع عشر.

وقد عاش هوغو طوال حياته شاعرًا عاطفيًا. إذ طالما تغنى بذكريات الطفولة وانفعالاتها. وبجانب العاطفة الشخصية كانت العاطفة الاجتماعية حاضرة أيضًا، إذ تغنى بكفاح أفريقيا في سبيل حريتها، وكتب رثاء حارًا للشاعر اللورد بايرون. وعاش حدادًا قاسيًا على هزيمة فرنسا في حربها مع ألمانيا.... وبالتدريج كان ينتقل إلى تصوير أحاسيس الإنسانية الخالدة وميولها الدينية والفطرية وحيرتها الوجودية[٧].

وكانت أعماله تتوالى بالصدور تباعًا: قصائد وأشعار مختلفة (١٨٢٢) قصائد جديدة (١٨٢٤) الشرقيات (١٨٢٩) أوراق الخريف (١٨٣١) أوراق الشفق (١٨٣٥) الأصوات الداخلية (١٨٣٧) الأشعة والظلال (١٨٤٠) التأملات (١٨٥٦) أغاني الطرقات والغابات (١٨٦٥) السنة الفظيعة (١٨٧٢) فن الصيرورة (١٨٧٧) أديان ودين (١٨٨٠) رياح العقل الأربع (١٨٨١).

كذلك كتب فيكتور هوغو الرواية.

ويعرف القراء جيداً في كل زمان ومكان روايته الخالدة (البؤساء). وقبلها كان قد نشر في العام ١٨٣٩ روايته (الأيام الأخيرة لقضي عليه بالموت). ثم نشر روايته (عمال البحر) في العام ١٨٦٦. ومجمل هذه الأعمال أظهرت دفاعه الحار عن الشعب، ووقوفه إلى جانب البؤساء والضعفاء في العالم.

وفي حقل المسرح كتب عمله الشهير (هرناني) التي ظهرت لأول مرة على مسرح الكوميدي فرانسيز بباريس في ٢٥ شباط ١٨٣٠ وعدّ النقاد ليلة العرض الأولى بمثابة افتتاح العصر الرومانسي في فرنسا، لدرجة أن الجمهور هجم على المنصة وحمل الممثلين والمؤلف على الأكتاف.

ثم ظهرت مسرحيته (الملك يلهو) ثم (روي بلاس) عام ١٨٣٨ و(بوغراف) ١٨٦٢، ثم مسرحيته الشهيرة (كرومويل) التي اشتهرت لكون هوغو كتب لها مقدمة هي أشبه ما تكون ببيان المدرسة الرومانتيكية الجديدة. ومع الزمن أصبحت تلك المقدمة وثيقة أدبية فريدة في تاريخ الأدب الفرنسي والعالمي.

أما عن الجانب السياسي في حياة فيكتور هوغو فيذكر له التاريخ دفاعه الحار عن الحرية، وخاصة بعد استيلاء نابليون الثالث على الحكم عام ١٨٥١ إذ هب الشاعر مدافعًا عن الحرية، داعيًا إلى الثورة والعصيان. فأمر نابليون بقتله مع رفاقه. ولكن معشوقته جولييت نجحت في تهريبه إلى جزيرة إنكليزية في بحر المانش حيث بقي هناك حتى العام ١٨٥٥ ثم غادرها إلى جزيرة في بلجيكا، بقي فيها مع عائلته ستة عشر عامًا.

وعرض عليه نابليون العودة ولكنه رفض بإباء قائلاً (سأعود إلى فرنسا عندما تعود إليها الحرية). وبالفعل، لا تكاد تعلن الجمهورية الثالثة في ٤ أيلول ١٨٧٠ حتى يدق هوغو أبواب باريس في اليوم التالي.

وفي العام ١٨٧١ انتخب شاعرنا عضوًا في الجمعية التأسيسية، وفي عام ١٨٧٦ أصبح عضوًا في مجلس الشيوخ. وفي العام ١٨٨٢ احتفلت فرنسا رسميًا بمرور ثمانين عامًا على ميلاده.

وفي عام ١٨٨٥ توفي شاعر فرنسا الأول كما أجمع النقاد، وشيعت جنازته في احتفال مهيب ودفن في (البانثيون) إلى جانب كبار العظماء في تاريخ فرنسا.



❖❖❖

## الفارو موتيس يفوز بجائزة (نيوستادات) الدولية للأدب

(ألفارو موتيس) شاعر، روائي، كاتب قصة ومقال، حصد جائزة (نيوستادات) الدولية للأدب هذا العام. فكان بذلك رابع كاتب من أميركا اللاتينية والثاني من كولومبيا (بعد غابرييل غارسيا ماركيز) الذي يفوز بهذه الجائزة الأمريكية الرفيعة، التي انطلقت في العام ١٩٧٠.

تأسست هذه الجائزة عام ١٩٦٩ تحت اسم (الجائزة الدولية للكتب الأدبية خارج أمريكا) ثم أصبح اسمها (جائزة نيوستادات

الأدبية للكتب من خارج أمريكا) وأخيرًا في عام ١٩٧٦ حملت اسمها الحالي (جائزة نيوستادات الدولية للأدب) وتعدّ هذه الجائزة هي الجائزة الدولية الأولى في أمريكا- ومن الجوائز الدولية القليلة في العالم المفتوحة أمام مشاركات الشعراء والروائيين وكتاب المسرح. وهي تقام تحت رعاية جامعة أوكلاهوما وجريدة (الأدب العالمي اليوم). وتبلغ قيمة الجائزة ٥٠,٠٠٠ دولار أمريكي.

ومن أبرز الفائزين بهذه الجائزة منذ انطلاقتها: جوسيب نجاراتي (إيطاليا) غابرييل غارسيا ماركيز (كولومبيا) فرانسيس بونغ (فرنسا) إليزابيت بيشوب (أمريكا) جيسواف ميووش (بولندا) أوكتافيو باث (المكسيك) آسيا جبار (الجزائر) نور الدين فرح (الصومال) دافيد معلوف (أستراليا).

❖❖❖

## كارلوس فوينتيس: حياة واحدة لا تكفي

الصداقة، الحب، المكسيك، دون كيشوت، فرانز كافكا، الموت،.. كلها مسلمات يؤمن بها الكاتب المكسيكي الشهير كارلوس فوينتيس. وهي أيضًا مفردات قاموسه الأكثر خصوصية، والتي قرر الكشف عنها في كتاب يصدر قريبًا بعنوان (بهذا أؤمن). الملحق الأدبي لصحيفة (الموندو) نشر مقتطفات من هذا الكتاب، يضم بعض الأفكار الهامة للأديب الكبير. نورد منها[٨]:

❖ الحب: يريد الحب دومًا أن يكون لأطول مدّة ممكنة امتدادًا للمتعة. الحب هو ما يحدث عندما تزدهر الرغبة من داخلها فتمتد للأيدي والأنامل والعضلات فتعزل الحبيبين عن العالم وعن الأصوات التي يتغلب عليها الصمت. إنه تلك اللحظة التي لا نفكر فيها في شيء حتى لا تنتهي أبدًا.

❖ الكتاب: إن الكتاب مع ما يعانيه في عصرنا الحالي من تجاهل تارة ومنافسة من قبل وسائل التكنولوجيا الحديثة تارة أخرى ليس مجرد مصدر معلومات. إن الكتاب يعلمنا ماذا تعني المعلومات بشكل نقي. إنه يعلمنا كيف يمكن لنا بطريقة متوازنة أن نفهم أنفسنا ونفهم العالم الخارجي ونفهم العالم الاجتماعي الذي يضم المدينة والأشخاص. إن الكتاب يخبرنا بما لا نستطيع- أو لا تريد- أية وسيلة اتصال أو معلومات أخرى أن تخبرنا به.



❖ الرواية: لا توجد رواية بلا حكاية. إلا أن الرواية تدخل بنا إلى الحكاية وتسمح لنا بالبحث عن الطريق إلى خارجها حتى نتمكن في النهاية من رؤية الحكاية فنصبح حكائين، وعندما نغرق في الحكاية ونضل الطريق بين متاهاتها دون أن نصل إلى المخرج فذلك يعني ببساطة أننا أصبحنا ضحايا الحكاية.

❖ الزمن: لا يمكن أن يكون هناك زمن حي مع ماض ميت.إننا إذا طردنا الماضي من النافذة فإنه سيسارع بالعودة من الباب متنكرًا في أكثر الصور غرابة. إن الحرب

ضد الذاكرة حرب خاسرة لا سيما بالنسبة لهؤلاء الذين يقدمون عليها.

***

## من الأدب الأفغاني

ساهمت التطورات العالمية المتسارعة، منذ أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١ في تسليط الضوء على أدب طالما كان معزولاً وغائبًا عن الساحة العالمية. وبدأ المرء يطالع، هنا وهناك، أشعارًا وقصائد وروايات تمثل صبوات و أحزان الأفغاني العادي. ولعل قارئ الأدب الأفغاني سيفاجأ بذلك النور الخلاق الذي يشيع رعشة فريدة هي رعشة نور الألم والرحيل والمنفى والموت والحب والحرية. كل ذلك يقطر من ثنايا ذلك الأدب الذي يفيض رقة وعذوبة.

فمن أشعار نساء البشتون، التي جمعها من مصادرها سيد بهاء الدين مجروح، نقتطف هذه المقاطع [٩]

أنا أحب! أنا أحب

ولا أخفي حبي

ولا أنكره

حتى ولو انتزعوا

بالسكين

كل شاماتي

***

أعطني يدك

يا حبيبي

ولنرحل إلى الحقول

لكي نتبادل الحب

أو نتهاوى معًا

تحت الطعنات

***

آه يا حبي

إذا كنت ترتجف

بين ذراعيّ هكذا

فما أنت فاعل

عندما يطلق

اصطفاق السيوف

ألف ومضة

***

يا حبيبي

أسرع واقتحم الغارة

لقد تراهنت عليك

مع بنات القرية

***

تعال

وكن زهرة على صدري

لأتمكن كل صباح

من إنعاشك بقهقهة مني

***

وللشاعرة الأفغانية المعاصرة (ربيعة بلخي) هذه القصيدة:

أنا واقع في شرك الحب المخادع

ما من محاولة اثمرت

لم أعرف متى امتطيت

صهوة هذا الجواد الجامح

كلما كبحت جماحه يقل إذعانا

الحب محيط بمثل هذه المساحة الشاسعة

لا احد يستطيع ان يقطعه في اي مكان

على الحبيب الحقيقي ان يكون وفيًا إلى النهاية

ويواجه نزعة الحياة الشريرة

❖❖❖

كذلك صدرت في باريس رواية (أرض ورماد) للكاتب الأفغاني المقيم في فرنسا عتيق رحيمي (وصدرت الترجمة العربية مؤخرًا في بيروت).

وقد وصفت الرواية بأنها رواية صغيرة وبسيطة وبطيئة بطء ساعات الانتظار، لكنها تمتلك ذلك الشجن الداخلي المدمر الذي يمسك بتلابيب القارئ ويسحبه رغمًا عنه إلى أرض الأحزان والدمار والرماد.

يهدي الكاتب روايته (إلى أبي وإلى الآباء الآخرين الذين سلبتهم الحرب دموعهم). ويرسم في الرواية لوحة لما يمكن أن تقتله الحرب داخل قلب الإنسان، حتى وإن لم تسلبه حياته.

❖❖❖

ومؤخرًا أقيمت في لاهاي (هولندا) ندوة حول الأدب الأفغاني تحدث فيها الشاعر الأفغاني (محمد أمين) والشاعرة الأفغانية (شكيلا عزيز)[10]. وكانت الندوة تحت عنوان (قراءة لأبرز ملامح الشعر الأفغاني المعاصر). تحدث خلالها محمد أمين عن رؤيته لكون أسيا هي القارة الوحيدة التي تضم بين جنباتها أكثر من حضارة، وأفغانستان هي إحدى البلدان التي تتجاور فيها حضارات وثقافات متعددة في آن واحد كالهندوسية والبوذية والزردشتية والإسلامية، فضلاً عن ثقافات الإثنيات المتعددة الأخرى. ولذلك ينبغي ألا نضع كل المسؤولية على الشعر بحيث نلقي على كاهله مسؤولية (صياغة سؤال الهوية بعيدًا عن النزعات القومية والطائفية). صحيح أن بإمكان الشعر أن يطرح أسئلة لاحصر لها، ولكنه لا يستطيع أن يقدم مقترحات أو حلولاً سحرية لأنه معطى ثقافي وحضاري واحد من بين مئات المعطيات. ويتساءل محمد أمين بحيرة: (هل للقصيدة أن تعيد لبوذا تمثاله المنهار خجلاً من الروح العصبية؟).

❖❖❖

## الشاعر النمساوي أريش فريد يدين الصهيونية وجرائمها في فلسطين

تم حديثًا إعادة استذكار الشاعر النمساوي الشهير اريش فريد، الذي اشتهر بعدائه الشديد للصهيونية، على الرغم من أصله اليهودي، حيث يعلن براءته منهم تمامًا بعد أن تحولوا إلى جلادين بحق الشعب الفلسطيني.

ولد أريش فريد عام ١٩٢١ في فيينا وهرب من النازية إلى إنكلترا عندما كان

في السابعة عشرة من عمره، وعاش في لندن حتى وفاته عام ١٩٨٨. وعرف فريد بأنه شاعر الحب بلا منازع في الشعر الجرماني، ولا تزال قصائده تحتل المرتبة الأولى بين قصائد الحب المكتوبة بالألمانية منذ أكثر من مئة سنة.

يغلف الشاعر قصائده برومانسية شفيفة وحزن جليل، ولا يجد المخرج إلا في الحب. الحب الذي هو بالضرورة بواجه الحقد والكراهية[١١].

وعندما كان يتابع تفاصيل المجازر الإسرائيلية بحق العرب، لم يكن فريد ليتردد في رفع صوته عاليًا، بقصائد حارة وعميقة ومؤثّرة عن بيروت والقضيّة الفلسطينيّة، قصائد تدين الجرائم الصهيونية في صبرا وشاتيلا ودير ياسين وغيرها. لنستمع إلى مقتطفات من قصيدته الشهيرة (اسمعوا بني إسرائيل):

عندما كنا مطاردين

كنت واحداً منكم

كيف يمكنني البقاء..

وانتم من يطارد الآن؟!

**

كان حنينكم

لتكونوا كالآخرين من الشعوب.. التي قتلتكم

وها أنتم الآن.. مثلهم تماماً!

**

لقد نجوتم.. وتجاوزتم

الذين قسوا عليكم

قسوتهم تستمر الآن.. من خلالكم!

**

الصحراء.. حيث جامع الموت الفسيح

وحيث الرمال أحذية وصنادل..

آثار أقدامهم العارية

على رمال الصحراء..

باقية.. خالدة

أما آثار قنابلكم ومجنزراتكم

فلسوف تزول

**سؤال اليوم في أدب أميركا اللاتينية:**

**هل انتهى عصر الواقعية السحرية؟**

الواقعية السحرية، تلك المدرسة الأدبية المبهرة، التي ازدهرت في سبعينات القرن العشرين، وعرفت انتشاراً واسعًا في مختلف القارات، يبدو أنها بدأت تواجه معارضة حقيقية من طرف جيل جديد من الكتاب الشباب، في أميركا اللاتينية، الذين يرفضون هذه السلطة التي أرساها ماركيز، ليحاولوا نهج أسلوب مغاير في الكتابة، ينحو باتجاه الحركة اليومية، على خلفية الجنس والعنف والموسيقا، ويخلو من كل الخرافات والفانتازيا والأساطير، وبقية العناصر التي عرفناها (وأحببناها) في تلك المدرسة. ويحاول الجيل الجديد الوصول إلى قطيعة كاملة مع أسلافه، ويبحث باستماتة عن صوته الخاص.

أما مناسبة هذا الحديث، فكان الملف الذي قدمته مجلة (نيوزويك) مؤخراً تحت هذا العنوان المثير (هل انتهى عصر الواقعية السحرية، وماذا بعدها؟!) واحتوى الملف على مجموعة من المقالات المتنوعة، التي تحاول أن تجد إجابات (مع وضد) على هذا السؤال الكبير.

فالكاتب (ماك مارجوليس) يقول إن الواقعية السحرية قد ماتت، ويعطي للجيل الجديد شرعية الانطلاقة المغايرة. في حين أن الكاتب والناقد (وليام كينيدي) يدافع بحرارة عن ماركيز وواقعيته السحرية، عاداً أن رواياته لم تكن ساحرة وحسب، وإنما روايات متفردة أسست لأسلوب وعالم خاصين مثله مثل كافكا وجويس وهيمنغواي[12].

ويقول (مارجوليس) في مقالته إن النوع الأدبي الجديد ظهر عام ١٩٩٦ مع صدور مجموعة قصصية كتبها ١٨ قاصاً مختلفاً، لا تتجاوز أعمارهم كلهم الخامسة والثلاثين. وكانت هذه الأقاصيص عبارة عن (ارتجالات وقحة)، (عدائية في الغالب، حول الحياة المدينية المعاصرة، على خلفية الجنس والمخدرات وموسيقا البوب).

ثم جاء الروائي التشيلي الشاب (ألبرتو فوغيه) لينظر للأدب الجديد. ويعلن أن أميركا اللاتينية ليست الجنة! وليسخر من ماركيز وعوالمه الخيالية.

وذلك في كتابه (ذبذبات سيئة)، الذي وضعه أحد النقاد التشيليين بأنه (أدب الزبالة).

ويقول (مارجوليس) إننا شهدنا قبل خمسين سنة (قنبلة أدبية أميركية لاتينية). كان ثوارها اليخو كاربنتيه وخورخي لويس بورخيس وخوليو كورتاثارا وكارلوس فوينتيس وماريو بارغاس ليوسا، وبعد الترجمة الإنكليزية لكتاب (مئة عام من العزلة) أصبح غارسيا ماركيز زعيم هذا الخط الجديد. ومنذ ذلك الوقت بيع من روايته ملايين النسخ، وترجمت إلى أكثر من أربعين لغة، وقد أصبحت الواقعية السحرية جزءاً رئيسياً من تعليم الأدب في العالم بأسره. وعدّ النقاد أن ماركيز منح الأميركيين اللاتينيين هوية ثقافية.

ويعدّ كتاب الجيل الجديد أن كل ذلك قد أصبح ماضياً، وأن تلك المدرسة العظيمة فقدت سحرها واستنفدت أغراضها. وأن تعقيدات الحياة المعاصرة لم تعد تحتمل تلك الكتابة الخيالية. وكما يقول توماس كولشي (إنني وصلنا إلى مرحلة، وعندما لا نعود نعرف معها ماذا نفعل بالشخصية النسائية، فإننا نرسلها إلى الجنة عبر طيران الفراشات)!

ويختتم (مارجوليس) مقالته بالقول إن روائي أميركا اللاتينية القادم، (قد يأتي على طائرة بوينغ، وليس على أجنحة الفراشات).

وعلى الضفة الأخرى يكتب (وليام كينيدي)

دفاعًا حارًا عن الواقعية السحرية في مقالته المعنونة (ليست ساحرة لكنها فريدة). يقول فيها:

(في الواقع لم تكن «مئة عام من العزلة» ساخرة. لقد كانت متفردة، كما أعمال كافكا، معلم الاستشباح الكبير، وكما هيمنغواي، شاعر الاقتضاب الكبير، وكما جويس، العبقري اللغوي، الذين قُلّدوا كلهم لدرجة أنهم أصبحوا ضحايا سرقة صافية وبسيطة في السلم الكوني. بفضلهم، استطعنا أن نقترب من الواقع بطريقة جديدة. وعندما استعملوا أساليبهم، قام حشد المقلّدين باختيار أقصر الطرق إلى القراء). ويبقى، أن هذا السجال القادم من أميركا اللاتينية. يمثل مؤشرًا كبيرًا على تحولات وانعطافات في أدب تلك القارة. ومن الواضح أن عملية (قتل الأب) قد بدأت هناك. وما علينا سوى انتظار ما سيأتي به جيل الأبناء الذين يقودون عملية التمرد تلك. وبعدها يمكن الحكم على شرعية ذلك التمرد.

## الهوامش

١- انظر: صحيفة الشرق الأوسط. الأحد ٢٠٠٢/٦/٢ العدد (٨٥٨٧).

٢- مقالة أمير طاهري في نفس العدد.

٣- انظر: أخبار الأدب. الأحد ٢٠٠٢/٥/٥ العدد (٤٦٠).

٤- جريدة الحياة: الأحد ٢٠٠٢/٦/٢ العدد (١٤٣١٨).

٥- ملحق النهار: ٢٠٠٢/٤/٢٨ العدد (٥٢٩).

٦- أخبار الأدب: ٢٠٠٢/٥/٢٦ العدد (٤٦٣).

٧- انظر: هوغو: اكون في الصدارة أو لا أكون -صالح أبو مسلم -جريدة الزمان -لندن -٢٠ أيار ٢٠٠٢ العدد (١٢٢٤).

٨- انظر: كارلوس فوينتيس: حياة واحدة لا تكفي -ترجمة: مها عبد الرؤوف -جريدة أخبار الأدب -القاهرة -٢٠٠٢/٦/٩ - العدد (٤٦٥)

٩- انظر: إرهاب الأدب الأفغاني -ملحق النهار -بيروت -٢٠٠١/١١/١٢ العدد (٥٠١).

١٠- انظر تغطية شاملة للندوة في جريدة الزمان -لندن -٢٠٠٢/٥/٣١ العدد (١٢٢٥).

١١- انظر: الشاعر النمساوي أريش فريد - ترجمة وتقديم طه خليل -جريدة السفير -بيروت -الاثنين ٢٠٠٢/٦/٣ - العدد (٩٢١٢).

١٢- انظر: سؤال اليوم في أدب أميركا اللاتينية -ترجمة وتقديم اسكندر حبش - جريدة السفير -بيروت - الجمعة ٢٠٠٢/٦/٧ -العدد (٩٢١٦).

## كتاب الشهر

# الأنثروبولوجيا وتنمية المجتمعات المحلية

عرض وتقديم: ميساء نعامة ❖



يقول الدكتور عادل العوا: «الإنسان، أخلاقياً، كالإنسان، فلسفياً، كائن إشكالي يشرف على دنيا السر أو اللغز. وقد سعى كثير من الفلاسفة المعاصرين، أمثال: كير كجارد، وهيديجر، وياسبرز، وسارتر، إلى إماطة اللثام عن جوانب ممكنة من هذا السر أو اللغز وانتهى الأمر بمحاولتهم ومحاولة سواهم إلى دفع المساعي الفكرية في هذا المجال بصفة المباحث الإشكالية».

والإنسان بالتعريف هو كائن مزود وبالعقل، وهذا العقل يجعله يختلف اختلافاً نوعياً عن باقي الكائنات.

(❖) ميساء نعامة: باحثة من سورية، تعمل في مجال الصحافة، محررة في مجلة المعرفة.

وللدخـــول في عـــالم الإنســـان وكل الإشكاليات التي أحدثها وجوده في هذه الدنيا كان لابد من العودة إلى الكتاب الهام للدكتور محمد صفوح الأخرس، الأنثروبولوجيا وتنمية المجتمعات المحلية، الصادر عن وزارة الثقافة، للعام ٢٠٠١، والذي يضم ٤٢٩ صفحة عبر تسعة فصول.

***الفصل الأول:**

*** الأصول التاريخية النظرية للأنثروبولوجيا.**

يبدأ الفصل الأول بسرد موجز لأهم الدراسات والبحوث التاريخية التي ترصد تاريخ علم الإنسان، والذي يقول المؤلف: تاريخ علم الإنسان قديم جداً، وتعود نشأته إلى أعمال المؤرخ الإغريقي هيرودوتس وتاسيتوس، إلى أن سجل ابن خلدون نقلة نوعية في الدراسات الأنثروبولوجية والاجتماعية. وقبل كل شيء لابد من التعرف على المعنى الخاص بالأنثروبولوجيا.

**أولاً - معنى الأنثروبولوجيا.**

قبل كل شيء فإن كلمة أنثروبولوجيا تعني علم دراسة الإنسان. أما اشتقاق المصطلح اللغوي فيرد إلى الأصل اليوناني الإغريقي، حيث تتألف الكلمة من مقطعين: الأول (أنثروبوس) أي الإنسان، والثاني (لوجوس) أي الكلمة أو الموضوع والدراسة، وهكذا يتحدد معنى الأنثروبولوجيا بدراسة الإنسان في أصوله التاريخية التي تمس جوانبه العضوية والاجتماعية والحضارية، وتطور تلك الجوانب عبر الزمان والمكان، ومـا تفرزه نشاطات الإنسان من أنماط وتراكيب ووظائف وعلاقات اجتماعية متباينة.

**ثانياً - نشأة الأنثروبولوجيا وتطورها.**

**أ- الأنثروبولوجيا والدراسات الوصفية للرحالة:**

بدأ تطور الأنثروبولوجيا من خلال منحيين: الأول يرتبط بالاستخدامات الاجتماعية والسياسية لها معتمدة على دراسات نظرية ومنهجية بقصد استنباط أنماط من الإنجازات الحضارية الهامة من خلال الوصف والتحليل لما خلفته الشعوب القديمة من حكايا وأساطير.

أما المنحى الثاني: فيهتم بالخصائص والمفاهيم وطرائق البحث التي تتسم بها. وهنا يقول الباحث: لقد كانت دراسات الفيلسوف الفرنسي «مونتسكيو» في كتابه «روح القوانين» منطلقاً للتمييز بين البناء الاجتماعي ونظام القيم، وللتوجه نحو الأصول التاريخية للأنساق والبنى الاجتماعية، فاتجه علماء الأنثروبولوجيا نحو المجتمعات البدائية لأنهم رأوا فيها مصدراً ثميناً لجمع المعلومات عن مراحل تاريخية يفترض أن مجتمعات معاصرة مرت بها.

**ب- الأنثروبولوجيا والدراسات الجيولوجية.**

وهذا التعاون بين الأنثروبولوجيا والدراسات الجيولوجية تم لمحاولة حصر وتصنيف الأجناس البشرية المختلفة، وقد

عـثـر على أول دليل مـبـاشـر على وجـود الإنسان القديم في ألمانيا /١٨٦٥/، وهذا الاكـتـشـاف الذي عـرّف باسم إنسـان (نياندرتال) نسبة إلى القرية التي عثر عليه فيها. وهذا مـا كان ركيزة للأنثروبولوجيا، حـيث كـانت بداية بحـوث علميّ الآثار والأنثروبولوجيا الطبيعية.

## جـ- الأنثـروبولوجـيـا ودراسـات الشعوب البدائية.

إن جـوهر الاهتـمـام في عـمليـة فـهم المجتـمـعـات البـدائية يعود في اعـتـقـاد الباحث، إلى عدة مسائل.

١- استخدامات الأنثروبولوجيا من قبل المستعمرين لتطويع الشعوب.

٢- تفسير اهتمام علماء الأنثروبولوجيا بالمجتمعات البدائية، لأن تلك المجتمعات تتصف بسمات رئيسية من أجل التعرف على أصل الإنسان وحاضره ورصد اتجاه التغيرات التي تحدث فيها بقصد الوصول إلى فهم لواقع المجتمعات الأوربية.

## د- الأنثـروبولوجـيـا والحـمـلات الاستعمارية.

عندمـا ربط الكثـيـر من علمـاء الأنثروبولوجيا بين الأنثروبولوجية كعلم والحملات الاستعمارية والتبشيرية، كان هدفهم تبرير هذه الحملات الاستعمارية بحجة نقل تلك الشعوب المستعمرة إلى مرحلة المدنية والتقدم.

## هـ- الأنثـروبولوجيـا والتوجـهـات التنموية:

لقد توافق الاتجاه التنموي المعاصر مع جهود كثير من المنظمات الدولية التي رأت أن تخلف بعض القطاعات في المجتمعات المتخلفة يؤثر بالضرورة على مسار التقدم في المجتمعات النامية والمتقدمة على حد سواء، وعلى هذا الأساس ظهرت دراسات متخصصة بتحديد معالم حضارات المجتمعات المتقدمة، كما انصب الاهتمام على دراسة عمليات الصراع والامتزاج بين الحضارات المتقدمة التي تتلاقى في حالات الهجرة أوالحرب...

وعليه فقد دفع الاتجاه التنمويّ مسيرة الأنثـروبولوجـيـا باتّجـاهـات مـغـايرة للاتجاهات التقليدية، وقد استتبع هذا التـغـيـر في الاتجـاه تغـيـرات مماثلة في المحاور النظرية، ووسائل البحث وأدوات التحليل.

## ثالثاً: الأنثروبولوجيا وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية الأخرى:

وتحت هذا العنوان يقول المؤلف: تشكل العلوم منظومـة تتـشـابك فـيـهـا المعـارف والموضوعات ويبرز ذلك التشابك في نطاق منظومة العلوم الإنسانية والبيولوجية بشكل مباشر نظراً لارتباطها بموضوع واحد هو الإنسان في جوانبه البيولوجية والحضارية والاجتماعية. إلاأن مايميز العلوم بعضها عن بعض هي المتغيرات المستخدمة في التحليل والتفسير.

والحـقـيـقـة أن د. الأخرس يوضح في هذا البند الكثـيـر من المصطلحات التي يمكن أن تتـشـابك في مـعناهـا مـثـل،

الأنثربولوجيا والأثنولوجيا، ومصطلح الأثنولوجيا والأثنوغرافيا إلى آخر هذه المصطلحات التي يفصلها المؤلف بكثير من الدقة التي تفيد أصحاب الاختصاص كما تفيد المهتمين العاديين، ولأنني مهما اختصرت في توضيح هذه المصطلحات لن تؤدي الغرض المطلوب منها إلا في العودة إلى هذا الكتاب القيم.

### ❖ الفصل الثاني:

### ❖ ميادين الأنثروبولوجيا:

يقول المؤلف: لعل أهم الميادين المتفرعة عن الأنثروبولوجيا هي: الطبيعية والحضارية والفلسفية والاجتماعية والسياسية والدينية والنفسية والتطبيقية العملية.

#### أولاً: الأنثروبولوجيا الطبيعية.

#### أ - موضوع الأنثروبولوجيا الطبيعية:

تتمحور الدراسات التي تتطرق إليها الأنثربولوجيا الطبيعية حول الجوانب البيولوجية للإنسان وطبيعة تركيبه الجسمي، ومحاولة تتبع تاريخ وجوده على سطح الأرض حتى الوقت الراهن، والعصور المختلفة التي مرّ بها، والسلالات المتنوعة التي توزع فيها.

#### ب- ميادين ومجالات تخصص الأنثروبولوجيا الطبيعية:

حيث ترتبط الأنثروبولوجيا الطبيعية بالعلوم الطبيعية كعلم التشريح وعلم الحياة وعلم وظائف الأعضاء، وهناك فرع حديث نسبياً للأنثروبولوجيا الطبيعية يختص بدراسة تطور السلوك الاجتماعي من خلال دراسات مقارنة للمجموعة البشرية التي ينتمي إليها الإنسان من الناحية البيولوجية.

### ثانياً: الأنثروبولوجيا الحضارية:

#### ا - التعريف والماهية:

١- معنى الأنثروبولوجيا الحضارية: تهتم الأنثروبولوجيا الحضارية بدراسة الإنسان في نطاق منظومته الحضارية، أي أنها تعالج تباين واختلاف سلوكه ونشاطه اليومي بتباين الظروف الموضوعية المحددة لأدواره المتعددة في المجتمع. ومن هنا يتضح الاختلاف القائم بين كل من الأنثروبولوجيا الحضارية والطبيعية من حيث الموضوع والمعنى، فإذا كان موضوع الأنثروبولوجيا الطبيعية هو التركيب الجسدي للإنسان وما مر عليه من تطورات، فإن موضوع الأنثروبولوجيا الحضارية هو الحضارة.



٢- الثقافة: تهتم الأنثروبولوجيا الحضارية بدراسة الثقافة ككل في نشأتها وتطورها وانتشارها.

٣- المدنية: يقول الباحث: المدنية إنسانية أممية في مدلولها. وشاملة في أبعادها، وتستوعب منظومات مركبة في جنباتها. وهي أعلى، في المستوى التحليلي، من المستويين السابقين.

#### ب- المفاهيم والمستويات التحليلية.

١- المجتمعات الإنسانية: ينظم كل

الناس عادة في جماعات، وتشكل الجماعة البنية الأساسية للسكان الذين ينشطون عبر أدوار مختلفة لتحقيق الأهداف الأساسية للأفراد.

٢- المجتمعات البشرية: يتشكل المجتمع من جماعات معقدة، تكاملت وظائفها وتطورت بشكل يسمح بتكوين بناء اجتماعي متماسك في نطاق منظومة اجتماعية تتحدد فيها أشكال ثابتة للأدوار الاجتماعية ونشاطات اقتصادية واستقرار في أنماط العلاقات الاجتماعية، ونظم معيارية تنقل الولاء الاجتماعي من مستوى الجماعات إلى مستوى المنظومة الأوسع بما يحقق الاتصال بين الجماعات أولاً وبين العالم الخارجي لمجتمعات أخرى ثانياً.

جـ - الحضارة والفولكلور الشعبي: لأن الفولكلور الشعبي هو المدخل الأساسي لدراسة حضارة الإنسان، فإن الباحث د. الأخرس. قد فصل بكثير من الحرفية العملية، معنى الفولكلور والأصول النظرية له ومجالاته المتعددة في الأزياء الشعبية والأغنية الشعبية، والرقص الشعبي.

## ثالثاً: الأنثروبولوجيا الاجتماعية.

تعدّ الأنثروبولوجيا الاجتماعية المحور الثالث لميدان الأنثروبولوجيا إلى جانب كل من الأنثروبولوجيا الطبيعية والحضارية، والأنثروبولوجيا الاجتماعية تبحث في تطور الأنساق الاجتماعية وتباينها والعوامل التي تعمل على تشكيل البناء الاجتماعي في نسق معين يتمايز عن الأنساق الأخرى، فثمة أنساق متباينة للمجتمعات الإنسانية يقوم على أداء الأدوار فيها إنسان تتمايز حضارته وقيمة، وعلى هذا يصبح موضوع الأنثروبولوجيا الاجتماعية هو المجتمع ومايحويه من أنساق وبنيات وتنظيمات اجتماعية، وتشكل النظم والبنى الاجتماعية موضوعات رئيسة في الأنثروبولوجيا الاجتماعية بمرحلتها المعاصرة.

## رابعاً: الأنثروبولوجيا الطبية:

تبحث الأنثروبولوجيا الطبية في أسس التربية الصحية التي تقوم على القيم الاجتماعية المعطاة لمفاهيم الحياة، والمرض، والموت، وفي تباين التصورات المحددة لهذه المفاهيم بتباين المجتمعات والظروف التاريخية التي يشهدها كل مجتمع. حيث تتصل في قسم كبيرمنها بثقافة المجتمع وتاريخه وحضارته وخصائصه المجتمعية.أما موضوعاتها فتمتد إلى التطور البيولوجي للإنسان وسلوكه الاجتماعي، إلى وضع الأساس الاجتماعي والحضاري للتقدم الصحي.

## خامساً: ميادين أخرى.

ويندرج تحت هذا البند بعض الميادين الأخرى للأنثروبولوجيا، منها، الأنثروبولوجيا الفلسفية والتي تعتمد على دراسة الطريقة المنطقية التي تتشكل منها النظريات المرتبطة بالإنسان والمقولات والقضايا النظرية الموجهة للبحث.

- الأنثروبولوجيا التطبيقية: وتهدف إلى الاستفادة من نتائج الدراسات

الأنثروبولوجية النظرية في التطبيق العملي.

- الأنثروبولوجيا السياسية ومفهوم العصبية عند ابن خلدون:

وتتناول الأنثروبولوجيا السياسية بالدراسة أثر المتغيرات الاجتماعية والحضارية في تشكيل بنية السلطة السياسية، وتطور أنظمة الحكم في المجتمع.

أما العصبية: فقد أبدع ابن خلدون في ربط المسائل الاجتماعية المتعلقة بالبناء الاجتماعي وأنساقه الحضارية وبين حركة التاريخ السياسي، مفهوم العصبية يدل على الترابط الوثيق بين الأسس البنيوية الاجتماعية وبين الأنساق الحضارية في تشكل السلطة والدولة.

❖ الفصل الثالث:

❖ الإنسان والبيئة:

يبحث هذا الفصل، حسب قول الباحث، في ارتقاء الإنسان وتفاعله مع البيئة التي طوعها لتلبية حاجاته الأساسية، فأثر فيها تأثيراً كبيراً، كما سنتعرف من خلال هذا الفصل على مراحل تطور ارتقاء الإنسان على الشكل التالي:

**أولاً: الإنسان القديم والارتقاء البيولوجي.**

**أ -الأماكن الأولى لوجود الإنسان.**

يقول الباحث: يكاد يكون في حكم المؤكد أن نشوء الإنسان كان في أفريقيا قرب خط الاستواء، وتشكل البراري الممتدة بين شمال (كينيا) وجنوب غرب (أثيوبيا) بالقرب من بحيرة (رودلف) نموذجاً عن الأمكنة التي يحتمل أنها شهدت بدايات الارتقاء الأولى للإنسان.

**ب- بدايات ارتقاء الإنسان.**

أما بدايات ارتقاء الإنسان، فتعود إلى خمسين مليون سنة، حيث كان هنالك مخلوق يعيش على الأشجار، سميّ ليمور، ووجد أن لبقاياه كثيراً من الصفات المميزة للعائلة التي تضم الإنسان والقرد والنسناس، وقد تبين من خلال رصد التطورات التي مر بها الإنسان في مراحل ارتقائه، بأنه يسير على ذات الخط الذي وجد عليه الإنسان والقرد.

وفي مرحلة مجهولة يتراوح طولها بين خمسة وعشرة ملايين سنة، والتي لم تكتشف أية بقايا تعود إلى هذه المرحلة، ويعتقد أنها تخفي في ثناياها القسم الأكبر إثارة من حيث أنها تتعلق بانفصال خط السلالة البشرية عن الخط الذي يقود إلى القرود الحديثة.

جـ-الإنسان المنتصب:

وفي عام ١٩٢٤، اكتشفت جمجمة تاريخية لطفل يبلغ من العمر خمسة أو ستة أعوام، عاش في زمن يعود إلى ماقبل مليون عام، وذلك في منطقة بخط الأستواء تعرف باسم تونغ.

ومن خلال هذه الجمجمة استطاع عالم التشريح ريمون دارت، التعرف على مخلوق تلك المرحلة وبعض صفاته، وقد أطلق دارت على إنسان تلك المرحلة.

(الاسترالوبتيكوس) ومعنى ذلك القرد الجنوبي، و(الاسترالوبتيكوس)، أصغر حجماً من الإنسان الحالي، يزن حوالي (٤٥) كغ، ويدل شكل عظم الحوض عنده أنه كان يمشي منتصباً، وقد عُد انتصاب القامة وتحرير اليدين من أجل استعمال الأدوات أعظم هدف فردي في ارتقاء الإنسان الحديث، وانطلاقاً من هذا يمكننا عدّ الاسترالوبتيكوس، ابن عم الإنسان الحالي.

د-الإنسان الأول:

ويقصد بالإنسان الأول هو إنسان بكين الذي اكتشفت آثاره في الصين، هذا الإنسان هو أول من استعمل النار وهو متميز عن الإنسان الاسترالوبتيكوس.

هـ-الإنسان النياندرتالي:

وجدت آثار الإنسان النياندرتالي في ألمانيا، وإنسان نياندرتال، كثرت بقاياه وأمكن دراسته بشكل دقيق، تنمية لوجود ظاهرة دفن الموتى داخل الكهوف التي كان يعيش فيها.

و - الإنسان العاقل:

إن تطور المهارات المتقدمة نسبياً واستعمال النارمن قبل الإنسان بالإضافة إلى الارتقاء البيولوجي والفكري، أدى إلى إفراز سلوكيات جديدة ، والإنسان العاقل يتمتع بعدة ميزات وخصائص تفتقر إليها باقي الحيوانات، ذكرها الباحث بكثير من التفصيل نذكر منها:

١- تركيب مخي متميز ٢- المشي والوقوف في وضع الاعتدال، تركيب خاص لليدين أمكن للإنسان بواسطته أن يستخدمها لتناول الأشياء وليس للمشي....

## ثانياً، الإنسان ومسائل التكيف مع البيئة.

أ -الخصائص المشتركة والمتميزة عند الإنسان والحيوان:

إن كل حيوان يترك وراءه آثاراً تدل على ماكان، أما الإنسان والإنسان فقط فإنه يترك آثاراً تدل على ماابتدع. والمفارقة هي أنه كان تكيف الحيوان مع البيئة متميزاً عن تكيف الإنسان معها، ففي حين كان تكيف الإنسان بطيئاً على المستوى البيولوجي مما أعطاه الفرصة للارتقاء، كان تكيف الحيوان معها عميقاً ومباشراً.

كما أن الشيء المدهش، حسب قول الباحث، أن الحيوانات لم تتطور إلا قليلاً، بينما تبث أن البقايا الهيكلية التي وجدت في طبقة المليون عام... تختلف كثيراً ،خصوصاً من ناحية الجمجمة عن إنسان العصر الحالي وتحت هذا البند يستعرض د. الأخرس العصور الجليدية وتكيف الإنسان خلالها ثم التنقل وأثره على حياة الإنسان ثم البيئة وتوزع الأجناس.

## ثالثاً، ارتقاء مواهب الإنسان:

إن مراحل تطور الإنسان وارتقائه هي عبارة عن تفاعل مجموعة عناصر: بيولوجية واجتماعية وحضارية ومجتمعية، والإنسان مخلوق فريد، لأنه يتميز بمجموعة من المواهب، ولعل أهم حافز وأعظم دافع في ارتقاء الإنسان هو متعته

في ممارسة مهـارته، فهـو يمارس مايتقن ويحسن عمله. يقول د. الأخرس: إن لدى الإنسان موهبة تفوق أهميتها كل المواهب، وتجعله فريداً بين الكائنات الحية الأخرى. وماهذه الموهبة إلا سعادة الإنسان الشديدة عندما ينجز شيئاً ينبع من ذاته، تلك السعادة التي تدفعه دوماً وباستمرار نحو تحسين قدراته ومعارفه. من هنا نجد أن لكل عصر نقطة تحول، وهنالك طريقة جديدة للنظر إلى العالم تؤكد تناسقه وتناغمه.

وحسب هذا السرد التاريخي الممتع لحياة الإنسان يصل د. الأخرس إلى نتيجة غاية في الأهمية وهي: أن هذه الانجازات التي حققها الإنسان، وخصوصاً في المجال العلمي، ليست عبارة عن مجموعة من الأبنية الجاهزة، بل إنها سلم طويل من العمل المتدرج.

❖ الفصل الرابع:

❖ الحضارة والمجتمع:

يتابع الباحث في هذا الفصل عرض العلاقة وامتدادها بين الإنسان والبيئة وانطلاقته نحو بناء حضارة تفيد من معطياته الخلقية، وتنظيماته الاجتماعية، فتصبح العلاقة بين الحضارة والمجتمع. وللدخول في معطيات هذه العلاقة لابد أولاً من التعرف على مفهوم الحضارة.

### أولاً: مفهوم الحضارة.

رغم الأختلاف في تحديد مفهوم الحضارة بشكل واضح ودقيق، فإن جملة من المعطيات التي تشكل نقطة الارتكاز لموضوع الأنثروبولوجيا الحضارية، استطاع الدكتور صفوح الأخرس أن يحددها بكثير من الدقة حين قال: إن الحضارة في مفهومنا تتعدى نطاق المادة التقنية والأسس العلمية، لتشمل الرموز والأدوات والفن وكل مايرتبط بالنواحي التجريدية والروحية لما هو موجود في نطاق العلاقات الاجتماعية، فهي تجمع الجانب الاجتماعي والمادي معاً في إطار تجريدي يتعدى نطاق الزمان المحدد ليصل إلى أبعاد التاريخ... والإنسان منذ القديم يتصل مع الطبيعة ومع أقرانه من خلال اللغة المكتوبة أو الرموز المتداولة، لكن بعض الدلالات الاجتماعية، والتي تعبر عنها بالسلوك الاجتماعي على شكل رموز لعقل اجتماعي معين، تشكل عنصر الحضارة، وهكذا تشمل الحضارة جوانب مادية وغير مادية لتصبح أداة بيد الإنسان لتحقيق ذاته.

### ثانياً: الخصائص الأساسية لمفهوم الحضارة.

أ - الحضارة إنسانية وعامة: تحوي الحضارة تجريداً لقيم يصوغها الأفراد في المجتمع على شكل قواعد أخلاقية تتعدى في أحكامها نطاق العمل الفردي إلى أحكام قيمية ترتبط بالأنماط العامة لسلوك الجماعات في مواقف وأفعال اجتماعية حيوية.

ب - الحضارة ذات طابع اجتماعي: عندما يتنازع الفكر الاجتماعي بخصوص الطابع الاجتماعي للحضارة، يؤكد د. الأخرس على أن مجمل الأعمال التي يقوم بها الأفراد تتم في نطاق الجماعة،

وفي رحاب مؤسسات اجتماعية، ولذلك فإن إنتاج الإنسان يبدأ في الفرد وينداح إلى الجماعات عن طريق المؤسسات، والعلاقة بين الحضارة والأفراد هي علاقة متبادلة.

جـ - الحضارة ذات بناء مركب، بمعنى أن الحضارة تحوي عناصر متشابكة ومتداخلة، يصعب عزل بعضها على المستوى العملي إلا أنه من الممكن على المستوى التحليلي أن نميز بين أجزاء بسيطة وأخرى مركبة في بناء الحضارة.

د - الحضارة مكتسبة: أي أنها تنتقل من جيل إلى جيل آخر عن طريق أساليب وعمليات التنشئة الاجتماعية والتطبع الاجتماعي، حيث يكتسب الأفراد ثقافة مجتمعهم.

هـ - الحضارة انتقائية: تختصر الرموز جملة من المعاني، وينتقي الفرد بعضاً منها، وتختزن الجماعات جزءاً من ذلك البعض، وهكذا يتشكل التراث الحضاري من ذلك المخزون المركز المكثف.

و - الحضارة متجددة ومتطورة: إن الخصائص الإنسانية والمكتسبة للحضارة تعطيها سمة الثبات النسبي، إلا أن عناصر الانتقاء والحركة تضفي عليها سمة التغير الدائم.

## ثالثاً: الاتجاهات النظرية في الحضارة والمجتمع.

أ -الاتجاه التحليلي:

لقد وجه الاتجاه التحليلي الأنثروبولوجيين إلى ملاحظة ودراسة نواح من النشاط الإنساني لم تكن تلقى مايذكر رغم أهميتها البالغة، كما أنها أتاحت لعلم النفس والطب النفسي فرصة الاطلاع على أنواع من السلوك الإنساني في مجتمعات متنوعة الحضارة.

ب - الاتجاه التطوري:

يفترض التطوريون أن تاريخ الحضارة الإنسانية ليس سوى تتابع متماثل موحد من النظم الاجتماعية، وبناء على ذلك استخدمت طريقة المقارنة من قبل هؤلاء العلماء، بغية أجراء مقارنات بين النظم الاجتماعية المختلفة، كونها تمثل بقايا مراحل سالفة للحضارة التي مرت بها المجتمعات المتمدنة.

جـ - الاتجاه الوظيفي:

استخدام تعبير الوظيفية بدلالات متباينة، تشير بمجملها إلى الإسهامات التي يقدمها عضو من الأعضاء لجماعته أوجماعة من الجماعات لأعضائها.

## رابعاً: تشابك المستويات التحليلية لمفهوم الحضارة:

أ -الحضارة والفعل الاجتماعي:

يقول الباحث: هناك علاقة وثيقة بين الحضارة والفعل الاجتماعي، فالحضارة تجريد رمزي لفعل اجتماعي مأخوذ ومستخلص من السلوك الجمعي، فنحن لانستطيع ملاحظة الحضارة مباشرة،لكننا نستطيع ملاحظة أفعال الناس وسلوكهم في واقعهم ووسائلهم المختلفة... وهذه

الوسائل لاتعبر عن الفعل الفردي لأي شخص بعينه وإنما هي أقرب إلى أن تكون تعميماً واسعاً، ونموذجاً عاماً تقع في حدوده أساليب الفعل الفردي المتنوعة.

ب - الحضارة والثقافة:

إن مفهوم الحضارة مرادف للثقافة عند علماء الأنثروبولوجيا في انكلترا. فقد حدد العالم الأنثروبولوجي الإنكليزي «تايلور» الثقافة - والحضارة بالمعنى الأثنوغرافي الواسع، وهي تلك المجموعة المعقدة التي تشمل المعارف والمعتقدات والفن والقانون والأخلاق والتقاليد وكل القابليات والتطبيقات الأخرى التي يكتسبها الفرد كعضو في مجتمع ما.

جـ - الحضارة والمدنية:

إن أغلب المحاولات التي بذلت لإيجاد تقابل بين الحضارة والمدنية قد تعرضت لكثير من النقد. ولهذا السبب تخلى الباحثون في الوقت الحالي عن التمييز بينهما واكتفوا بالقول: «إن المدنية إذا تميزت عن الحضارة فإنما يكون ذلك لأن المدنية تشتمل على الحضارة الكبرى وأن يكون لكل المجتمعات البشرية حضاراتها سواء فيها المتقدمة والمتخلفة، أي أن الحضارة قد تكون أكثر تحديداً في الزمان والمكان من المدنية كما يظن ذلك في الكلام عن حضارة يونانية ومدنية غربية بوجه عام.

جـ - الحضارة والمجتمع:

إن العناصر المجتمعية والجوانب الحضارية مترابطة داخلياً بصورة صحيحة، فكثير من الأدوار في التنظيم الاجتماعي تتحدد حضارياً، فدور الجنس مثلاً تعينه وتحدده عناصر حضارية، ويتأثر مضمون هذه الحضارة بصورة بنيتها الاجتماعية.

**خامساً، المضمون الذّاتي الموضوعي للحضارة:**

يستخدم مفهوم الحضارة بمعنيين متمايزين الأول موضوعي، يرتبط بمعالم التقدم الأدبي والفني والعلمي والتقني التي تنتقل من جيل إلى جيل في المجتمع الواحد ومن مجتمع إلى آخر.

❖ المعنى الثاني: هو الذّاتي أوالإنساني المرتبط بذلك الشكل من المعالم ومدى التصاقه بخصوصية المجتمعات المحلية للأفراد.

❖ الفصل الخامس:

❖ الحاجيات الإنسانية والنظم المعيارية والاجتماعية.

تؤكد الدراسات الأنثروبولوجية وجود علاقة متينة بين إشباع الحاجات والنظم الحضارية والاجتماعية.

والحاجة بالتعريف: هي افتقار إلى شيء ما، إذا وجد حقق الإشباع والرضى والارتياح للكائن الحي. والحاجة من هذا المنظور شيء ضروري لاستقرار الحياة (حاجات فيزيولوجية)، أو للحياة بشكل أفضل (حاجة نفسية). وأهم الحاجات الضرورية للإنسان هي:

أولاً، الغذاء:

تعد تلبية حاجة الإنسان للغذاء أمراً

ضرورياً لبقائه، وهي مسألة تشترك فيها كل الجماعات الإنسانية عبر مراحل تطورها وتباين أزمنة وأمكنة وجودها.

❖ ثانياً: المأوى:

يشكل المأوى بالتعريف الملجأ الذي يستقر الإنسان في رحابه ليعيش حياة تتميز بالراحة والاستقرار والطمأنينة، وهي عوامل أساسية تسهم في ارتقائه بيولوجيا وحضارياً واجتماعياً.

❖ ثالثاً: الكساء:

استخدم الإنسان الكساء استخدامه للمأوى، وتشير بعض الدراسات إلى أن الكساء بمفهومه الحديث يتضمن كل مايلبسه أفراد المجتمع، ومايتطلب تحضيره كالخياطة على سبيل المثال، وإدامته للاستعمال كالتنظيف، وبكل مكوناته الضرورية الملائمة للمناخ وظروف العمل، والحياة الاجتماعية بما فيها من تقاليد وعادات وتذوق جمالي، وهو من حيث المنشأ يتأثر بمستوى الإنتاج، وبتركيب التجارة الخاصة لمستوردات السلع الكسائية.

❖ رابعاً: الصحة:

تشير الصحة إلى حالة الرفاه والسعادة الكاملين جسمياً وعقلياً واجتماعياً، وليس فقط إلى غياب المرض أو العجز، فهي مفهوم مركب يهدف إلى تأمين الشعور بالأمن والحرية والطمأنينة والكرامة واحترام الذات، والقدرة على السعي لتأمين الغذاء والسكن واللباس وفرص التعليم والثقافة والعمل. لذلك غدت الصحة من الاحتياجات الإنسانية الأساسية.

❖ الباب الثاني:

❖ الأنثروبولوجية التطبيقية.

ويتضمن هذا الباب أربعة فصول عبارة عن نماذج ميدانية تقدم دراسة تفصيلية للأصول المنهجية في دراسة المجتمعات البدوية، ودراسة حوض الحماد في البادية وخصائصه الأساسية ثم الآفاق التنموية لتطوير المجتمعات البدوية وأخيراً دليل التعرف على المجتمع البدوي.

وهذه الدراسات الميدانية هي عادة متميزة درج الدكتور صفوح الأخرس على تقديمها لتكتمل بذلك الدراسة مع الدراسة الميدانية أو العملية، لتقدم للباحث المستفيد وثيقة أو منهاج بحيث يمكن أن يعود إليها كلما استدعت الضرورة. وكتاب الأنثروبولوجيا وتنمية المجتمعات المحلية، يجد القارئ المتعة والفائدة الحقيقية لدى قراءته، فهو بالإضافة إلى مايقدمه من تعريف دقيق لبعض المصطلحات الإشكالية أيضاً يعدّ مرجعاً مهماً لما يتعلق بحياة الإنسان منذ نشأته إلى ما أصبح عليه الآن من تكوين المجتمع وتراكم الحضارات....